إرشاد السالكين

من الرسالة القشيرية

حقوق الطبع محفوظة

الطَّبعَة الأولى

١٤٤٠هـ _ ٢٠١٩م

DARAL BEYRUTI
ARAPÇA YAYINLAR
Büyük Raşitpaşa Cad
Yümni iş merkezi No:16/B-22
Veznecıler Beyazıt İstanbul
TEL : 00905356502249
Email : beyruti.kitab@gmail.com

دار البيروتي
دمشق - حلبوني - بناء الخجا - فاكس : ٢٢٤٣٨٤٨
هاتف : ٢٢٥١٥٧٤ - ٢٢١٣٩٦٦
ص.ب : ٢٥٤١٤ س.ت : ٦١٥٠٠
Email : albyrouty@hotmail.com

إرشاد السالكين

من الرسالة القشيرية

للإمام العلّامة أبي القاسم

عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري

رحمه الله تعالى

٣٧٦ - ٤٦٥ هـ

انتقاها ورتّبها

محمّد موفّق المرابع

دار البيروتي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والسالكين على طريقه المقتدين بسنته إلى يوم البعث والدين، وعلينا معهم آمين، وبعد:

فقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩]، وروى البخاري برقم (٥٨١٧) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف تقول في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**المرء مع من أحب**»، وروى أيضاً برقم (٥٨١٩) عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنَّ رجلاً سأل النبي ﷺ متى الساعة يا رسول الله؟ قال: «**ما أعددت لها**»؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله، قال ﷺ: «**أنت مع من أحببت**»، فهذه النصوص تدلنا على أساس قضية التصوف، ألا وهي (الحب) حب أهل الله سبحانه وتعالى.

والله تعالى أمر عباده بالتقوى، وعلم سبحانه صعوبة ووعورة ذلك عليهم منفردين، فأمرهم بصحبة الصادقين؛ ليسهل عليهم الصدق والتقوى، فصحبة الصادقين المأمور بها إنما هي الوسيلة التي ارتضاها سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين؛ ليتصل ورد شربهم بورد شرب الأنبياء والصديقين، فيكونوا قد ساروا على هدي نور خارج من مشكاة واحدة، فتصفو قلوبهم، وتعلو هممهم، وتتهذب نفوسهم، وتنطلق أرواحهم، ويربو إيمانهم.

وإن هذا الكتاب العظيم "الرسالة القشيرية إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام" ليعتبر بحق من أعظم موارد الصحبة للأولياء من السلف الصالح،

وأهم قوانين التصوف النقية التي تدخلنا في صحبة أهل الله والعارفين الكُمَّل، وإنها مورد عذب فراته لمن أراد أن يرتشف من أخلاقهم وأحوالهم، وأقوالهم ومقاماتهم، ويسير على طريقتهم في التقوى وصلاح الحال وينجو في المآل.

لذلك اهتم العلماء والمصلحون بها اهتماماً منقطع النظير، حفظاً وقراءة وإملاء، وتسليكاً وشرحاً واختصاراً، فهي مورد سيال، وبحر خضم مع صغير حجمها، ووجيز عبارتها، وسهولة نظمها، ولقد رأيت فتوراً لدى أهل هذا الزمان وإعراضاً عنها، وقعوداً عن التنعم بنعيمها، وانحرافاً عن سلوك طرقها؛ رهبة في عبور جسورها، فاستخرت الله تعالى لتقريبها وتقديمها بثوب يناسب أهل هذا الزمان، محاولة مني لبث الروح في أهل زماني لما فيها من فيض رباني، وأخلاق محمدية صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم أجمعين.

محمد موفق بن علي المرابع

تركيا - استنبول

عملي في الكتاب

أما عملي فقد كان كما يلي:

- انتخبت أحاديث الأبواب والأقوال والقصص الواردة مع حذف أسانيدها؛ رغبة في الاختصار.

- انتقيت الأقوال والقصص الواضحة التي لا غموض فيها، وتجاوزت بعض الأقوال والقصص التي يعسر على غير المتخصصين فهمها.

- قمت بتغيير ترتيب بعض الأبواب والفصول، ولم أترك باباً أو فصلاً لم آخذ منه، وتخيرت منها الأحاديث التي أمكن تخريجها.

- كما وضعت ترجمة وافية للإمام القشيري قدس الله تعالى سره، وترجمة للرسالة القشيرية، ومقدمة مختصرة عن التصوف ونشأته.

هذا وأسأل المولى جلَّ جلاله أن يكتب لها القبول عنده سبحانه وتعالى كما كتب لأصلها، فقبول أهل الله تعالى لها، وإقبالهم عليها مدى الأزمان والعصور، لأعظم دليل على قبولها لديه سبحانه، وأسأله تعالى أن ينفع بها قلوباً وأرواحاً اشتاقت للمورد العذب، للترقي في ميدان الربانية، وحنَّت لاتباع الحبيب الأعظم ﷺ، والتحلي بأخلاقه الموصلة يقيناً للصفاء الروحي التام، والتهذيب النفسي الذي يرنو إليه العقلاء الربانيون، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كلمة شكر

ولقوله ﷺ: «**من لم يشكر الناس لم يشكر الله**».

لا بدَّ أن أشكر الإخوة الذين كانوا عوناً لي في هذا العمل وهم:

الشيخ الدكتور محمود المدني

الشيخ محمد سعيد الأيوبي

الشيخ محمد عمر محمد

الشيخ حامد الديراني

الأخ محمد الرفاعي

ولدي الشيخ محمد صالح المرابع وولدي الشيخ محمد خير المرابع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الإسناد إلى الإمام القشيري

هذا وقد أكرمني الله تعالى بسماع الكثير من الكتاب من شيخنا العلامة محمد صالح الفرفوري رحمه الله تعالى في درس الأخلاق خلال ثلاثة أعوام في معهد الفتح الإسلامي العامر.

وسمعته إلا قليلاً من شيخي ومربيَّ العارف بالله تعالى محمد صالح الحموي رحمه الله تعالى خلال أكثر من خمس وعشرين عاماً في مجلس الأربعاء في قرية الهامة بريف دمشق.

وأرويها بالإجازة عن الشيخين الجليلين العلَّامة الشيخ عبد الرزاق بن محمد حسن الحلبي الدمشقي (ت١٤٣٣هـ)،

والشيخ محمد ديب بن أحمد الكلاس الدمشقي (ت١٤٣٠هـ)، قالا: أخبرنا العلَّامة الشيخ محمد صالح بن عبد الله الفرفوري الدمشقي (ت١٤٠٧هـ)، سماعاً لبعضه وإجازة لسائره.

عن العلَّامة الشيخ عبد القادر بن محمد بن حسين القصاب الديرعطاني (ت١٣٦٠هـ).

عن العلَّامة شيخ الأزهر محمد بن محمد بن حسين الأنبابي المصري (ت١٣١٣هـ).

عن العلَّامة الشيخ مصطفى بن محمد بن أحمد العروسي المصري (ت١٢٩٣هـ) صاحب الحاشية على شرح الشيخ زكريا على الرسالة القشيرية، المسماة (نتائج الأفكار القدسية في بيان معاني شرح الرسالة القشيرية).

عن والده الشيخ محمد بن أحمد العروسي المصري (ت١٢٤٤هـ).

عن والده الشيخ أحمد بن موسى بن داود العروسي المصري (ت١٢٠٨هـ).

(ح) ويروي العلَّامة الشيخ محمد صالح الفرفوري بالإجازة عن العلَّامة الشيخ عمر بن حمدان المحرسي المدني (ت١٣٦٨هـ).

عن علي بن ظاهر الوتري المدني (ت١٣٢٢هـ).

عن عبد الغني بن طالب الغنيمي الميداني الدمشقي (ت١٢٩٨هـ):

أخبرنا العلَّامة الشيخ عبد الرحمن بن محمد الكزبري الصغير الدمشقي (ت١٢٦٢هـ) قراءة عليه، مع الرجوع إلى شرحها لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري.

عن أحمد بن موسى بن داود العروسي المصري (ت١٢٠٨هـ) (وهنا يلتقي السندان).

عن شهاب الدين أحمد بن عبد الفتاح الملوي المصري (ت١١٨٢هـ).

عن عبد الله بن سالم البصري المكي (ت١١٣٤هـ):

أخبرنا محمد شمس الدين بن علاء الدين البابلي المصري (ت١٠٧٧هـ) سماعاً عليه لأولها وإجازة لباقيها.

عن محمد حجازي بن محمد الواعظ القلقشندي المصري (ت١٠٣٥هـ).

عن نجم الدين محمد بن أحمد الغيطي المصري (ت٩٨١هـ).

أخبرنا شارحها شيخ الإسلام زكريا بن محمد الأنصاري المصري (ت٩٢٦هـ) سماعاً عليه لبعضها وإجازة لسائرها، وهو صاحب الشرح المسمى (إحكام الدلالة على تحرير الرسالة)، وله في الرسالة أسانيد متعددة، ذكر في مقدمة هذا الشرح أنه يرويها:

عن أبي الفتح محمد بن زين الدين أبي بكر بن الحسين المراغي المكي (ت٨٥٩هـ).

عن أبي الخير أحمد بن الحافظ أبي سعيد خليل بن كيكلدي العلائي (ت٨٠٢هـ).

عن أبي العباس أحمد بن أبي طالب الحجار الصالحي (ت٧٣٠هـ).

عن أبي الفضل جعفر بن علي بن هبة الله الهمذاني (ت٦٣٦هـ).

عن الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السِّلفي (ت٥٧٦هـ).

عن أبي المحاسن عبد الواحد بن إسماعيل الروياني (ت٥٠١هـ).

أخبرنا مؤلفها الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت٤٦٥هـ) سماعاً عليه.

التصوف حقيقته ونشأته

يعتبر التصوُّف طريقاً خاصّاً، يسيرهُ السالك إلى الله تعالى، محاولًا التخلُّصَ من شوائب النفس وكدوراتها، في محاولةٍ للوصولِ إلى الصفاء الروحي والنقاء النفسي والطهر العملي، ويعتبر التصوف من العلوم الإسلامية التي كثر حولها النقاش في أصله ومصدره، وتشعبت الآراء واختلفت وجهات النظر بين منصف وجائر، وتجرأ البعض على الخوض فيه بدافع الطعن والتشكيك، ضارباً أصول المنهج العلمي عرض الحائط، ونحن ههنا لا ننفي حقيقة وجود بعض الأدعياء لهذا الطريق المستقيم، وبعض الغلاة الخارجين عن جادة الصواب، فهذا أمر لا ينكر، بل مشاهد وله أسباب واضحة، نتج عنها ظهور تيارات منحرفة عبر التاريخ تدعي التصوف وهو منهم براء، وسبب نشوء هذه النزعات المنحرفة في التصوف أن علم التصوف علم ذوقي لا تحده الرسوم والتعاريف، ولا تضبطه العقول والمفاهيم، لذلك كان أحد أهم الأسباب التي دعت الإمام زين الإسلام القشيري رحمه الله تعالى لتأليف الرسالة لجماعة الصوفية في بلدان الإسلام . . هو ضبط مسار هذا الطريق ببيان العقيدة الصحيحة التي لا يدخل العبد هذا الميدان بدونها، وبضبط مصطلحاته ومقاماته، وبذكر تراجم سادة القوم وذكر الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها الصوفي الصادق.

وواجب أرباب التصوف الصحيح من أهل العلم عبر العصور محاربة الزيغ والضلال الذي يدعيه المتصوفة المدعون لارتياد الطريق، لذلك كان شيخنا وأستاذنا المربي الجليل الشيخ محمد صالح الحموي رحمه الله تعالى كثيراً ما يحذر المريدين وينبههم كي لا ينجرفوا في زيغ وضلال المنحرفين

والمغالين فيقول: (ميزوا بين الصوفي والمتصوف، الصوفي: صافاه الله تعالى وصفا قلبه لله تعالى، وامتلأ عقله بالعلم الصحيح والعقيدة الحقة، وأما المتصوف: فهو إنسان مُدعٍ للانتساب لهذا الطريق بعيدٌ عن الفكر السليم للصوفية الحقة)[١].

وسنحاول في هذه السطور تسليط الضوء على التصوف سريعاً من حيث:

أولاً: تعريف التصوف، لغة واصطلاحاً، وتعريف الصوفي.

ثانياً: نشأة علم التصوف.

ثالثاً: موضوع علم التصوف.

رابعاً: فائدة علم التصوف.

أولاً: تعريف التصوف:

لغة: اختلف العلماء حول اشتقاق مصطلح التصوف إلى عدة أقوال، كلها لم تسلم من الانتقادات والاعتراضات[٢].

يقول الإمام القشيري: (وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق والأظهر فيه أنه كاللقب)[٣].

وقد أفرد الإمام القشيري باباً كاملاً سماه (باب التصوف) ذكر أقوال العلماء واختلافهم في تعريفه.

وعلى كلٍّ فلا مشاحة في الألفاظ، والأمر الأهم في هذه المسألة هو النظر إلى المعاني والدلالات التي يكتنزها هذا المصطلح، وهو تزكية النفوس وصفاء القلوب، للوصول إلى حضرة علام الغيوب، (وإن شئتَ فسمه الجانب

(١) مدرسة الحب الإلهي لسبطه محمد صالح المرابع.

(٢) مدخل لدراسة التصوف مصطفى بوزغيبة مركز الإمام الجنيد للدراسات والبحوث الصوفية المتخصصة.

(٣) الرسالة القشيرية (ص٢٧٩).

الروحي في الإسلام، أو الجانب الإحساني، أو الجانب الأخلاقي، أو سمه ما شئت مما يتفق مع حقيقته وجوهره، إلَّا أن علماء الأمة قد توارثوا اسم التصوف وحقيقته عن أسلافهم من المرشدين منذ صدر الإسلام حتى يومنا هذا، فصار عُرفاً فيهم).[١]

أمَّا التصوف اصطلاحاً:

إذا رجعنا إلى كتب السادة الصوفية نجد للتصوف تعريفات كثيرة جداً.

يقول الشيخ زروق رحمه الله تعالى في ((قواعده)): (وقد حُدَّ التصوف ورسم وفُسر بوجوه تبلغ نحو الألفين، مرجعها كلها لصدق التوجه إلى الله تعالى، وإنما هي وجوه فيه)[٢].

فتعددت الأقوال وكثرت في تعريفه، ولكن جميع هذه الأقوال تنصب في مفهوم واحد، وتخرج من مشكاة واحدة، وتعدد الأقوال في هذا العلم يثبت حقيقته العالية والراقية، وتبين حقيقته في أنه علم جليل وسام، ولو لم يكن كذلك لما تفنن العلماء في تعريفه، فهو أكثر العلوم في معانيه، إذ كل الأقوال تستخرج اشتقاقاتها من أوصاف حسنة وهذا ينطبق على المعنى اللغوي أو الاصطلاحي أو العرفي؛ لأن جميع من تناول التصوف بالتعريف ذكروا له أوصافاً جليلة وراقية، مما يدل على علو شأن هذا العلم ورفعته.

واختلافهم في وصفه جاء من اختلاف الرؤى لهذا الأمر العظيم، فكل من وصفه وصف جهة معرفته وتذوقه له، كما لو اجتمع قوم حول جبل شاهق عظيم وأرادوا وصفه فكل واحد منهم يصفه من جهة ما يرى ويلمس ويدرك، وقد تختلف الأوصاف بشكل ما ولكنها جميعاً تؤكد وصفاً لشيء هائل وكبير،

(١) حقائق عن التصوف (ص٦٢).

(٢) قواعد التصوف (ص٢١).

فلذلك جمعت أهم التعريفات لهذا العلم الجليل التي تقرب معنى التصوف للأذهان، ومن خلالها يتجلى بوضوح معنى التصوف.

يقول سيد الطائفة الإمام الجنيد في تعريف التصوف: (الخروج عن كل خلق دَنِي، والدخول في كل خلق سَنِي)[١].

وقال ابن عجيبة رحمه الله تعالى: (التصوف: هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل، وتحليتها بأنواع الفضائل، وأوله علم، ووسطه عمل، وآخره موهبة)[٢].

وقال الإمام أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى: (التصوف تدريب النفس على العبودية وردها لأحكام الربوبية)[٣].

وقال القاضي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله تعالى: (التصوف علم يعرف به أحوال تزكية النفوس وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية)[٤].

وقال معروف الكرخي رحمه الله تعالى: (التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق)[٥].

وقال الكتاني رحمه الله تعالى: (التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف)[٦].

وقال سيدنا الشيخ محمد صالح الحموي رحمه الله تعالى: (التصوف منار

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني (١/ ٥٥).

(٢) معراج التشوف إلى حقائق التصوف لأحمد بن عجيبة الحسني (ص٤).

(٣) نور التحقيق للشيخ حامد صقر (ص٩٣).

(٤) شرح الرسالة القشيرية (ص٧).

(٥) عوارف المعارف للسهروردي (ص٣١٣).

(٦) المدخل إلى التصوف للمهدلي (ص٦٩).

الشريعة وروحها)[١].

وقال ابن خلدون في تعريف التصوف: (العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة)[٢].

تعريف الصوفي:

قال الإمام أبو علي الروذباري: هو من لبس الصوف على الصفا وأطعمه الهوى ذوق الجفا وكانت الدنيا منه على القفا وسلك منهاج المصطفى ﷺ.

وقال الإمام سهل بن عبد الله التستري: الصوفي من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر وانقطع إلى الله من البشر واستوى عنده الذهب والمدر.

هذا وقد ذكر الحافظ أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء تعريفاً للتصوف في كل ترجمة من تراجم كتابه تقريباً وفي كتابه أكثر من ألفي ترجمة.

ومن خلال هذه التعاريف يتضح أن التصوف يهتم بتصفية الباطن من الأمراض، وتعميره بالصفات الفاضلة، من أجل التقرب إلى الله تعالى، ويتجلى بوضوح أنه علم جليل عظيم، وكله نابع من مشكاة النبوة وتعاليمها، فهو تارة يأتي بمعنى الزهد، وتارة بمعنى الأخلاق، وتارة بمعنى الصفاء، وتارة بمعنى المجاهدة، وتارة بمعنى الاستقامة والالتزام بالشريعة، وتارة بمعنى التسليم، وتارة بمعنى الإخلاص، وتارة بمعنى ترك التكلف، وكل هذه تتجلى بمعنى واحد وتدور حول مراد واحد وهو تزكية النفس وجعلها كما يريد المولى عزَّ وجلّ، وهذا هو التصوف الصحيح وعلى هذا ينبغي أن يتوفر

(١) مدرسة الحب الإلهي لسبطه محمد صالح المرابع.

(٢) مقدمة ابن خلدون (ص٤٦٧).

فيه كل ما ذكر من الصفات؛ حتى يكون التصوف موافقاً للشريعة الغراء، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ١٤-١٥].

ثانياً: نشأة علم التصوف:

ظهر التصوف كعلم في زمن كثرت فيه الفتن والمحن والفساد في الأرض، ومال الناس إلى زهرة الدنيا وتنافسوا فيها (المجون واللهو والعصبية...)، وعمَّ البلاد الإسلامية الضعف والوهن في حياتها الروحية، ووقعت بذلك قطيعة بين العهد الذهبي للأمة الإسلامية (العهد النبوي والصحابة وأتباعهم) وبين العهد الذي يليه، فظهور التصوف كان كردٍّ على تلك الأوضاع غير المرضية التي تمر فيها الأمة الإسلامية، أما التصوف كحياة ومضمون فكان منذ عصر النبوة.

يقول ابن خلدون: (هذا العلم - يعني: التصوف - من علوم الشريعة الحادثة في الملَّة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد في ما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق والخلوة للعبادة، وكان ذلك عامّاً في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة)[1].

ويقول الشيخ زروق في أصل التصوف:

(وأصل التصوف مقام الإحسان، الذي فسره رسول الله ﷺ بـ «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»؛ لأن معاني صدق التوجه

(١) مقدمة ابن خلدون (٣/ ٩٨٩).

لهذا الأصل راجعة وعليه دائرة؛ إذ لفظه دال على طلب المراقبة الملزومة به، فكان الحضُّ عليها حضّاً على عينه، كما دار الفقه على مقام الإسلام، والأصول على مقام الإيمان، فالتصوف أحد أجزاء الدين الذي علَّمه ﷺ جبريل عليه السلام، ليتعلمه الصحابة رضي الله عنهم)[١].

ولتبيان أن التصوف كان منذ عهد النبي ﷺ، وأن الوحي أنزله فيما أنزل من تشريعات وأحكام . . نورد نص فتوى العلامة محمد بن الصديق توضح ما نحن بصدده:

سُئل الإمام محمد بن الصديق عن أول من أسس الطريقة؟ وهل تأسيسها بوحي سماوي؟ فأجاب: وأما أول من أسس الطريقة، وهل تأسيسها بوحي:

(فلتعلم أن الطريقة أسسها الوحيُ السماويُّ في جملة ما أُسِّسَ في الدين المُحمدي، إذ هي بلا شك مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة التي جعلها النبي ﷺ بعد ما بيَّنها واحداً واحداً ديناً، فقال: «**هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم**»، فغاية ما تدعو إليه الطريقة وتشير إليه هو مقام الإحسان بعد تصحيح الإسلام والإيمان؛ ليحرز الداخل فيها والمدعو إليها مقامات الدين الثلاثة الضامنة لمحرزها والقائم بها السعادة الأبدية في الدنيا والآخرة، والضامنة أيضاً لمحرزها كمال الدين، فإنه - كما في الحديث - عبارة عن الأركان الثلاثة، فمن أخلَّ بمقام الإحسان الذي هو الطريقة فدينه ناقص بلا شك؛ لتركه ركناً من أركانه)[٢].

ويقول الإمام القشيري في رسالته: (اعلموا أن المسلمين بعد رسول الله ﷺ لم يَتَسمَّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة الرسول عليه السلام، إذ لا

(١) قواعد التصوف (ص٢٤-٢٥).

(٢) الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام (ص١١-١٢).

أفضلية فوقها، فقيل لهم الصحابة، ولما أدركهم أهل العصر الثاني سمي من صحب الصحابة التابعين، ورأوا ذلك أشرف سمة، ثم قيل لمن بعدهم أتباع التابعين، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزُّهَّاد والعُبَّاد، ثم ظهرت البدعة، وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهاداً، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله سبحانه وتعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المئتين من الهجرة).

وإن من عظيم كرمه تعالى على هذه الأمة أن جعل العلماء ورثة الأنبياء ليتسلسل النور الإلهي في هذه الأمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، يقول النبي ﷺ: «**العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**»[(١)].

يتبين لنا من خلال النصوص السابقة أن التصوف عاشه النبي ﷺ، وتربى في أحضانه الصحابة الكرام وأتباعهم، وتسلسل فيهم هذا النور حتى أصبح علماً قائماً بنفسه، له أصوله ومصطلحاته ورجالاته، لا كما يعتقده بعض المستشرقين ومن سار على نهجهم، أن التصوف له أصول بوذية أو نصرانية.

وهنا قد يُطرح سؤال وهو: لماذا لم تنتشر الدعوة الصوفية في صدر الإسلام؟ ولماذا لم تظهر هذه الدعوة إلا بعد عهد الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين؟

ويجيب الدكتور أحمد عَلوَشْ عن هذا السؤال بقوله: (إنه لم تكن من حاجة إليها في العصر الأول؛ لأن أهل هذا العصر كانوا أهل تقوى وورع، وأرباب مجاهدة وإقبال على العبادة بطبيعتهم، وبحكم قرب اتصالهم

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» (٣٦٤٣).

برسول الله ﷺ، فكانوا يتسابقون ويتبارون في الاقتداء به في ذلك كله، فلم يكن ثمَّة ما يدعو إلى تلقينهم علماً يرشدهم إلى أمرٍ هُم قائمون به فعلاً، وإنما مثلهم في ذلك كله كمثل العربي القُحِّ، يعرف اللغة العربية بالتوارث كابراً عن كابر، حتى إنه ليقرض الشعر البليغ بالسليقة والفطرة دون أن يعرف شيئاً من قواعد اللغة والإعراب والنظم والقريض، فمثل هذا لا يلزمه أن يتعلم النحو ودروس البلاغة، ولكن علم النحو وقواعد اللغة والشعر تصبح لازمة وضرورية عند تفشي اللحن، وضعف التعبير، أو لمن يريد من الأجانب أن يتفهمها ويتعرف عليها، أو عندما يصبح هذا العلم ضرورة من ضرورات الاجتماع كبقية العلوم التي نشأت وتألفت على توالي العصور في أوقاتها المناسبة.

فالصحابة والتابعون - وإن لم يتسموا باسم المتصوفين - كانوا صوفيين فعلاً وإن لم يكونوا كذلك اسماً، وماذا يراد بالتصوف أكثر من أن يعيش المرء لربه لا لنفسه، ويتحلى بالزهد وملازمة العبودية، والإقبال على الله بالروح والقلب في جميع الأوقات، وسائر الكمالات التي وصل بها الصحابة والتابعون من حيث الرقي الروحي إلى أسمى الدرجات فهم لم يكتفوا بالإقرار في عقائد الإيمان، والقيام بفروض الإسلام، بل قرنوا الإقرار بالتذوق والوجدان، وزادوا على الفروض الإتيان بكل ما استحبه الرسول ﷺ من نوافل العبادات، وابتعدوا عن المكروهات فضلاً عن المحرمات، حتى استنارت بصائرهم، وتفجرت ينابيع الحكمة من قلوبهم، وفاضت الأسرار الربانية على جوانحهم، وكذلك كان شأن التابعين وتابعي التابعين، وهذه العصور الثلاثة كانت أزهى عصور الإسلام وخيرها على الإطلاق، وقد جاء عن رسول الله ﷺ قوله: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم**»[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الشهادات، باب: لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد.

فلما تقادم العهد، ودخل في حظيرة الإسلام أُمم شتى، وأجناس عديدة، واتسعت دائرة العلوم، وتقسمت وتوزعت بين أرباب الاختصاص؛ قام كل فريق بتدوين الفن والعلم الذي يُجيده أكثر من غيره، فنشأ - بعد تدوين النحو في الصدر الأول - علم الفقه، وعلم التوحيد، وعلوم الحديث، وأصول الدين، والتفسير، والمنطق، ومصطلح الحديث، وعلم الأصول، والفرائض "الميراث" وغيرها . . .

وحدث بعد هذه الفترة أن أخذ التأثير الروحي يتضاءل شيئاً فشيئاً، وأخذ الناس يتناسون ضرورة الإقبال على الله بالعبودية، وبالقلب والهمة، مما دعا أرباب الرياضة والزهد إلى أن يعملوا هُم من ناحيتهم أيضاً على تدوين علم التصوف، وإثبات شرفه وجلاله وفضله على سائر العلوم، ولم يكن ذلك منهم احتجاجاً على انصراف الطوائف الأخرى إلى تدوين علومهم - كما يظن ذلك خطأ بعض المستشرقين - بل كان يجب أن يكون سداً للنقص، واستكمالاً لحاجات الدين في جميع نواحي النشاط، مما لا بد منه لحصول التعاون على تمهيد أسباب البر والتقوى)[١].

يقول ابن خلدون: (وصار علم التصوف في الملة علماً مُدوناً بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط، وكانت أحكامها إنما تتلقى من صدور الرجال، كما وقع في سائر العلوم التي دونت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك)[٢].

---

(١) حقائق عن التصوف للشيخ عبد القادر عيسى (ص٢٧-٢٨).

(٢) مقدمة ابن خلدون (٣/ ٩٩١).

ثالثاً: موضوع علم التصوف:

موضوع علم التصوف هو: (أفعال القلب والحواس من حيث التزكية والتصفية)[١].

فيعمل المسلم على التخلي عن جميع الأمراض الظاهرة مثل: السرقة والزنى وأكل الحرام . . . والتخلص من الأمراض الباطنة مثل: الكبر والعجب والحسد . . . مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

ثم يتحلى بمكارم الأخلاق وجميل الصفات، مثل: التواضع والحلم والكرم والرحمة . . . للفوز برضا الله تعالى ونيل سعادة الدارين.

ثم يتجرد من الأغيار والتعلق بها فلا يرى صانعاً ولا مؤثراً على الحقيقة غير الله تعالى، وبذلك يتحقق الانعتاق من العبودية لغير الله تعالى.

قال شيخ العارفين الإمام الجنيد رحمه الله تعالى: (إنك لن تكون على الحقيقة له عبداً وشيء مما دونه لك مسترق، وإنك لن تصل إلى صريح الحرية وعليك من حقيقة عبوديته بقية، وإذا كنت له وحده عبداً، كنت مما دونه حرّاً)[٢].

فإن مقام صريح الحرية لا يبلغه إلا من أتم العروج إليه عبر سلم حقيقة العبودية لله سبحانه وتعالى، حقيقة تتمثل في كمال العبودية؛ وذلك بتوحيدها له سبحانه وتعالى.

وفي هذا المعنى قال الأستاذ أبو علي الدقاق رحمه الله تعالى: (واعلم أن حقيقة الحرية في كمال العبودية فإذا صدقت لله تعالى عبوديته خلصت عن رق

---

(١) انظر «نور التحقيق في صحة أعمال الطريق» (ص٩٨).

(٢) طبقات الصوفية للسلمي (١/ ١٣١)، الرسالة القشيرية للقشيري (٢/ ٣٧٢).

الأغيار حريته)[١].

وقال بشر الحافي رحمه الله تعالى: (من أراد أن يذوق طعم الحرية ويستريح من العبودية فليطهر السريرة بينه وبين اللَّه تعالى)[٢].

وهذا إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى يقول: (إن الحر الكريم يخرج من الدنيا قبل أن يخرج منها)[٣].

وقال شيخنا محمد صالح الحموي رحمه الله تعالى: (يا ولدي إنك لا تدخل على الله وفيك بقية لسواه، إنك لا تدخل على الله تعالى وفيك بقية من أحرف "أنا")[٤].

إن بلوغ مقام صريح الحرية يجعل المسلم حراً ولو كان مسترقاً، كما كان شأن الصحابي الجليل بلال رضي الله عنه، وهو يعذب في رمضاء مكة؛ فقد كان يقول على مسمع سيده وكبراء القوم، في عزة وشموخ: أحد أحد، ومن قصُر عن هذا المقام ولو بقليل . . كان مسترقاً ولو كان حراً، إنها معادلة العبد الحر والحر العبد، التي يدل عليها مقام "صريح الحرية".

رابعاً: فائدة علم التصوف:

قال الشيخ زروق: (فائدة الشيء: ما قصد له وجوده، وفائدته: حقيقته في ابتدائه أو انتهائه أو فيهما، فالتصوف: علم قصد لإصلاح القلوب، وإفرادها لله عمَّا سواه، وكالفقه: لإصلاح العمل، وحفظ النظام، وظهور الحكمة بالأحكام، وكالأصول: لتحقيق المقدمات بالبرهان، وتحلية الإيمان بالإيقان، وكالطب: لحفظ الأبدان، وكالنحو: لإصلاح اللسان . . . إلى غير

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٧١).

(٢) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٧٢).

(٣) الرسالة القشيرية (٢/ ٣٧٢).

(٤) مدرسة الحب الإلهي لسبطه محمد صالح المرابع.

ذلك فافهم)[١].

ويقول حامد إبراهيم محمد صقر: (وفائدته - أي التصوف -: إصلاح الإنسان ظاهراً وباطناً؛ فالتضلع في هذا العلم يقي صاحبه سوء الخاتمة، ويحمله على التوبة والإنابة، وسلوك ما يوجب الفوز والسعادة)[٢].

(١) قواعد التصوف (ص٣٠).

(٢) نور التحقيق في صحة أعمال الطريق (ص٩٩).

ترجمة الإمام القُشَيرِيِّ قدَّس الله تعالى سرَّه
(٣٧٦ - ٤٦٥هـ، ٩٨٦ - ١٠٧٢م)

هو الإمام الزاهد القدوة، الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة القشيري بضم القاف وفتح الشين وسكون الياء وفي آخرها راء - هذه النسبة إلى قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة - قبيلة كبيرة، الخراساني النيسابوري، أصله من ناحية أستواءة، وهو قشيري الأب سلمي الأم، فأصله من أستوا من العرب الذين وردوا خراسان، وأمه من بني سليم وخاله أبو عقيل السلمي من وجوه دهاقين ناحية أستوا[1].

الإمام القشيري وأقوال العلماء فيه

هو زين الإسلام الشَّافعي الصُّوفي، المفسر الفقيه الأصولي، المحدث المتكلم الواعظ، الأديب الناثر الناظم، الجامع بين أشتات العلوم، شيخ خراسان في وقته، ولسان عصره وسيد وقته، وسرُّ اللَّه في خلقه، ومقصود سالك الطريقة، وبندار الحقيقة، وأستاذ الجماعة، ومقدَّم الطَّائفة زهداً وعلماً بالدين، الإمام مطلقاً، وصاحب الرسالة التي سارت مغرباً ومشرقاً، والرسالة التي أصبح بها نجم سعادته مُشرِقاً، والأصالة التي تجاوز بها فوق الفرقد ورقى، أحد أئمة المسلمين علماً وعملاً، وأركان الملة فعلاً ومقولاً، إمام الأئمة ومجلي ظلمات الضلال المدلهمة، أحد من يقتدى به في السنة،

(١) انظر ((طبقات الشافعية الكبرى)) (٥/ ٥٥١).

ويتوضح بكلامه طرق النار وطرق الجنة، شيخ المشايخ وأستاذ الجماعة، ومقدم الطائفة الجامع بين أشتات العلوم، لزم العلم والعبادة، وسلك الطرائق المفضية إلى نيل السعادة، فأينعت زهراته وطابت ثمراته، وتفرعت منه فروع أضحت في العلوم والمعارف أصولاً، ورامت الفحول الوصول فلم تستطع إليه سبيلاً ووصولاً، أجمع أهل عصره على أنه سيد زمانه وقدوة وقته، وبركة المسلمين في ذلك العصر، كانت إقامته بنيسابور وتوفي فيها، وكان السلطان ألب آرسلان يقدمه ويكرمه.

قال القاضي ابنُ خَلِّكَان: كان أبو القاسم علَّامة في الفقه والتَّفسير، والحديث والأصول، والأدب والشعر والكتابة.

وقال أبو بكر الخطيب[١]: قدم علينا - يعني إلى بغداد - في سنة ٤٤٨هـ، وحدَّث ببغداد وكتبنا عنه، وكان ثقةً، وكان حسن الوعظ، مليح الإشارة، يعرف الأصول على مذهب الأشعري، والفروع على مذهب الشَّافعي.

وقال أبو الحسن الباخرزي[٢]: ولأبي القاسم (فضل النطق المستطاب)[٣]، ماهر في التكلم على مذهب أبي الحسن الأشعري، خارج في إحاطته بالعلوم عن الحد البشري، كلماته للمستفيدين فرائد[٤]، وعتبات منبره للعارفين وسائد، وله نظم تتوج به رؤوس معاليه إذا ختمت به أذناب أماليه، وكتب الخط المنسوب الفائق، وبرع في علم الفروسية واستعمال السلاح،

(١) ((تاريخ بغداد)) (١١/ ٨٣).

(٢) انظر ((دمية القصر)) (٢/ ٩٩٣).

(٣) اسمه في ((الدمية)): ((فصل الخطاب في فضل النطق المستطاب)) وكذلك ورد اسمه في ((كشف الظنون)) لحاجي خليفة (٢/ ١٢٦٠).

(٤) في ((الدمية)): كلماته كلها ﷺ للمستفيدين فوائد وفرائد.

ودقق في ذلك وبالغ، وانتهت إليه رياسة التصوف في زمانه لما آتاه الله من الأحوال والمجاهدات، وتربية المريدين وتذكيرهم، وعباراتهم العذبة، فكان عديم النظير في ذلك، طيب النفس لطيف الإشارة، غواصاً على المعاني.

وأما المجالس في التذكير والقعود فيما بين المريدين وأسئلتهم عن الوقائع وخوضه في الأجوبة وجريان الأحوال العجيبة . . فكلها منه وإليه، أجمع أهل العصر على أنه عديم النظير فيها، غير مشارك في أساليب الكلام على المسائل وتطييب القلوب والإشارات اللطيفة المستنبطة من الآيات والأخبار من كلام المشايخ والرموز الدقيقة وتصانيفه فيها المشهورة إلى غير ذلك من نظم الأشعار اللطيفة على لسان الطريقة، يذنِّب أماليه بأبياته، وربما كان يتكلم على الحديث بإشاراته ولطائفه، وله في الكتابة طريقة أنيقة رشيقة تفوق على النظم[١].

جملة من حياته

توفي أبوه وهو طفل، وتعانى الفروسية والعمل بالسلاح حتى برع في ذلك، ثم وقع إلى أبي القاسم اليماني الأديب، فقرأ الأدب والعربية عليه فتعلم الكتابة والعربية وجوَّد، وتعلم طرفاً من الحساب، وعمل قليلاً ديواناً، ثم سمع الحديث من: أبي الحسين أحمد بن محمد الخفاف صاحب أبي العباس الثقفي، ومن أبي نعيم عبد الملك بن الحسن الإسفراييني، وأبي الحسن العلوي، وعبد الرحمن بن إبراهيم المزكي، وعبد الله بن يوسف،

(١) انظر ((طبقات الشافعية الكبرى)) للسبكي (٥/ ١٥٥)، و ((طبقات المفسرين للداودي)) (١/ ٣٤٦)، و((طبقات الفقهاء الشافعية)) لابن الصلاح (٢/ ٥٦٣)، و ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (١٨/ ٢٧٧).

وأبي بكر بن فورك، وأبي نعيم أحمد بن محمد، وأبي بكر بن عبدوس، والسلمي، وابن باكويه، وعدة . . .

وكانت للقشيري ضيعة مثقلة بالخراج بأستوا[١]، فرأوا من الرأي أن يتعلم طرفاً من الحساب، ويشرع في بعض الأعمال بعدما أونس رشده في العربية؛ لعله يصون قريته، ويدفع عنها ما يتوجه عليها من مطالبات الدولة، فدخل نيسابور من قريته على هذه العزيمة، والمقادير تجره لغيرها، فاتفق حضوره مجلس الأستاذ أبي علي الدقاق، وكان واعظ وقته، فاستحلى كلامه، فوقع في شبكة الدقاق، وفسخ ما عزم عليه، وطلب القباء فوجد العباء، وسلك طريق الإرادة، فقبله العارف أبو علي الدقاق وأقبل عليه وتفرس فيه النجابة فجذبه بهمته، وأشار عليه أبو علي الدقاق بطلب العلم، ثم زوجه أبو علي الدقاق بابنته فاطمة، وجاءه منها أولاد نجباء، ثم مضى إلى حلقة أبي بكر محمدِ بن أبي بكرٍ الطوسي، فلازمه حتى فرغ من التعليق فتفقه على أبي بكر، ثم اختلف بإشارته إلى الأستاذ الإمام أبي بكر بن فورك الأصولي وكان المقدم في الأصول حتى حصلها وبرع فيها، وصار من أوجه تلامذته وأشدهم تحقيقاً وضبطاً، وقرأ عليه أصول الفقه وفرغ منه، فأخذ عنه الكلام والنظر، فتقدم في الكلام حتى بلغ فيه الغاية، ثم بعد وفاة الأستاذ أبي بكر اختلف إلى الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني، وقعد يسمع درسه أياماً فقال الأستاذ: هذا العلم لا يحصل بالسماع ولابد من الضبط بالكتابة، فأعاد عليه جميع ما سمعه تلك الأيام، فعجب منه وعرف محله فأكرمه وقال له: ما تحتاج إلى درس بل يكفيك أن تطالع مصنفاتي، فجمع بين طريقة أبي إسحاق وطريقة ابن فورك، ونظر في تصانيف ابن الباقلاني، فلما توفي حموه أبو علي عاشر أبا

(١) قال ياقوت: بالضم ثم السكون وضم التاء المثناة وواو وألف: ناحية من نيسابور كثيرة القرى.

عبد الرحمن السلمي وصحبه، وتقدم في الأصول والفروع، وسلك مسلك المجاهدة والتجريد، وأخذ في التصنيف فصنف التفسير الكبير قبل سنة عشر وأربعمائة، وسماه (التيسير في علم التفسير) وهو من أجود التفاسير، وصنف (الرسالة) في رجال الطريقة، وكتب المنسوب، وصار شيخ خراسان في التصوف، ولزم المجاهَدات، وتخرج به المريدون[١].

وحج مع الإمام أبي محمدٍ الجويني والد إمام الحرمين، والحافظ أبي بكر أحمد بن حسين البيهقي، وجماعة من المشاهير، فسمع منهم الحديث، وسمعوا ببغداد والحجاز[٢] فسمعوا من هلال الحفار أبي الحسين بن بشران وطبقتهما، وعقد لنفسه مجلس الإملاء في الحديث، وتقدَّم أن الخطيب ذكره في (تاريخه)، وقال: قدم علينا - يعني إلى بغداد - في سنة ٤٤٨هـ، وحدث ببغداد، وكتبنا عنه . . .

قال ابن السمعاني: سمعت أبا بشر مصعب بن عبد الرزاق بن مصعب المصعبي بمرو يقول: حضر الأستاذ أبو القاسم مجلس بعض الأئمة الكبار - وكان قاضياً بمرو وأظنه قال القاضي علي الدهقان - وقت قدومه علينا، فلما دخل الأستاذ قام القاضي على رأس السرير، وأخذ مخدة كان يستند عليها على السرير، وقال لبعض من كان قاعداً على درجة المنبر: احملها إلى الأستاذ الإمام؛ ليقعد عليها، ثم قال: أيها الناس حججت سنة من السنين وكان قد اتفق أنْ حج تلك السنة هذا الإمام الكبير - وأشار إلى الأستاذ - وكان يقال لتلك السنة سنة القضاة، وكان حجَّ تلك السنة أربعمائة نفس من قضاة المسلمين وأئمتهم من أقطار البلدان وأقاصي الأرض، وأرادوا أن

(١) انظر ((وفيات الأعيان)) لابن خلكان (٣/ ٢٠٦)، و ((طبقات السبكي)) (٥/ ١٥٥-١٥٦)، و ((طبقات الإسنوي)) (٢/ ٣١٤).

(٢) انظر ((وفيات الأعيان)) لابن خلكان (٣/ ٢٠٥-٢٠٦).

يتكلم واحد منهم في حرم الله سبحانه وتعالى، فاتفق الكل على الأستاذ أبي القاسم فتكلم هو باتفاق منهم.

قال السبكي: من سمع هذه الحكاية لم يستنكر ما ذكره الغزالي في باب الولاء في مسألة أربعمائة قاض.

ومرض للأستاذ أبي القاسم ولد مرضاً شديداً، بحيث أيس منه فشقَّ ذلك على الأستاذ، فرأى الحق سبحانه وتعالى في المنام، فشكى إليه فقال له الحق سبحانه وتعالى: اجمع آيات الشفاء واقرأها عليه، واكتبها في إناء واجعل فيه مشروباً واسقه إياه، ففعل ذلك فعوفي الولد.

وآيات الشفاء في القرآن ست:

﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤].

﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧].

﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩].

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

ورأيت كثيراً من المشايخ يكتبون هذه الآيات للمريض، ويسقاها في الإناء؛ طلباً للعافية[1].

(١) انظر ((طبقات الشافعية الكبرى)) للسبكي (٥/ ١٥٨)، و ((طبقات المفسرين)) (١/ ٣٤٩).

مما امتحن به رحمه الله تعالى

قال عبد الغافر بن إسماعيل: ومن جملة أحوال أبي القاسم ما خص به من المحنة في الدين، وظهور التعصب بين الفريقين في عشرِ سنة أربعين وأربعمائة إلى سنة خمس وخمسين، وميل بعض الولاة إلى الأهواء، وسعي بعض الرؤساء والقضاة إليه بالتخليط، حتى أدى ذلك إلى رفع المجالس، وتفرق شمل الأصحاب، وكان هو المقصود من بينهم حسداً؛ حتى اضطر إلى مفارقة الوطن، وامتد في أثناء ذلك إلى بغداد، فورد على أمير المؤمنين القائم بأمر الله، ولقي قبولاً، وعقد له المجلس في مجالسه المختصة به، وكان ذلك بمحضر ومرأى منه، ووقع كلامه في مجلسه الموقع، وخرج الأمر بإعزازه وإكرامه، فعاد إلى نيسابور، وكان يختلف منها إلى طوس بأهله، حتى طلع صبح النوبة المباركة دولة السلطان ألب آرسلان (ألبآرسلانية)، فبقي عشر سنين محترماً مطاعاً معظماً[1]، وأكثر صفوه في آخر أيامه التي شاهدناه فيها أخيراً إلى أن تقرأ عليه كتبه وتصانيفه، والأحاديث المسموعة له، وما يؤول إلى نصرة المذهب، بلغ المنتمون إليه الآفاق فأمْلَوا بذكره وتصانيفه أطرافاً.

شيوخه

سمع من: أبي الحسين الخفاف، وأبي نعيم الإسفرائني، وأبي بكر بن عبدوس الحيري، وعبد الله بن يوسف الأصبهاني، وأبي نعيم أحمد بن محمد المهرجاني، وعلي بن أحمد الأهوازي، وأبي عبد الرحمن السلمي، وأبي سعيد محمد بن إبراهيم الإسماعيلي، وابن باكويه الشيرازي بنيسابور، ومن أبي الحسين بن بشران، وغيره ببغداد.

---

(١) الخبر بنحوه في ((تبيين كذب المفتري)) لابن عساكر (ص٢٧٤-٢٧٥)، و ((طبقات السبكي)) (٥/ ١٥٧-١٥٨).

تلامذته

وحدث عنه: أولاده عبد الله وعبد الواحد وأبو نصر عبد الرحيم، وابن ابنه أبو الأسعد هبة الرحمن، وعبد المنعم، وزاهر الشحامي، ومحمدُ بن الفضل الفراوي، وعبد الوهاب بن شاه الشاذياخي، ووجيه الشحامي، وعبد الجبار بن محمدٍ الخواري، وعبد الرحمن بن عبد الله البحيري، وخلق سواهم، ومن القدماء أبو بكر الخطيب وغيره . . .

سنده في الطريق

قال عبد الغافر: وقد أخذ طريق التصوف من الأستاذ أبي علي الدقاق وأخذها أبو علي عن أبي القاسم النصراباذي والنصراباذي عن الشبلي والشبلي عن الجنيد والجنيد عن السري السقطي والسري عن معروف الكرخي ومعروف عن داود الطائي وداود لقي التابعين، هكذا كان يذكر إسناد طريقته.

أولاده

وخلَّف من البنين ستة عبادلة، كلهم من السيدة الجليلة فاطمة بنت الأستاذ أبي علي الدقاق.

- ولده الأول: أبو نصر عبد الرحيم، وقد ذكرته في الأسماء الأصلية، فإن الرافعي قد نقل عنه في كتاب النذر، وكان ولده أبو نصر عبد الرحيم إماماً كبيراً أشبه أباه في علومه ومجالسه.

- ولده الثاني: أبو سعد - بسكون العين - عبد الله، ولد في سنة أربع عشرة وأربعمائة، كان فاضلاً في علوم كثيرة، خصوصاً في علم التصوف، سمع وحدَّث، ومات في ذي القعدة سنة سبع وخمسمائة، ذكره التفليسي، وكان لولده عبد الله ولدان أحدهما يقال له: أبو المعالي عبد الكريم، سمع

وحدَّث ووعظ، قتله الروافض في إحدى الجمادين، سنة ست وخمسين وخمسمائة[١]، والثاني: عبد الحميد، سمع الكثير في صباه، وأخذ عن إمام الحرمين الفقه والأصول.

- ولده الثالث: أبو منصور عبد الرحمن، كان فاضلاً ديناً ورعاً، استوعب الوقت بالخلوة والتلاوة، سمع الكثير وكتب الكثير، وخرجت له فوائد قرئت عليه، ولما توفيت والدته الست الفاضلة فاطمة سنة ثمانين . . حجَّ، وتوفي بمكة في شعبان سنة اثنتين. قاله ابن الصلاح.

- ولده الرابع: أبو سعيد - بالياء - عبد الواحد، ذكره الإمام أبو بكر السمعاني فقال: هو شيخ خراسان علماً وزهداً، وفاضل ملء ثوبه وورع ملء قلبه، لم أر في مشايخي أورع منه، وكان قوي الحفظ، نحوياً شاعراً حسن الخط، كثير التلاوة ملازماً للعبادة لا يفتر عنها، بقية مشايخ العصر في الشريعة والحقيقة، سيد عشيرته، مستخرجاً للخبايا والمشكلات، مستنبطاً للمعاني والإشارات، وكان له مجلس إملاء عشيات الجمع بنظَّامية نيسابور، سمع من كثيرين وحدَّث عنه كثيرون، وحجَّ مرتين.

ومن شعره:

يا شاكياً فرقة شهر الصيام تفيض عيناه كفيض الغمام
ذلك من أوصاف من لم يكن حضوره الباب بنعت الدوام
دم حاضراً بالباب مستيقظا كل شهر لك شهر الصيام

ولد في صفر سنة ثمان عشرة وأربعمائة، ومات في الحادي والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وتسعين، وصلى عليه أخوه الإمام أبو نصر، ودفن بجنب أبويه وجده وأخيه في المدرسة، ذكره ابن الصلاح وغيره، وكان لعبد

(١) ذكره أبو سعد السمعاني (ص٩٤٧).

الواحد حفيد، يقال له: عبد الرحمن[١].

- ولده الخامس: أبو الفتح عبيد الله - بالتصغير - كان مشتغلاً بالعبادة والعلم، سمع من جماعة، وله تصانيف في الطريقة، وكان فيه سلامة صدر وقلة ثبات غريزي، أفضى به ذلك إلى أن فارق وطنه واستوطن اسفراين ومات بها سنة إحدى وعشرين وخمسمائة. قاله ابن الصلاح.

- ولده السادس: أبو المظفر عبد المنعم، ولد سنة خمس وأربعين وأربعمائة، ونشأ في حجر أخيه أبي نصر، وسمع من جماعة كثيرين ببغداد وغيرها، وحدَّث وعقد مجلس التذكير مدة حياة والده، وحجَّ مرات ولقي الناس في أسفاره، ثم عاد إلى نيسابور ولزم بيته واشتغل بالعبادة إلى أن مات بين العيدين - قاله ابن الصلاح - سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، قال: وهو أصغرهم سناً وآخرهم موتاً.

من رواياته

- عن أبي الفضل أحمد بن هبة الله بن تاج الأمناء في سنة ثلاث وتسعين، عن أم المؤيد زينب بنت عبد الرحمن، أخبرنا أبو الفتوح عبد الوهاب بن شاه الشاذياخي، أخبرنا زين الإسلام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن، أخبرنا أبو نعيم عبد الملك، أخبرنا أبو عوانة، حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني يونس، عن ابن شهاب، حدثني سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «**بينا رجلٌ يسوق بقرة قد حمل عليها، التفتت إليه، وقالت: إني لم أخلق لهذا، إنما خلقت للحرث**»، فقال الناس: سبحان الله! فقال النبي ﷺ: «**آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر**»[٢].

---

(١) طبقات الشافعية للإسنوي (٢/ ١٦١).

(٢) أخرج الحديث بهذا السند الذهبي في ((سير أعلام النبلاء)) (١٨/ ٢٣٠)، والحديث عند =

- قال الإمام القشيري: سمعت أبا عبد الرحمن السلمي، سمعت الحسين بن يحيى، سمعت جعفر بن محمدِ بن نصير، سمعت الجنيد يقول: قال أبو سليمان الداراني: (ربما تقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياماً، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين من الكتاب والسنة)[١].

قال الذهبي رحمه الله تعالى: (ولأبي القاسم أربعون حديثاً من تخريجه سمعناها عالية)[٢].

من أقواله

عقد له مجلس الوعظ ببغداد، فروى في أول مجلس منه الحديث المشهور (السفر قطعة من العذاب . . .) الحديث، فقام شخص وقال: لم سمي عذاباً؟ فقال: لأنه سبب فرقة الأحباب، فاضطرب الناس وتواجدوا، وما أمكنه أن يتم المجلس فنزل[٣].

قال عبد المنعم بن الأستاذ أبي القاسم: سمعت والدي يقول: المريد لا يفتر آناء الليل وأطراف النهار فهو في الظاهر بنعت المجاهدات، وفي الباطن بوصف المكابدات، فارق الفراش ولازم الانكماش، وتحمل المصاعب وركب المتاعب، وعالج الأخلاق ومارس المشاق، وعانق الأهوال وفارق الأشكال.

= البخاري (٣٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨٨/ ١٣).

(١) الرسالة القشيرية (١/ ٦١).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٣٢).

(٣) أورد الحادثة ابن الملقن في ((طبقات الأولياء)) (١/ ٩٥٢)، والحديث أخرجه البخاري (٤٠٨١)، ومسلم (١٩٢٧/ ١٧٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

من نظمه

سقى الله وقتاً كنت أخلو بوجهكم وثغر الهوى في روضة الأنس ضاحك
أقمت زماناً والعيون قريرةٌ وأصبحت يوماً والجفون سوافك[1]

قال أبو الفتح محمد بن محمد الفراوي: كان أبو القاسم القشيري كثيراً ما ينشد لبعضهم، وهذان البيتان لذي القرنين بن حمدان:

لو كنت ساعة بيننا ما بيننا وشهدت كيف نكرر التوديعا
أيقنت أن من الدموع محدثا وعلمت أن من الحديث دموعا

ومن شعر الأستاذ:

يا مَن تقاصرَ شكري عن أياديه وكَلَّ كُلُّ لسانٍ عن معاليه
وَجودُه لم يزل فرداً بلا شبه علا عن الوقت ماضيه وآتيه
لا دهر يَخلَقُهُ لا قهر يَلحَقُهُ لا كشف يُظهره لا ستر يُخفيه
لا عدَّ يجمعه لا ضدَّ يمنعه لا حدَّ يقطعه لا قُطر يحويه
لا كون يَحصره لا عون يَنصره وليس في الوهم معلوم يضاهيه
جلاله أزليٌّ لا زوال له ومِلكه دائم لا شيء يفنيه

وقال أيضاً:

وإذا سُقيتُ من المحبة مصَّة أَلقيتُ من فرط الخمار خماري
كم تبتُ قصداً ثم لاح عذاره فخلعتُ من ذاك العذار عذاري

(١) البيتان في ((وفيات الأعيان)) (٣/ ٢٠٧)، وانظر بعض نظمه في ((طبقات السبكي)) (٥/ ١٦٠-١٦٢)، و ((دمية القصر)) (٢/ ٩٩٤-٩٩٦).

وله أيضاً:

ومنحنا لموجب الشرع نشرا وشرعنا لموجب اللهو طيَّا
ووجدنا إلى القناعة بابا فوضعنا على المطالع كيَّا
كنت في حرٍّ وحشتي لاختياري فتعوضت بالرضى منه فيَّا
إن من يهتدي لقطع هواه فهو في العزِّ حاز أوج الثريَّا
والذين ارتووا بكأس مناهم فعلى الصَّدِّ سوف يلقون غيَّا[1]

من كتبه

التيسير في التفسير ويقال له: التفسير الكبير، وهو من أجود التفاسير.

وصنَّف الرسالة في رجال الطريقة[2]، والرسالة مشهورة مباركة، قيل فيها: ما تكون في بيت وينكب.

ومن كتبه أيضاً لطائف الإشارات[3] في التفسير، وحياة الأرواح والدليل إلى طريق الصلاح، والفصول في الأصول، وأربعون حديثاً، وكتاب نحو القلوب، والجواهر، وأحكام السماع، وعيون الأجوبة في فنون الأسولة، والمناجاة، والمنتهى في نكت أولي النهى[4]، وآداب الصوفية.

---

(١) ((طبقات المفسرين للداودي)) (١/ ٣٥٢).

(٢) ((طبقات السبكي)) (٣/ ٢٤٣-٢٤٨)، و ((الوفيات)) (١/ ٢٩٩)، و ((تاريخ بغداد)) (١١/ ٨٣)، و ((مفتاح السعادة)) (١/ ٤٣٨) ثم (٢/ ١٨٦)، و ((مجلة الكتاب)) (٣/ ١٨٥)، و((تبيين كذب المفتري)) (ص١٧٢).

(٣) وقد طبع الدكتور إبراهيم بسيوني الأقسام الثلاثة الأولى منه.

(٤) انظر مؤلفاته في ((هدية العارفين)) (١/ ٦٠٧-٦٠٨).

وفاته رحمه الله تعالى

قال عبد الغافر: توفي الأستاذ أبو القاسم صبيحة يوم الأحد السادس والعشرين من ربيع الآخر، سنة خمس وستين وأربعمائة[١]، وقد عاش تسعين سنة، ودفن بالمدرسة تحت قبر شيخه أبي علي الدقاق رحمهما الله تعالى.

ولمَّا مرض لم تفته ولا ركعة قائماً حتى توفي، ورآه في النوم أبو تراب المراغي يقول: أنا في أطيب عيش، وأكمل راحة[٢].

وقال المؤيد في (تاريخه): أهدي للشيخ أبي القاسم فرس، فركبه نحواً من عشرين سنة، فلما مات الشيخ لم يأكل الفرس شيئاً، ومات بعد أسبوع[٣].

رحم الله الإمام زين الإسلام القشيري وقدس سره

---

(١) انظر ((تبيين كذب المفتري)) لابن عساكر (ص٢٧٥-٢٧٦).

(٢) ((تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام)) للذهبي (١٠/ ٢١٧).

(٣) انظر ((المختصر في أخبار البشر)) (٢/ ١٩٠).

الرسالة القشيرية إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام كتبها عام (٤٣٧هـ)

هذا الكتاب من أعمدة كتب السلوك والرقائق، وضعها مؤلفها لأهل الارتقاء في مقامات الإحسان، المشتغلين بتحقيق معاني التقوى في أقوى مبانيها وأوسع معانيها، ويعتبر هذا الكتاب من أهم المصادر الكبرى للتصوف والسادة الصوفية رضي الله تعالى عنهم، فقد احتوت ((الرسالة)) على تعريف التصوف على لسان كبار مشايخه، كما تناولت بالشرح الدقيق والموجز المقامات والأحوال التي يمرُّ بها المريد في عروجهِ الروحي إلى الله تعالى، ويعتبر الإمام أبو القاسم القشيري قدس سره من علماء الفقه والأصول إلى جانب التصوف، مازجاً بين (علمي الشريعة والحقيقة) مزجاً دقيقاً.

ولقد ألف الإمام القشيري قدس سره هذا الكتاب تصحيحاً لأوضاع كثيرة انحرفت، وبياناً لما ينبغي أن يكون عليه المريد الصادق، وتوضيحاً للفكرة الصوفية في سلامتها ونقائها. لقد كانت هناك جوانب كثيرة في الأجواء التي تزعم أنها صوفية قد دب إليها الفساد وسلك بعض المدعين مسالك لا تمت إلى الدين ولا إلى التصوف بصلة، كما هو الشأن دائماً في المدعين المزيفين الذين يوجدون في كل عصر وفي كل ميدان، فأشفق الإمام القشيري قدس سره على القلوب أن تحسب أن هذا هو التصوف، وأنه على هذه الجملة من الفساد بنى قواعده، وعلى هذا النحو سار سلفه، وقاده إشفاقه هذا إلى أن يكتب هذه الرسالة، وخير من يعرف تلك الأسباب ويبينها هو الإمام القشيري قدس سره حيث قال في مقدمة رسالته: (هذه رسالة كتبها الفقير إلى الله تعالى عبد الكريم بن هوازن القشيري، إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام، في سنة

سبع وثلاثين وأربعمائة.

أما بعد: رضي الله عنكم فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم، وجعل قلوبهم معادن أسراره، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره، فهم الغياث للخلق، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق، صفاهم من كدورات البشرية، ورقاهم إلى محال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية، ووفقهم للقيام بآداب العبودية، وأشهدهم مجاري أحكام الربوبية؛ فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات تكليف، وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقليب والتصريف، ثم رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار، ونعت الانكسار، ولم يتكلوا على ما حصل منهم من الأعمال، أو صفا لهم من الأحوال، علماً منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد، ويختار من يشاء من العبيد، لا يحكم عليه خلق، ولا يتوجه عليه مخلوق حق، ثوابه: ابتداء فضل، وعذابه: حكم بعدل، وأمره: قضاء فصل.

ثم اعلموا رحمكم الله، أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ولم يبق في زماننا من هذه الطائفة إلا أثرهم، كما قيل:

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحي غير نسائها

حصلت الفترة في هذه الطريقة، لا بل اندرست الطريقة بالحقيقة، مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء، وقل الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء، وزال الورع وطوى بساطه، واشتد الطمع وقوي رباطه، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام، ودانوا بترك الاحترام، وطرح الاحتشام، واستخفوا بأداء العبادات، واستهانوا بالصوم والصلاة، وركضوا في ميدان الغفلات، وركنوا إلى اتباع الشهوات، وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات، والارتفاق بما

يأخذونه من السوقة، والنسوان، وأصحاب السلطان.

ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، وادعوا أنهم تحرروا من رق الأغلال، وتحققوا بحقائق الوصال، وأنهم قائمون بالحق تجري عليهم أحكامه، وهم محو، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية، واختطفوا عنهم بالكلية، وزالت عنهم أحكام البشرية، وبقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصمدية، والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا، والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا، بل صرفوا.

ولما طال الابتلاء فيما نحن فيه من الزمان بما لوحت ببعضه من هذه القصة وكنت لا أبسط إلى هذه الغاية لسان الإنكار؛ غيرة على هذه الطريقة أن يذكر أهلها بسوء، أو يجد مخالف لثلبهم مساغاً، إذ البلوى في هذه الديار بالمخالفين لهذه الطريقة والمنكرين عليها شديدة.

ولما كنت أؤمل من مادة هذه الفترة أن تنحسم، ولعل الله سبحانه يجود بلطفه في التنبيه لمن حاد عن السنة المثلى في تضييع آداب هذه الطريقة، ولما أبى الوقت إلا استصعاباً، وأكثر أهل العصر بهذه الديار إلا تمادياً فيما اعتادوه واغتراراً بما ارتادوه . . أشفقت على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر على هذه الجملة بنى قواعده، وعلى هذا النحو سار سلفه؛ فعلقت هذه الرسالة إليكم أكرمكم الله، وذكرت فيها بعض سير شيوخ هذه الطريقة في آدابهم وأخلاقهم، ومعاملاتهم وعقائدهم بقلوبهم، وما أشاروا إليه من مواجيدهم، وكيفية ترقيهم من بدايتهم إلى نهايتهم؛ لتكون لمريدي هذه الطريقة قوة، ومنكم لي بتصحيحٍ شهادةً، ولي في نشر هذه الشكوى سلوة، ومن الكريم فضلاً ومثوبة، وأستعين بالله سبحانه فيما أذكره وأستكفيه، وأستعصمه من الخلط فيه، وأستغفره وأستعينه، وهو بالفضل جدير، وعلى ما

يشاء قدير)[١].

لقد كانت هذه الرسالة وما تزال النبع الصافي الذي يستقي منه كل دارس لعلم السلوك، وكل مستشرف ومتشوف لحياة النور، خصوصاً في هذه الأيام الحالكة حتى ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النُّور: ٤٠]، فهذا الكتاب المبارك رسم للعبودية الصحيحة، وتوضيح لما ينبغي أن تكون عليه الصلة بين الإنسان وربه، وبين الإنسان ومجتمعه.

وهي إحدى أصول التصوف المسلَّم، قال بعضهم: إنَّ القشيري قدس سره أراد بتسميتها بالرسالة أن تكون في التصوف بمثابة رسالة الشافعي في أصول الفقه.

ومن عظيم وقعها في قلوب العلماء أنْ نُسِبَ إليها بعضُهم لملازمته إياها فقد قال أبو عبد الله محمد الأنصاري الأوسي المراكشي في ترجمته للشيخ الأكبر قدس سره: محمد بن علي بن محمد الطائي الحاتمي، إشبيلي مرسي الأصل، استوطن دمشق ودعي في المشرق محي الدين، أبو بكر، ابن العربي والحاتمي والقشيري؛ لملازمته "رسالة القشيري إلى الصوفية" وإكبابه على قراءتها ومطالعتها[٢].

طريقة الإمام في ترتيب الرسالة

وقد بنى الإمام القشيري كتابه على توضيح جانبين:

- الجانب الأول: سيرة رجال السلوك وبعض أقوالهم، وذكر كثيراً من أعلامهم كنماذج يسير المريد على هديها.

- والجانب الثاني: ذكر مبادئ السلوك ومناهجه، حيث قال رحمه الله

(١) مقدمة الرسالة القشيرية.

(٢) انتهى من الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (٤/ ٥٣٩).

تعالى: (ذكرت فيها بعض سير شيوخ الطريقة، في آدابهم وأخلاقهم، ومعاملاتهم وعقائدهم بقلوبهم، وما أشاروا إليه من مواجيدهم، وكيفية ترقيهم من بدايتهم إلى نهايتهم، لتكون لمريدي هذه الطريقة قوة . . .).

وقد بناه على مقدمة وأربعة فصول، أوجز في مقدمته الكلام على مذهب المتصوفة في أصول الدين، وتناول في الفصل الأول التعريف زهاء خمسين مصطلحاً من مصطلحات الصوفية، كالقبض والبسط، والصحو والسكر، والجمع والفرق، والبداوة والهجوم، وعرف في الفصل الثاني، زهاء خمسين مقاماً من مقامات أرباب السلوك، كالصمت والمراقبة والحرية والفتوة والفراسة وحفظ قلوب المشايخ، مع ذكر ما أُثر عن أعلام المتصوفة من الأقوال فيها، وهذا الفصل أطول فصول الكتاب، وتناول في الفصل الثالث خصائص الأولياء وكراماتهم، أما الفصل الرابع يقع في خمسين صفحة فترجم فيه لثلاث وثمانين من أعلام الصوفية، مع ذكر نبذ من كلماتهم السائرة، وآخرهم وفاة: سعيد بن سلام المغربي (ت٣٧٣هـ)، ولم يترجم فيه لشيخه العارف أبي علي رضي الله تعالى عنه.

وفرغ أبو القاسم من إملاء رسالته هذه في أوائل سنة (٤٣٨هـ) وهو في الواحدة والخمسين من عمره، وذلك قبل محنته المشهورة بعامين.

ظهور تأثير شيخه فيه بين سطورها

فقد روى من أقوال شيخه العارف بالله أبي علي الدقاق - رضي الله عنه، وهو والد زوجته فاطمة - نوادر حكمه، ومن أمثلة ذلك قوله: سمعت أبا علي الدقاق يقول: ﴿إياك نعبد﴾ حفظ للشريعة، و﴿إياك نستعين﴾ إقرار بالحقيقة، وتفريقه بين (العبادة والعبودية والعبودة)، وتعريفه (الإرادة) و(الحرية) و(التوحيد) و(العارف) و(السماع) وشرحه لحديث (كاد الفقر أن يكون كفراً).

ويظهر أثر العارف الدقاق رضي الله تعالى عنه في شخصية القشيري قدس سره جلياً في قوله:

(ولم أدخل أنا على الأستاذ أبي علي في وقت بدايتي إلا صائماً، وكنت أغتسل قبله، وكنت أحضر باب مدرسته غير مرة فأرجع من الباب احتشاماً منه أن أدخل عليه، فإذا تجاسرت مرة ودخلت المدرسة كنت إذا بلغت وسط المدرسة يصحبني شبه خدر حتى لو غرز فيَّ إبرةٌ مثلاً لعلي كنت لا أحس بها، ثم إذا قعدت لواقعة وقعت لي لم أحتج أن أسأله بلساني عن المسألة، فكلما كنت أجلس كان يبتدئ بشرح واقعتي، وغير مرة رأيت منه هذا عياناً، وكنت أفكر في نفسي كثيراً أنه لو بعث اللَّه عزَّ وجلّ فِي وقتي رسولاً إلى الخلق هل يمكنني أن أزيد من حشمته على قلبي فوق ما كان منه رحمه الله تعالى فكان لا يتصور لي أَن ذلك ممكن، ولا أذكر أني في طول اختلافي إلى مجلسه ثم كوني معه بعد حصول الوصلة . . أن جرى في قلبي أو خطر ببالي عليه قط اعتراض إلى أن خرج رحمه الله تعالى من الدنيا)[1].

طبعاتها وشروحها

طبعت لأول مرة في مصر سنة (١٨٦٧م) في (٢٤٢) صفحة، ولها عدة شروح، أشهرها (المحاسن السنية) لصاحب السيرة الحلبية، و(إحكام الدلالة) للإمام زكريا الأنصاري (ت٩١٦هـ) وعلى هذا الشرح وضع العروسي حاشيته (نتائج الأفكار القدسية)، كما طبعته مؤخراً دار المنهاج محققاً على اثنتي عشر نسخة خطية، اثنتان منها منقولتان عن أصل عليه خط المؤلف، ولها مختصرات كثيرة قديمة ومعاصرة، فمن المعاصرة (الجد في السلوك إلى ملك الملوك) للشيخ أسعد سعيد الصاغرجي رحمه الله تعالى، وللشيخ عدنان السقا حفظه الله تعالى، وغيرهم.

---

(١) الرسالة القشيرية (٢/ ٤٦٠).

إرشاد السالكين
من الرسالة القشيرية

للإمام العلامة أبي القاسم
عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري
رحمه الله تعالى
٣٧٦ - ٤٦٥ هـ

انتقاها ورتبها
محمد موفق المرابع

بابُ الوصيَّةِ للمريدين

قال الأستاذ الإمام: لمَّا أثبتْنا طَرَفاً مِن سِيَر القوم، وضمَمْنا إلى ذلك أبواباً مِن المقامات . . أردْنا أنْ نختِم هذه الرسالة بوصيَّة للمريدين[1]، نرجو مِن الله تعالى حُسن توفيقهم لاستعمالها، وألَّا يحرمَنا القيامَ بها، وألَّا يجعلَها - سبحانه - حُجَّةً علينا.

فأوَّل قَدَم للمريد في هذه الطَّريقة ينبغي أنْ يكونَ على الصِّدق؛ ليصحَّ له البناء على أصل صحيح؛ فإنَّ الشُّيوخ قالوا: إنَّما حُرموا الوصولَ؛ لتضييعهم الأصول.

كذلك سمعتُ الأستاذ أبا علي يقول: فتجب البداية بتصحيح اعتقادٍ بينَه وبين الله تعالى، صافٍ عن الظُّنون والشُّبَه، خالٍ مِن الضَّلالة والبِدَع، صادرٍ عن البراهين والحُجج.

ويقبُح بالمريد أنْ ينتسبَ إلى مذهبٍ مِن مذاهبِ مَن ليس مِن هذه الطَّريقة، وليس انتساب الصُّوفي إلى مذهب مِن مذاهب المختلفين - سوى طريقة الصُّوفيَّة - إلَّا نتيجةَ جهله بمذاهب أهل هذه الطَّريقة؛ فإنَّ هؤلاء حُجَجُهم في مسائلهم أظهَرُ مِن حُجج كُلِّ أحد، وقواعدُ مذهبِهم أقوى مِن قواعد كُلِّ مَذهب.

والنَّاس: إمَّا أصحابُ النَّقْل والأثر، وإمَّا أرباب العقل والفِكَر.

ولم يكن عصر مِن الأعصار في مدَّة الإسلام إلَّا وفيه شيخ مِن شيوخ هذه

(١) ختم الإمام رحمه الله تعالى رسالته بها، وقد رأينا أنَّه من الضرورة وضعها في بداية المختصر بعد اختيار الأبحاث وترتيبها.

الطَّائفة ممَّن له علوم التَّوحيد، وإمامة القوم إلا وأئمة ذلك الوقت مِن العلماء استسلموا لذلك الشَّيخ وتواضَعوا له وتبركوا به، ولولا مزيَّة وخصوصية لهم، وإلَّا كان الأمر بالعكس.

قيل: اجتاز أبو العباس بن سريج الفقيه بمجلس الجنيد - رحمهما الله - فسمع كلامَه، فقيل له: ما تقول في هذا الكلام؟ فقال: لا أدري ما يقول، ولكنِّي أرى لهذا الكلام صَولةً ليستْ بصولةِ مُبطِل.

وقيل لعبد الله بن سعيد بن كلاب: أنت تتكلم على كلام كلِّ أحد وهاهنا رجل يقال له الجنيد، فانظر هل تعترض عليه أم لا؟ فحضر حلقته فسأل الجنيد عن التَّوحيد فأجابه فتحير عبد الله وقال: أعد عليَّ ماقلت، فأعاده ولكن لا بتلك العبارة. فقال له عبد الله: هذا شيء آخر لم أحفظه، تعيده علي مرة أخرى فأعاد بعبارة أخرى، فقال عبد الله: ليس يمكنني حفظ ما تقول!! أمله علينا، فقال: إن كنت أجزته فأنا أمليه، فقام عبد الله وقال بفضله واعترف بعلو شأنه.

قال محمد بن عبد الله الفرغاني: سمعت الجنيد يقول: لو علمتُ أنَّ لله عِلْماً تحت أديم[1] السَّماء أشرف مِن هذا العلم الذي نتكلَّم فيه مع أصحابنا وإخواننا . . لسعيتُ إليه ولقصدتُه.

وإذا أحكَم المريد بينَه وبين الله عَقده . . فيجب أنْ يُحصِّل مِن علم الشَّريعة، إمَّا بالتَّحقيق وإمَّا بالسُّؤال مِن الأئمَّة ما يؤدي به فَرْضَه، وإن اختَلف عليه فتاوى الفقهاء . . يأخذ بالأحوط، ويقصِد الخروج مِن الخلاف، فإنَّ الرُّخَص في الشَّريعة للمُستضعفين وأصحابِ الحوائج والأشغال، وهؤلاء الطَّائفة ليس لهم شُغل سوى القيام بحقِّه سبحانه، ولهذا قيل: إذا انحطَّ الفقير

(١) أي: وجه.

عن درجة الحقيقة إلى رُخصة الشَّريعة . . فقد فسخَ عَقدَه[١] مع الله، ونقض عهدَه فيما بينه وبين الله تعالى.

ثم يجب على المريد أنْ يتأدَّب بشيخ، فإنْ لم يكن له أستاذ . . لا يفلح أبداً، هذا أبو يزيد يقول: مَن لم يكن له أستاذ . . فإمامه الشَّيطان.

وسمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق يقول: الشَّجرةُ إذا نبتَتْ بنفْسِها مِن غير غارس . . فإنَّها تُورِق، ولكن لا تُثمر، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ مِنه طريقتَه نفَساً نفَساً[٢] . .فهو عابد هواه، لا يجدُ نَفاذاً.

ثم إذا أراد السُّلوك . . فبعد هذه الجملة يجب أنْ يتوبَ إلى الله سبحانه مِن كُلِّ زَلَّة، فيدَعُ جميع الزَّلَّات سِرها وجهرها، صغيرها وكبيرها، ويجتهد في إرضاء الخصوم أوَّلاً، ومَن لم يُرضِ خصومه . . لا يُفتحُ لَه مِن هذه الطَّريقة بشيء، وعلى هذا النحو جَرَوا، ثم بعد هذا يعمَل في حذف العلائق والشَّواغل، فإنَّ بناء هذا الطَّريق على فراغ القلب، وكان الشِّبْليُّ يقول للحُصَري في ابتداء أمره: إنْ خَطر ببالك مِن الجمعة إلى الجمعة الثَّانية التي تأتيني فيها غيرَ الله تعالى . . فحرام عليك أنْ تحضُرَني.

وما لم يستوِ عند المريد قَبولُ الخلْقِ وردُّهم . . لا يجيء مِنه شيء، بل أضرُّ الأشياء له ملاحظةُ الناس إيَّاه بعين الإثبات والتبرُّك به لإفلاس النَّاس عن هذا الحديث، وهو بَعدُ لم يصحِّح الإرادة، فكيف يصحُّ أنْ يُتبرَّك به؟! فخروجه مِن الجاه واجب عليه؛ لأنَّ ذلك سُمٌّ قاتل له، فإذا خرج عن ماله وجاهه . . فيجب أنْ يصحِّح عَقده بينه وبين الله تعالى، وألَّا يخالف شيخَه في كُلِّ ما يشير عليه؛ لأنَّ الخلاف للمريد في ابتداء أمره عظيم الضَّرر؛ لأنَّ

(١) أي: عزمه وتصميمه.

(٢) أي: درجةً درجةً ومقاماً مقاماً.

ابتداء حاله دليل على جميع عُمره.

ومِن شرْطه: ألَّا يكون له بقلبه اعتراض على شيخه[١]، فإذا خطر ببال المريد أنَّ له في الدُّنيا والآخرة قدراً أو قيمة أو على بسيط الأرض أحد دونه . . لم يصحَّ له في الإرادة قَدَم؛ لأنه يجب أنْ يجتهدَ؛ ليعرف ربَّه، لا ليُحصِّل لنفْسِه قَدْراً.

وفرْقٌ بين مَن يريد الله تعالى وبين مَن يريد جاهَ نفْسِه، إمَّا في عاجله وإمَّا في آجله، ثم يجب عليه حِفظ سِرِّه حتى عن زِرِّه إلَّا عن شيخه، ولو كتمَ نفَساً مِن أنفاسه عن شيخه . . فقد خانَه في حقِّ صُحبته، ولو وقَعتْ له مخالفة فيما أشار عليه شيخه . . فيجب أنْ يُقِرَّ بذلك بين يديه في الوقت، ثم يستسلمَ لِمَا يحكم به عليه شيخه عقوبةً له على جِنايته ومخالفته، إمَّا بسفر يُكلِّفه، أو أمرٍ مَا يراه.

ولا يصحُّ للشُّيوخ التَّجاوُز عن زلَّات المريدين؛ لأنَّ ذلك تضييع لحقوق الله تعالى، وما لم يتجرَّد المريد عن كلِّ عَلاقة . . لا يجوز للشَّيخ أنْ يلقِّنَه شيئاً مِن الأذكار، بل يجب أنْ يقدِّم التَّجربة له، فإذا شهد قلبُه للمريد بصحة العزم . . فحينئذ يَشترط عليه أنْ يرضى بما يستقبله في هذه الطَّريقة مِن فنون تصاريف القضاء، فيأخذ عليه العهد بألَّا ينصرف عن هذه الطَّريقة بما يستقبله مِن الضَّرر والذُّلِّ والفقر والأسقام والآلام، وألَّا يجْنَحَ بقلبه إلى السُّهولة، ولا يترخَّصَ عند هجوم الفاقات وحصول الضَّرورات، ولا يؤْثِرَ الدَّعة، ولا يستشعرَ الكسل؛ فإنَّ وقفة المريد شرٌّ مِن فترته.

والفرْق بين الفترة والوقفة: أنَّ الفترة رجوع عن الإرادة وخروج منها، والوقفة سكون عن السَّير باستحلاءِ حالات الكسل، وكُلُّ مريد وَقف في ابتداء

(١) إذا لم يكن للشرع اعتراض على تصرفات الشيخ.

إرادته . . لا يجيء مِنه شيء.

ثم يأمره بإيثار الخَلْوة والعُزْلة، ويجعل اجتهاده في هذه الحالة لا مَحالة في نفي الخواطر الدَّنيَّة والهواجس الشاغلة للقلب.

واعلم أنَّ في هذه الحالة قَلَّما يخلو المريد في أوان خَلْوته في ابتداء إرادته مِن الوساوس في الاعتقاد، لا سيَّما إذا كان في المريد كِياسة قلب، وقَلَّ مريد لا تستقبله هذه الحالة في ابتداء إرادته، وهذه مِن الامتحانات التي تستقبل المريدين، فالواجب على شيخه إنْ رأى فيه كِياسة . . أنْ يحيلَه على الحُجَج العقلية؛ فإنَّ بالعلم يتخلَّصُ - لا محالة - المريد مما يعتريه مِن الوساوس.

واعلم أنَّه يكون للمريدين على الخصوص بلايا مِن هذا الباب[1]، وذلك أنَّهم إذا خلَوا في مواضع ذِكرهم أو كانوا في مجالس سماع، أو غير ذلك، فيَهْجُس في نفوسهم ويخطر ببالهم أشياء منكَرة يتحقَّقون أنَّ الله سبحانه منزَّه عن ذلك، وليس تعتريهم شُبهة في أنَّ ذلك باطل، ولكنْ يدوم ذلك، فيشتدُّ تأذيهم به حتى يبلغَ ذلك حدَّاً يكون أصعبَ شتم وأقبحَ قول وأشنع خاطر، بحيث لا يمكن للمريد إجراءُ ذلك على اللسان وإبداؤه لأحد، وهذا أشدُّ شيء يقع لهم، فالواجب عند هذا ترك مبالاتِهم بتلك الخواطر، واستدامةُ الذِّكر، والابتهال إلى الله باستدفاع ذلك، وتلك الخواطر ليست مِن وساوس الشَّيطان، وإنَّما هي مِن هواجس النَّفْس، فإذا قابلَها العبد بترك المبالاة بها . . ينقطعُ ذلك عنه.

ومِن آداب المريد - بل مِن فرائض حاله -: أنْ يلازمَ موضعَ إرادته، وألَّا يسافر قبْلَ أنْ تَقبله الطَّريق، وقبْلَ الوصول بالقلب إلى الرَّبِّ، فإنَّ السَّفر للمريد في غير وقتِه سُمٌّ قاتل، ولا يصل أحد مِنهم إلى ما كان يُرجى له إذا

(١) أي: باب الوسواس.

سافر في غير وقته.

وإذا أراد الله بمريد خيراً . . ثبَّتَه في أوَّل إرادته، وإذا أراد الله بمريد شرَّاً . . رَدَّه إلى ما خرج عنه مِن حِرفته أو حالته، وإذا أراد الله بمريد مِحنة . . شرَّدَه في مطارح غُربته، هذا إذا كان المريد يصلُح للوصول، فأمَّا إذا كان شابَّاً طريقته الخدمة في الظَّاهر بالنَّفْس للفقراء، وهو دونَهم في هذه الطَّريقة رُتْبةً . . فهو وأمثاله يكتفون بالتَّرسُّم في الظَّاهر، فينقطعون في الأسفار، وغاية نصيبهم مِن هذه الطريقة حَجَّاتٍ يُحَصِّلونها، وزيارات لموضع يُرتَحَلُ إليه، ولقاء شيوخ بظاهر سلام، فيشاهدون الظواهر، ويَكتَفون بما في هذا الباب مِن السَّيْر، فهؤلاء الواجبُ لهم دوام السَّفر، حتى لا تؤدِّيَهم الدَّعَةُ إلى ارتكاب محظور، فإنَّ الشَّابَّ إذا وجد الرَّاحة والدَّعَة . . كان في معرِض الفتنة.

وإذا تَوسَّط المريد جَمع الفقراء والأصحاب في بدايته . . فهو مُضِرٌّ له جِدَّاً، فإن امتُحن واحد بذلك . . فليكن سبيله احترامَ الشُّيوخ، والخدمة للأصحاب، وترك الخلاف عليهم، والقيام بما فيه راحة الفقير، والجُهد في ألَّا يَستوحش منه قلب شيخ، ويجب أنْ يكون في صُحبته مع الفقراء أبداً خصْمَهم على نفْسِه، ولا يكون خصمَ نفْسِه عليهم، ويرى لكُلِّ واحد مِنهم عليه حقَّاً واجباً، ولا يرى لنفْسِه واجباً على أحد، ويجب ألَّا يخالف المريد أحداً، وإنْ عَلم أنَّ الحقَّ معه . . يسكت، ويُظهر الوِفاقَ لكُلِّ أحد.

وكُلُّ مريد يكون فيه ضحِك ولِجاج[1] ومماراة[2] . . فإنَّه لا يجيء منه شيء، وإذا كان المريد في جمع مِن الفقراء - إمَّا في سفر أو حضر - فينبغي

(١) أي: الغضب.

(٢) أي: المجادلة.

ألَّا يخالفَهم في الظَّاهر، لا في أكل ولا صوم ولا سكون ولا حركة، بل يخالفُهم بسِرِّه وقلبه، فيحفظ قلبه مع الله عزَّ وجلّ، وإذا أشاروا عليه بالأكل مثلاً . . يأكل لقمة أو لقمتين، ولا يعطي نفْسَه شهْوتَها.

وليس مِن آداب المريدين كثرة الأوراد في الظَّاهر؛ فإنَّ القوم في مكابدة إخلاء خواطرهم، ومعالجة أخلاقهم، ونفي الغفلة عن قلوبهم، لا في تكثير أعمال البِرِّ، والذي لا بد لهم منه إقامةُ الفرائض والسُّنن الرَّاتبة، فأمَّا الزيادة مِن الصَّلوات النَّافلة . . فاستدامة الذِّكر بالقلب أتَمُّ لهم.

ورأس مال المريد: الاحتمال عن كُلِّ أحد بطيبة النَّفْس، وتلقِّي ما يستقبله بالرِّضا، والصَّبر على الضُّرِّ والفقر، وترك السُّؤال والمعارضة في القليل والكثير فيما هو حظٌّ له، ومَن لم يصبِر على ذلك . . فليدخل السُّوق؛ فإنَّ مَن اشتهى ما يشتهيه النَّاس . . فالواجب أنْ يحصِّل شهوتَه مِن حيث يحصِّلها الناس، مِن كدِّ اليمين وعَرق الجبين.

وإذا التزم المريد استدامةَ الذِّكر وآثر الخَلوة . . فإنْ وجد في خَلوته ما لم يجِدْه قبْلَه إمَّا في النَّوم وإمَّا في اليقظة، أو بين اليقظة والنَّوم مِن خطاب يُسمَع، أو معنىً يُشاهَد مما يكون نقضاً للعادة . . فينبغي ألَّا يشتغل بذلك ألبتَّة ولا يسكنَ إليه، ولا ينبغي له أنْ ينتظر حصول أمثال ذلك؛ فإنَّ ذلك كلَّه شواغل عن الحقِّ سبحانه، ولابدَّ له في هذه الأحوال مِن وصف ذلك لشيخِه؛ حتى يصيرَ قلبه فارغاً عن ذلك، ويجب على شيخه أنْ يحفظَ عليه سِرَّه، فيكتم عن غيره أمره، ويُصغِّر ذلك في عينه؛ فإنَّ ذلك كلَّه اختبارات، والمساكنة إليها مَكْر، فليحذر المريد عن ذلك وعن ملاحظتها، وليجعل همَّته فوق ذلك.

ومِن أحكام المريد إذا لم يجد مَن يتأدَّبُ به في موضِعه: أنْ يهاجرَ إلى مَن هو منصوب في وقته لإرشاد المريدين، ثم يقيم عليه، ولا يبرح عن سُدَّته إلى وقت الإذن.

واعلم أنَّ تقديم معرفة ربِّ البيت - سبحانه - على زيارة البيت واجب، فلولا معرفة ربِّ البيت . . ما وجبت زيارة البيت، والشُّبَّان الذين يخرجون إلى الحج ثم زيارة البيت مِن هؤلاء القوم مِن غير إشارة الشُّيوخ . . فهي[١] بدِلالات نشاط النُّفوس، فهم متوسِّمون بهذه الطريقة، وليس سفرُهم على أصل، والذي يدلُّ على ذلك: أنه لا يزداد سفرهم إلَّا وتزداد تفرقة قلوبهم، فلو أنهم ارتَحلوا مِن عند أنفسهم بخطوة[٢] . . لكان أحظَى لهم مِن ألف سَفرة.

ومِن شرْط المريد إذا زار شيخاً: أنْ يدخلَ عليه بالحُرمة[٣]، وينظرَ إليه بالحِشمة، فإنْ أَهَّلَه الشَّيخ لشيء مِن الخدمة . . عَدَّ ذلك مِن جزيل النِّعمة.

ولا ينبغي للمريد أنْ يعتقدَ في المشايخ العصمة، بل الواجب أنْ يذَرَهم وأحوالَهم، فيُحْسِنُ بهم الظَّنَّ، ويراعي مع الله تعالى حَدَّه فيما يتوجَّب عليه مِن الأمر، والعِلمُ كافيه في التَّفرقة بين ما هو محمود وما هو معلول.

وقَبول قلوب المشايخ للمريد أصدق شاهد لسعادته.

ومَن ردَّه قلب شيخ مِن الشُّيوخ . . فلا محالة يَرى غِبَّ ذلك ولو بعد حين، ومَن خُذل بترك حُرمة الشُّيوخ . . فقد أظهر رِقْمَ شقاوته، وذلك لا يخطئ.

مِن أصعب الآفات في هذه الطريقة: صُحبة الأحداث، ومَن ابتلاه الله بشيء مِن ذلك . . فبإجماع الشُّيوخ: ذلك عبد أهانَه الله عزَّ وجلّ وخذلَه، بل عن نفْسِه شغَلَه، ولو بألف ألف كرامة أهَّلَه، وهَبْ أنَّه بلغ رُتبة الشُّهداء؛ لِمَا في الخبر تلويح بذلك، أليس قد شُغِلَ ذلك القلبُ بمَخلوق !

(١) أي: سَفْرتهم.

(٢) أي: خرجوا على رغبات أنفسهم.

(٣) أي: بالاحترام والأدب.

وأصعب مِن ذلك: تهوين ذلك على القلب، حتى يَعُدَّ ذلك يسيراً، وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]، وهذا الواسطي رحمه الله تعالى يقول: إذا أراد الله هَوانَ عبد . . ألقاه إلى هؤلاء الأنتان والجِيَف[١].

قال فتحٌ الموصِلي: صحبتُ ثلاثين شيخاً كانوا يُعَدُّون مِن الأبدال، كُلُّهم أوصَوني عند فِراقي إيَّاهم وقالوا لي: اتَّقِ معاشرةَ الأحداث ومخالَطتهم.

ومَن ارتقى في هذا الباب عن حالة الفِسق وأشار إلى أنَّ ذلك مِن بلاء الأرواح وأنَّه لا يضرُّ، وما قالوه مِن وساوس القائلين بالشَّاهد، وإيراد حكايات عن بعض الشيوخ، لمَّا كان الأولى بهم إسبال السَّتْر عن هنَاتِهم وآفاتهم الصادرة منهم، فذلك نظير الشِّرْك وقرين الكفر، فليحذر المريد مِن مجالسة الأحداث ومخالطتِهم؛ فإنَّ اليسير مِنه فتحُ باب الخذلان، وبدء حال الهِجران، ونعوذ بالله مِن قضاء السُّوء.

ومِن آفات المريد:

ما يتداخل النَّفْسَ مِن خفيِّ الحسد للإخوان والتَّأثُّر بما يُفرِد اللهُ عزَّ وجلّ به أشكالَه مِن هذه الطريقة، وحرمانه إياه ذلك، وَلْيعلم أنَّ الأمور قِسَم، وإنَّما يتخلَّص العبد عن هذا باكتفائه بوجود الحقِّ، وقِدَمِه عن مقتضى جودِه ونِعَمه، فكُلُّ مَن رأيتَ - أيُّها المريد - قَدَّم الحقُّ سبحانه رُتبَتَه . . فاحملْ أنت غاشيتَه؛ فإنَّ الظُّرفاء مِن القاصدين[٢] على ذلك استمرَّت سُنَّتُهم.

مِن حقِّ المريد إذا اتَّفق وقوعه في جمعٍ . . إيثار الكُلِّ بالكُلِّ، فيقدم الجائع والشبعان على نفْسِه، ويتَّلمَذ لكلِّ مَن أظهر عليه التَّشَيُّخَ وإنْ كان هو

(١) المقصود به: عدم مخالطة الأحداث مخالطة تؤدي إلى خلوة ومعصية.
(٢) أي: للوصول إلى الله.

أعلمَ منه، ولا يصل إلى ذلك إلَّا بتَبرِّيه عن حَوله وقوَّته، وتَوَصُّله إلى ذلك بطَول[١] الحقِّ ومِنَّته.

وأمَّا آداب المريد في السَّماع فالمريد لا يَسْلَم له الحركة في السَّماع بالاختيار ألبتَّة، فإنْ ورد عليه واردُ حركة ولم يكن فيه فضلُ قوَّةٍ، فبمقدار الغَلَبة يُعذَر، فإذا زالت الغَلَبة . . يجب عليه القعود والسُّكون، فإن استدام الحركة مستحلياً للوَجْد مِن غير غَلَبة وضرورة . . لم يصحَّ، فإنْ تعوَّد ذلك . . يبقى متخلِّفاً لا يُكاشَف بشيء مِن الحقائق، فغاية أحواله حينئذ أنْ يَطيبَ قلبُه.

وفي الجملة: إنَّ الحركة تأخذ مِن كُلِّ متحرِّك وتُنقِصُ مِن حاله، مريداً كان أو شيخاً، إلَّا أنْ تكون بإشارة مِن الوقت أو غَلَبةٍ تأخذه عن التَّمييز، فإنْ كان مريداً أشار عليه الشَّيخ بالحركة فتحرَّك على إشارته . . فلا بأس إذا كان الشَّيخ ممَّن له حُكْم على أمثاله، وأمَّا إذا أشار عليه الفقراء بالمساعدة في الحركة . . فيساعدهم في القيام وفي أداء ما لا يجد مِنه بُدَّاً مما يُراعى عن الاستيحاش لقلوبِهم، ثم إنَّ صِدْقَه في حاله يمنع قلوبَ الفقراء مِن سؤالهم عند المساعدة معهم.

ولا يَسْلَم للمريد ألبتَّة التَّقاضي على القَوَّال[٢]؛ لأنَّ صِدق حاله يَحمِل القَوَّال على التَّكرار، ويحمل غيرَه على الاقتضاء.

ومَن تبرَّك بمريد . . فقد جار عليه؛ لأنَّه يضُرُّه لقِلَّة قوَّته، فالواجب على المريد: ترْك تربية الجاه عند مَن قال بتركه وإثباته.

ومِن آداب المريدين: ألَّا يتعرَّضوا للتَّصدُّر، وأنْ يكونَ لهم تلميذاً

(١) أي: بفضله.

(٢) أي: لا ينبغي له طلب تكرار ما أنشده.

ومريداً؛ فإنَّ المريد إذا صار مُراداً قبل خُمود بشريَّته وسقوط آفته . . فهو محجوب عن الحقيقة، لا تنفع أحداً إشارتُه وتعليمُه.

إذا خدم المريد الفقراء . . فلا ينبغي أنْ يخالفَ ما حَكَم به باطنُه عليه مِن الخُلوص في الخدمة وبَذْل الوُسْع والطَّاقة.

ومِن شَأْن المريد إذا كانت طريقته خدمة الفقراء: الصَّبر على جفاء القوم معه، وأنْ يعتقدَ أنَّه يبذُل رُوحَه في خدمتهم، ثم لا يَحمِدون له أثراً، فيعتذر إليهم مِن تقصيره، ويُقِرُّ بالجِناية على نفْسِه؛ تطييباً لقلوبهم وإنْ علم أنَّه بريء السَّاحة، وإذا زادوه في الجفاء . . فيجب أنْ يزيدَهم في الخدمة والبِر.

سمعت الإمام أبا بكر بن فورك يقول: إنَّ في المثل: إذا لم تصبر على المِطرقة . . فلماذا كنتَ سَنداناً.

وفي معناه أنشَدوا:

رُبَّما جئتُه لأُسلِفَه العذر لبعض الذُّنوب قبل التَّجنِّي

وبناء هذا الأمر ومِلاكُه على حفظ آداب الشَّريعة وصَون اليد عن المَدِّ إلى الحرام والشُّبهة، وحِفظ الحَواس عن المحظورات، وعَدِّ الأنفاس مع الله تعالى عن الغَفَلات[1]، وألَّا يستحِلَّ مثلاً سِمسِمةً فيها شُبهة في أوان الضَّرورات، فكيف عند الاختيار ووقت الراحات؟!

ومِن شَأْن المريد: دوام المجاهدة في ترك الشَّهَوات، فإنَّ مَن وافقَ شهوتَه. . عَدِم صفْوتَه.

وأقبحُ الخصالِ بالمريد: رجوعُه إلى شهوةٍ تركها لله تعالى.

ومِن شأن المريد: حِفظ عهوده مع الله تعالى، فإنَّ نقْضَ العهدِ في طريق الإرادة كالرِّدَّة عن الدِّين لأهل الظَّاهر، ولا ينبغي للمريد أنْ يعاهدَ الله تعالى

(١) كناية عن التَّفرُّغ لعبادة الله تعالى.

على شيء باختياره ما أمكنه، فإنَّ في لوازم الشَّرع ما يستوفي مِنه كُلَّ وُسْع، قال الله تعالى في صفة قوم: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

ومِن شأن المريد: قِصَرُ الأمل، فإنَّ الفقير ابنُ وقته، فإذا كان له تدبير في المستقبل، وتطلُّعٌ لغير ما هو فيه مِن الوقت، وأملٌ فيما يستأنفه . . لا يجيء مِنه شيء.

ومِن شأن المريد: ألَّا يكون له معلوم وإنْ قَلَّ، ولا سيَّما إذا كان بين الفقراء؛ فإنَّ ظُلمة المعلوم تُطفئ نور الوقت.

ومِن شأن المريد - بل مِن طريقة سالكي هذا المذهب -: ترك قَبول رِفَق النسوان، فكيف التَّعرُّض لاستجلاب ذلك؟!

وعلى هذا درج شيوخهم، وبذلك نفِذَت وصاياهم، ومَن استصغر هذا . . فعن قريب يَلقى ما يُفْتَضَحُ فيه.

ومِن شأن المريد: التَّباعُد عن أبناء الدُّنيا؛ فإنَّ صُحبَتهم سُمٌّ مُجرَّب؛ لأنَّهم يَنتفعون به وهو يُنتَقص بهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨].

وإنَّ الزُّهَّاد يُخرِجون المال مِن الكيس تقرُّباً إلى الله تعالى، وأهل الصَّفاء يُخرجون الخَلْق والمعارف من القلب تحقُّقاً بالله تعالى.

قال الأستاذ الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري رضي الله تعالى عنه: فهذه وصيتُنا إلى المريدين، نسأل الله الكريم لهم التوفيق، وألَّا يجعلها وبالاً علينا.

فصل
في بيان اعتقاد هذه الطائفة في مسائل الأصول
(أصول علم التوحيد)

اعلموا - رحمكم الله - أنَّ شيوخ هذه الطائفة بنَوا قواعدَ أمرِهم على أصولٍ صحيحة في التوحيد، صانُوا بها عقائدهم عن البِدع[١]، ودانوا[٢] بما وجدوا عليه السلفَ وأهلَ السُّنة من توحيد ليس فيه تمثيل[٣] ولا تعطيل[٤]، وعرفوا ما هو حقُّ القِدَم[٥]، وتحققوا بما هو نعتُ الموجود عن العدم[٦].

ولذلك قال سيد هذه الطريقة الجنيد رحمه الله تعالى:

(التوحيد إفراد القِدَم من الحدث).

ونحن نذكر في هذا الفصل جُمَلاً من متفرِّقات كلامِهم فيما يتعلق بمسائل الأصول.

ثم نحرِّر على الترتيب بعدها ما يشتمل على ما يُحتاج إليه في الاعتقاد على وجه الإيجاز والاختصار إن شاء الله تعالى.

---

(١) أي: ما لا يجري على قواعد أصول الشريعة.

(٢) أي: اتخذوا ديناً.

(٣) أي: من غير تشبيه بالحوادث.

(٤) أي: ولا نفي الصفات.

(٥) القديم: وهو الله.

(٦) أي: التزموا بلازم حدوثهم وعبوديتهم لله.

معرفة الله تعالى

يقول أبو بكر الشِّبلي: (الواحد: المعروف قبل الحدود[١] وقبل الحروف[٢]).

وهذا صريح من الشبلي أن القديم سبحانه لا حدَّ لذاته[٣] ولا حروف لكلامه.

سُئل رُويم عن أول فرض افترضَه الله عزَّ وجلّ على خلْقِه، ما هو؟

فقال: المعرفة؛ لقوله جلَّ ذِكرُه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذّاريَات: ٥٦]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: (إلا ليعرفون)[٤].

وقال الجنيد: إن أولَ ما يحتاج إليه العبد من عقد الحكمة[٥] معرفة المصنوع صانعَه، والمُحْدَث كيف كان إحداثُه، فيعرف[٦] صفةَ الخالق من المخلوق، وصفة القديم من المحدَث، ويذلُّ لدعوته، ويعترف بوجوب طاعته؛ فإنَّ من لم يعرفْ مالِكَه .. لم يعترف بالمِلك لمن استوجَبه.

وسُئل الجنيد عن التوحيد، فقال: إفراد الموحَّد بتحقيق وحدانيته بكمال أَحدِيَّته، أنه الواحد الذي لم يلد ولم يولد، بنفي الأضداد والأنداد والأشباه، بلا تشبيه ولا تكييف، ولا تصوير ولا تمثيل، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ

(١) وهي الجهات.

(٢) وهي الأصوات.

(٣) أي: لا جهة تحويه.

(٤) انظر ((تفسير الآلوسي)) (١٥/ ٥٠)، و((تفسير روح البيان)) (١/ ٣٣٥).

(٥) أي: اعتقاد الحكمة.

(٦) أي: يميز.

﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

سُئل أبو بكر الزاهراباذي عن المعرفة، فقال: المعرفة: اسم، ومعناه: وجودُ تعظيمٍ في القلب يمنعُك عن التعطيل والتشبيه.

صفاته سبحانه وتعالى

قال أبو الحسن البوشنجي رحمه الله تعالى: التوحيد: أن تَعْلم أنه غير مُشبِه للذَّوات ولا منفيٍّ الصفات.

قال الحسين بن منصور: ألزِم[١] الكلَّ الحدَثَ؛ لأنَّ القدم له، فالذي بالجسم ظهورُه فالعَرَض يَلْزَمه، والذي بالأداة[٢] اجتماعُه فقِواها تُمسِكُه، والذي يؤلِّفُه وقتٌ يفرِّقُه وقت، والذي يقيمُه غيرُه فالضرورة تمَسُّه، والذي الوهمُ يظْفَر به[٣] فالتصويرُ يرتقي إليه، ومن آواه محلٌّ أدركه أين، ومن كان له جنسٌ طالَبَه مكيِّف[٤]، إنه سبحانه لا يُظِلُّه فوق، ولا يُقِلُّه[٥] تحت، ولا يقابله حَدٌّ، ولا يُزاحِمُه عندٌ[٦]، ولا يأخذه خَلْف، ولا يحُدُّه أمام، ولم يُظْهِره قبل، ولم يُفْنِه بَعْد، ولم يجْمَعه كلٌّ، ولم يُوجِده كان، ولم يُفقِده ليس، وصْفُه: لا صفةَ له[٧]، وفعلُه: لا علَّةَ له[٨]، وكَونُه: لا أَمَد له، تنزَّهَ عن أحوال خلْقِه،

(١) بمعنى اعتقد الحدوث في كل المخلوقات.

(٢) أي: بالأسباب.

(٣) أي: يتخيله الذهن ويتعلق به.

(٤) أي: يُسأل عنه بكيف.

(٥) أي: يحمله.

(٦) أي: محل.

(٧) أي: لا يمكن إدراك حقيقة وصفه.

(٨) أي: غرض وباعث.

ليس له من خلقِه مِزاج، ولا في فعله علاج[١]، بايَنَهم بقِدَمِه كما باينوه بحدوثهم، إن قلتَ: متى . . فقد سبق الوقتَ كونُه[٢]، وإن قلت: هو . . فالهاء والواو خَلْقُه، وإن قلت: أين . . فقد تقدَّمَ المكانَ وجودُه، فالحروف آياتُه[٣]، ووجوده إثباتُه[٤]، ومعرفتُه توحيده، وتوحيده تمييزُه مِن خلْقه، ما تُصُوِّر في الأوهام فهو بخلافِه، كيف يحِلُّ به ما منه بِدْؤُهُ؟ أو يعودُ إليه ما هو أنشأَه؟ لا تُماقِلُه[٥] العيون، ولا تقابلُه الظنون[٦]، قرْبُه كرامتُه، وبُعْدُه إهانتُه، علُوُّه مِن غير تَوَقُّل[٧]، ومجيئه من غير تَنَقُّل[٨]، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، القريب البعيد، الذي ليس كمثْلِه شيء وهو السميع البصير.

قام رجل بين يدي ذي النون المصري، فقال: أخبرني عن التوحيد، ما هو؟ فقال: هو أن تَعلمَ أنَّ قدرةَ الله تعالى في الأشياء بلا مِزاج، وصُنْعَه للأشياء بلا علاج، وعلَّةُ كلِّ شيء صُنْعُه[٩]، ولا عِلَّةَ لصُنعِه، وليس في السماوات العُلا ولا في الأرضينَ السُّفلى مدبِّرٌ غيرَ اللهِ، وكلُّ ما تُصُوِّرَ في وهْمِك فالله بخلاف ذلك.

وقالَ الجنيدُ: التوحيد: عِلمُك وإقرارك بأنَّ الله فرْدٌ في أزَليَّته، لا ثانيَ معه ولا شيءَ يفعل فِعلَه.

---

(١) أي: معالج بوسائط وأسباب للإيجاد.

(٢) أي: وجوده.

(٣) أي: مادة آياته.

(٤) أي: يجب إقامة الأدلة على ثبوته.

(٥) أي: لا تراه المُقَل.

(٦) أي: الأوهام والعقول.

(٧) أي: من غير مكان.

(٨) أي: من غير حركة وانتقال.

(٩) أي: أنّ الله تعالى صَنَعَه.

الإيمانُ

قال أبو عبد الله بنُ خفيف: الإيمانُ: تصديقُ القلوبِ بما أعلَمَه الحقُّ من الغيوبِ.

وقال سهل بن عبد الله التُّستَري: يَنظرُ إليه تعالى المؤمنون بالأبصارِ من غير إحاطةٍ ولا إدراكِ نهاية.

وقال أبو عثمانَ المَغربي: كنتُ أعتقد شيئاً من حديث الجهة، فلما قَدِمتُ بغدادَ . . زال ذلك عن قلبي، فكتبتُ إلى أصحابِنا بمكةَ: إني أسلمتُ الآن إسلاماً جديداً.

قال الواسطي: لما كانت الأرواح والأجساد قامتا بالله[1] وظهرتا به لا بذواتِها . . كذلك قامت الخَطَرات والحركات بالله لا بذواتِها[2]؛ إذ الحركات والخطرات فروعُ الأجساد والأرواح.

صرَّح بهذا الكلام أن أكسابَ العباد مخلوقةٌ لله تعالى، وكما أنه لا خالقَ للجواهر إلا الله تعالى، فكذلك لا خالقَ للأَعراض إلا الله تعالى.

قال الجنيد: سُئل بعضُ العلماء عن التوحيد، فقال: هو اليقين، فقال السائل: بيِّنْ لي ما هو؟ فقال: هو معرفتُك أنَّ حركاتِ الخلْق وسكونَهم فعلُ الله عزَّ وجلّ وحدَه لا شريك له، فإذا فعلْتَ ذلك . . فقد وحَّدْتَه.

وقال الواسطيُّ: ادَّعى فرعونُ الربوبيةَ على الكشف[3]، وادَّعت المعتزلةُ على الستر، تقول: ما شئْتَ فعلْتَ.

---

(١) أي: بأمر الله.

(٢) أي: كلُّها بخلق الله.

(٣) أي: بصريح العبارة قال: أنا ربكم الأعلى.

وقال أبو الحسين النُّوري: التوحيد: كلُّ خاطرٍ يشير إلى الله تعالى بعد ألَّا تُزاحمَه خواطرُ التشبيه.

وقالَ أبو القاسمِ النَّصراباذي: الجنَّة باقيةٌ بإبقائه، وذِكرُه لك ورحمتُه ومحبتُه لك باقٍ ببقائِه، فشتَّانَ بين ما هو باق ببقائِه، وبين ما هو باقٍ بإبقائِه.

وسألَ ابنُ شاهين الجنيدَ عن معنى (مع)، فقال: (مع) على معنيَين: مع الأنبياء بالنُّصرة والكلاءَة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، ومع العامَّة بالعِلم والإحاطةِ، قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ [المجَادلة: ٧]، فقال ابن شاهين: مِثلُك يصلح أن يكون دالّاً للأُمَّة على اللهِ.

العرش

سُئل ذو النون المصري عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، فقال: أَثبتَ ذاتَه ونَفى مكانَه، فهو موجود بذاته، والأشياءُ موجودة بحُكْمِه كما شاء سبحانه.

وسُئل الشِّبْلي عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾، فقال: الرحمن لم يَزَلْ، والعرش مُحْدَث، والعرشُ بالرحمن استوى.

وسُئل جعفر بن نُصير عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾، فقال: استوى عِلمُه بكل شيء، فليس شيءٌ أقربَ إليه من شيء.

وقال جعفر الصادق: مَن زَعَم أنَّ الله في شيء أو من شيء أو على شيء .. فقد أشرك؛ إذ لو كان على شيء .. لكان محمولاً، ولو كان في شيء .. لكان محصوراً، ولو كان من شيء .. لكان مُحْدَثاً.

وقال الجنيد في جوابات مسائل الشاميين: تَفرَّد الحقُّ بعِلم الغيوب، فعلم ما كان وما يكون وما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون.

وقال الواسطي: ما أحدثَ الله شيئاً[١] أكرمَ من الروح. صَرَّح بأن الروحَ مخلوقةٌ.

قال الأستاذ الإمام زين الإسلام أبو القاسم رحمه الله تعالى: دَلَّت هذه الحكايات على أن عقائدَ مشايخِ الصوفية تُوافِق أقاويلَ أهل الحق[٢] في مسائل الأصول.

وقد اقتصرْنا على هذا المقدار خشيةَ خروجِنا عما آثرْناه من الإيجاز والاختصار.

(١) أي: ما خلق الله.

(٢) أي: أهل السنة والجماعة.

فصل
في بيان عقائدهم في مسائل التوحيد

قال الأستاذ زين الإسلام أبو القاسم أدام الله عِزَّه: وهذه فصول تشتمل على بيان عقائِدهم في مسائل التوحيد ذكرناها على وجه الترتيب.

قال شيوخ هذه الطريقة على ما يدلُّ عليه متفرقاتُ كلامِهم ومجموعاتُها ومصنفاتُهُم في التوحيد:

إنَّ الحق سبحانه وتعالى موجود، قديم، واحد، حكيم، قادر، عليم، قاهر، رحيم، مريد، سميع، مَجيد، رفيع، متكلم، بصير، متكبر، قدير، حيٌّ، أحد، باق، صمد، وأنه عالم بِعِلم، قادر بقدرة، مريد بإرادة، سميع بسمع، بصير ببصر، متكلم بكلام، حيٌّ بحياة، باقٍ ببقاء، وله يدان هما صفتان يخلُق بهما ما شاء سبحانه، على التخصيص وله الوجه، وصفات ذاته مختصة بذاته لا يقال هي هو، ولا هي أغيار له، بل هي صفات أزلية ونعوت سرمدية، وأنَّه أحديُّ الذات، ليس يشبهُ شيئاً من المصنوعات، ولا يشبهُه شيءٌ من المخلوقات، ليس بجسم ولا جوهر ولا عَرَض، ولا صفاتُه أعراض، ولا يُتَصوَّر في الأوهام، ولا يُتَقدَّر في العقول، ولا له جهةٌ ولا مكان، ولا يجري عليه وقتٌ وزمان، ولا يجوز في وصفه زيادةٌ ولا نقصان، ولا يخُصُّه هيئة وقَدٌّ، ولا يقطَعُه نهاية وحدٌّ، ولا يحُلُّه حادث، ولا يحمِلُه على الفعل باعث، ولا يجوز عليه لون ولا كَوْن، ولا ينصره مَدد ولا عَون، ولا يخرج عن قدرتِه مقدور، ولا ينفكُّ عن حُكمه مفطور[1]، ولا يعزُب[2]

(١) بمعنى مخلوق.

(٢) أي: لا يغيب.

عن علمه معلوم، ولا هو على فِعله - كيف يصنع وما يصنع - ملُوم، لا يقال له أين ولا حيث ولا كيف، ولا يُستفتَح له وجود فيقالَ: متى كان، ولا ينتهي له بقاء فيقالَ: استوفى الأجلَ والزمان، ولا يقال: لِمَ فَعل ما فَعل؛ إذ لا عِلَّة لأفعاله، ولا يقال ما هو؛ إذ لا جنس له فيتميَّزُ بأمَارةٍ عن أشكاله، يُرى لا عن مقابَلة، ويَرى غيرَه لا عن مُماقلة[١]، ويَصنع لا عن مُباشرة ومُزاوَلة.

له الأسماءُ الحُسنى والصفاتُ العُلا، يَفعل ما يريد، ويَذِلُّ لحُكمِه العبيد، لا يجري في سلطانِه إلا ما يشاء، ولا يحصلُ في ملكه غيرُ ما سَبقَ به القضاء، ما علم أنه يكون من الحادثات أراد أن يكون، وما علم أنه لا يكون مما جاز أن يكون أراد ألا يكون، خالقُ أكسابِ العباد خيرِها وشرِّها، ومُبدِعُ ما في العالَم من الأعيان والآثار قُلِّها وكُثْرها[٢]، ومرسلُ الرُّسُل إلى الأُمَم من غير وجوبٍ عليه، ومتعبَّدُ الأنام على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما لا سبيلَ لأحدٍ باللَّوم والاعتراض عليه، ومؤيِّدُ نبينا محمد ﷺ بالمُعجزاتِ الظاهرة والآيات الباهرة، بما أزاح به العُذْر، وأوضح به اليقين والنُّكْر، وحافظُ بَيضة الإسلام[٣] بعد وفاتِه - ﷺ - بخلفائِه الراشدين، ثم حارسُ الحق وناصره بما يوضحه من حُجَج الدِّين على ألسنة أوليائِه، عصَم الأمة الحنيفية عن الاجتماع على الضَّلالة، وحسَم مادة الباطل بما نصب من الدِّلالة، وأنجز ما وَعد من نصرة الدِّين بقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصَّف: ٩].

---

(١) المُقلة وهي العين، أي: ليس له جارحة سبحانه.

(٢) قليلها وكثيرها.

(٣) عِزّه وجماعته.

بابٌ

في تفسير ألفاظٍ تدور بين هذه الطائفة، وبَيانُ ما يُشكِلُ منها

اِعلم أنَّ من المعلوم أنَّ كُلَّ طائفة من العلماء لهم ألفاظ يستعملونها فيما بينهم، انفردوا بها عمَّن سواهم، تواطؤوا عليها لأغراض لهم فيها، مِن تقريب الفَهْم على المخاطبِين بها، أو تسهيلٍ على أهل تلك الصَّنعة في الوقوف على معانيهم بإطلاقها.

وهذه الطائفة يستعملون ألفاظاً فيما بينهم، قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفُسهم، والإجمالَ والسَّترَ على مَن بايَنَهم في طريقتهم؛ لتكون معاني ألفاظهم مُشْتبهَمَةً على الأجانب؛ غَيرةً منهم على أسرارهم أن تشِيع في غير أهلها، إذ ليست حقائقُهم مجموعةً بنوع تكلُّف، أو مجلوبةً بضرْبِ تصرُّفٍ، بل هي معانٍ أودعَها اللهُ تعالى قلوبَ قوم، واستخلَصَ لحقائِقِها أسرارَ قومٍ، ونحن نريد بشرح هذه الألفاظِ تسهيلَ الفَهْم على مَن يريد الوقوف على معانيهم مِن سالكي طُرُقِهم ومتَّبِعي سَنَنِهم.

فمن ذلك: الوقت

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق رحمه الله تعالى يقول: الوقت: ما أنت فيه، إنْ كنتَ بالدُّنيا . . فوقتُك الدُّنيا، وإنْ كنتَ بالعُقبى . . فوقتُك العُقبى، وإن كنتَ بالسُّرور . . فوقتُك السُّرور، وإن كنتَ بالحُزن . . فوقتُك الحُزن. يريد بهذا أن الوقت ما كان هو الغالب على الإنسان.

ويقولون: الصُّوفيُّ ابنُ وقته، يريدون بذلك: أنه مشتغِل بما هو أولى به مِن العبادات في الحال، قائم بما هو مطلوب به في الحين.

وقد يريدون بالوقت: ما يصادفهم مِن تصريف الحقِّ لهم دون ما يختارونه لأنفُسهم.

ويقولون: فلان بحُكْم الوقت؛ أي: أنه مستسلِم لما يبدو له من الغَيب من غير اختيار له، وهذا فيما ليس لله تعالى عليهم فيه أمر أو اقتضاء بحقٍّ شرع، إذ التَّضييع لِما أُمرْتَ به وإحالةُ الأمرِ فيه على التَّقدير وتركُ المبالاةِ بما يحصل منك من التَّقصير . . خروج عن الدِّين.

والكَيِّس: مَن كان بحُكْم وقته، إنْ كان وقتُه الصحْو . . فقيامه بالشَّريعة، وإنْ كان وقتُه المحْو . . فالغالب عليه أحكام الحقيقة.

المَقام

والمقام: ما يتحقق به العبد بمُنازلته من الآداب مما يَتوصَّل إليه بنوع تَصَرُّف، ويتحقق به بضَرْب تطلُّب، ومقاساة تَكَلُّف، فمقام كُلِّ أحد موضع إقامته عند ذلك، وما هو مشتغِل بالرِّياضة له.

وشرْطه: ألَّا يرتقي من مقام إلى مقام آخر ما لم يستوفِ أحكام ذلك المقام، فإنَّ مَن لا قناعة له . . لا يصح له التَّوكُّل، ومَن لا توكُّل له . . لا يصح له التَّسليم، وكذلك مَن لا توبة له . . لا تصح له الإنابة، ومَن لا ورع له . . لا يصحُّ له الزُّهد.

ولا يصحُّ لأحد منازلة مقام إلا بشهود إقامة الله تعالى إيَّاه بذلك المقام؛ ليصحَّ بناء أمرِه على قاعدة صحيحة.

الحال

والحال عند القوم: معنىً يَرِد على القلب من غير تعمُّدٍ منهم ولا اجتلاب ولا اكتساب لهم، مِن طرب أو حُزن، أو بَسْط أو قبْض، أو شوق أو انزعاج، أو هيبة أو احتياج، فالأحوال مَواهب، والمقامات مَكاسب، والأحوال تأتي من عين الجود، والمقامات تحصل ببذْل المجهود، وصاحب المقام مُتمكِّن في مقامه، وصاحب الحال مُترَقٍّ عن حاله.

القَبْض والبَسْط

وهما حالتان، بعد ترقِّي العبد عن حالة الخوف والرجاء، فالقبض للعارف بمنزلة الخوف للمستأنِف، والبسط للعارف بمنزلة الرَّجاء للمستأنِف.

ومِن الفصل بين القبض والخوف، والبسط والرجاء: أنَّ الخوف إنما يكون من شيء في المستقبل، إما أنْ يخافَ فوتَ محبوب أو هجومَ محذور، وكذلك الرَّجاء: إنَّما يكون بتأميل محبوب في المستقبل، أو بتطلُّع زوال محذور وكفاية مكروه في المستأنف.

وأما القبض . . فلمعنىً حاصل في الوقت، وكذلك البسط، فصاحب الخوف والرجاء تعلَّقَ قلبُه في حالتيه بآجلِه، وصاحب القبْض والبسْط أخذ وقتَه بوارد غلب عليه في عاجله.

ومِن أدنى موجبات القبض: أنْ يَرِد على قلبه وارد موجَبُه إشارةٌ إلى عِتاب ورمْزٌ باستحقاق تأديب، فيحصل في القلب لا محالةَ قبض، وقد يكون موجَب بعض الواردات إشارةٌ إلى تقريب، أو إقبال بنوع لطف وترحيب، فيحصل للقلب بَسْط.

وفي الجملة: قبْض كلِّ أحد حسَب بسْطه، وبسْطه على حسَب قبْضه.

وقد يكون قبض يُشكِل على صاحبه سببه، يجد في قلبه قبضاً لا يدري موجَبَه ولا سببه، فسبيل صاحب هذا القبض التَّسليم حتى يمضيَ ذلك الوقت؛ لأنه لو تكلَّفَ نفيَه أو استقبل الوقت قبل هجومه عليه باختياره . . زاد في قبضه، ولعلَّه يُعَدُّ ذلك منه سوءَ أدب، وإذا استسلم لحُكْم الوقت . . فعن قريب يزول القبض، فإنَّ الحقَّ سبحانه قال: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٥]، قال بعضُهم: فُتِح علَيَّ باب من البسْط، فزللْت زَلَّة فحُجِبتُ عن مقامي، ولهذا قالوا: قِفْ على البِساط، وإيَّاك والانبساط.

الهيبة والأُنْس

وهما فوق القبض والبسط، فكما أن القبض فوق رتبة الخوف، والبسطَ فوق منزلة الرجاء . . فالهيبة أعلى مِن القبض، والأُنْس أتمُّ من البسط، وحق الهيبة الغيبة؛ فكل هائب غائب، ثم الهائبون يتفاوتون في الهيبة على حسَب تباينهم في الغيبة، فمنهم ومنهم[١]، وحقُّ الأنس صحْو بحقٍّ، فكُلُّ مستأنس صاحٍ ثم يتباينون حسَب تباينهم في الشُّرب، ولهذا قالوا: أدنى محلِّ الأُنْس: أنه لو طُرح في لظى . . لم يتكدَّرْ عليه أُنْسه.

قال الجنيد رحمه الله تعالى: كنت أسمع السَّريَّ يقول: يبلغ العبد إلى حدٍّ لو ضُرب وجهه بالسَّيف . . لم يشعر، وكان في قلبي منه شيء، حتى بانَ لي أنَّ الأمر كذلك.

وحالُ الهيبة والأُنْس - وإنْ جَلَّتا - فأهل الحقيقة يعُدُّونهما نقصاً؛ لتضمُّنهما تغيُّر العبد، فإنَّ أهل التمكين سَمَتْ أحوالهم عن التَّغيُّر، وهم محْو في وجود العين، فلا هيبة لهم ولا أُنْس، ولا علم ولا حِسْ.

التَّواجد والوَجْد والوجُود

فالتواجد: استدعاءُ الوَجد بضرب[٢] اختيار، وليس لصاحبه كمالُ الوَجْد، إذ لو كان . . لكان واجداً، فقوم قالوا: التَّواجدُ غيرُ مُسَلَّم لصاحبه؛ لِما يتضمَّن من التكلُّف ويَبعُد عن التَّحقيق، وقوم قالوا: إنه مُسلَّم للفقراء المجرَّدين الذين ترصَّدوا لوِجدان هذه المعاني، وأصلهم: خبر الرَّسول ﷺ: «**ابكوا، فإنْ لم تبكوا . . فتباكُوا**»[٣].

---

(١) أي: فمنهم من تطول غيبته، ومنهم من تَقْصُر على حسب هيبته.

(٢) أي: بنوع.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٩٦)، وأبو يعلى في ((مسنده)) (٦٨٩) عن سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

والوَجْد: ما يصادف قلبَك ويَرِد عليك بلا تَعَمُّد وتَكَلُّف، ولهذا قال المشايخ: الوَجْد: المصادفة، والمواجيد: ثمراتُ الأوراد، فكُلُّ مَن ازدادت وظائفُه . . ازدادتْ من الله لطائفُه.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق رحمه الله تعالى يقول: الواردات: مِن حيث الأوراد، فمَن لا وِرْد له بظاهره . . لا وارد له في سرائره، وكُلُّ وَجْد فيه من صاحبه شيء . . فليس بوَجْد[١]، وكما أنَّ ما يتكلَّفُه العبد من معاملاتِ ظاهرِه يوجِب له حلاوة الطَّاعات . . فما يُنازله[٢] العبد مِن أحكام باطنه يوجِب له المواجيد، فالحلاوات: ثمرات المعاملات، و المواجيد: نتائج المنازَلات.

أما الوجود[٣]: فهو بعد الارتقاء عن الوَجْد، ولا يكون وجود الحقِّ إلا بعد خُمود البشريَّة؛ لأنه لا يكون للبشريَّة بقاء عند ظهور سُلطان الحقيقة، وهذا معنى قول أبي الحسين النُّوْري: أنا منذ عشرين سَنة بين الوَجْد والفَقْد؛ أي: إذا وجدْتُ ربي . . فقدْتُ قلبي، وإذا وجدْتُ قلبي . . فقدْتُ ربي، وهذا معنى قول الجنيد: عِلم التَّوحيد مباينٍ لوجوده، ووجودُه مباينٍ لعِلمه[٤]، وفي هذا المعنى أنشدوا:

وُجودي أن أغيبَ عن الوجود بما يبدو علَيَّ مِن الشُّهود

---

(١) أي: هو تواجُد وليس وَجْداً.

(٢) أي: يجاهد نفْسه عليه من الأخلاق والطاعات.

(٣) أي: شهود الحقّ.

(٤) إن العارف إذا كان في حال الوجود . . لا يستطيع التكلُّم في علم التوحيد؛ لاستغراقه في الغَيبة.

فالتَّواجُد: بداية، والوجود: نهاية، والوَجْد: واسطة بين البداية والنِّهاية، فهو كمَن شهِد البحر، ثم ركب البحر، ثم غرق في البحر.

وترتيب هذا الأمر: قُصود، ثم ورود، ثم شهود، ثم جمود[١]، ثم خمود، وبمقدار الوجود يحصل الخمود، وصاحب الوجود له صَحْو ومَحْو، فحالُ صَحْوه بقاؤه بالحقِّ، وحال مَحْوه فناؤه بالحقِّ، وهاتان الحالتان أبداً متعاقبتان عليه، فإذا غلب عليه الصَّحْو بالحقِّ . . فبِه يصول وبه يقول[٢].

عن امرأة أبي عبد الله التروغندي تقول: لما كانت أيام المجاعة والناس يموتون من الجوع . . دخل أبو عبد الله التروغندي بيته، فرأى في بيته مقدار مَنَوين[٣] حنطة، فقال: الناس يموتون من الجوع وفي بيتي حنطة!؟ فخُولِط في عقله، فما كان يُفيق إلا في أوقات الصَّلاة يصلي الفريضة، ثم يعود إلى حالته، فلم يَزَلْ كذلك إلى أن مات، دلَّت هذه الحكاية على أنَّ هذا الرَّجُل كان محفوظاً عليه آداب الشريعة عند غَلَبات أحكام الحقيقة، وهذا هو صفة أهل الحقيقة، ثم كان سبب غَيبته عن تمييزه: شفقتَه على المسلمين، وهذا أقوى سِمَةٍ لتحقُّقه في حاله.

---

(١) (ثم وجود): في نسخة: (ثم جمود).

(٢) هذا الكلام له شاهد من السنة النبوية، قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها . . .**» أخرجه البخاري (٦٥٠٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) تثنية مَنّ: حوالي ٨٠٠ غرام.

الجَمْع والفَرْق

لفظ الجَمْع والتَّفرقة يجري في كلامهم كثيراً، وكان الأستاذ أبو علي الدَّقَّاق يقول: الفَرْق: ما نُسِب إليك، والجمع: ما سُلِب عنك، ومعناه: أنَّ ما يكون كسْباً للعبد من إقامة العُبوديَّة، وما يليق بأحوال البشريَّة . . فهو فَرْق، وما يكون مِن قِبَل الحقِّ من إبداءِ مَعانٍ وإسْداء لُطف وإحسان . . فهو جَمْع، هذا أدنى أحوالهم في الجمع والفرق؛ لأنه من شُهود الأفعال، ولا بُدَّ للعبد من الجمع والفرق، فإنَّ مَن لا تفرقة له . . لا عبودية له، ومَن لا جَمع له . . لا معرفة له، فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥] إشارة إلى الفرق، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥] إشارة إلى الجمع، وإذا ما خاطب العبدُ الحقَّ سبحانه بلسان نجواه إما سائلاً أو داعياً أو مُثْنياً أو شاكراً أو متنصِّلاً أو مبتهلاً . . قام في محلِّ التَّفرقة، وإذا أصغى بسِرِّه إلى ما يناجيه به مولاه، واستمع بقلبه ما يخاطبه به فيما ناداه أو ناجاه أو عرَّفه أو لوَّح لقلبه وأراده . . فهو بشاهد الجمع.

جمعُ الجمعِ

وجمع الجمع فوق هذا، يختلف الناس في هذه الجملة على حسَب تبايُنِ أحوالهم وتفاوُت درجاتهم، فمَن أثبت نفْسَه وأثبت الخَلْق ولكن شاهد الكُلَّ قائماً بالحقِّ . . فهذا هو الجمع، وإذا كان مُختطَفاً عن شهود الخَلْق مصطلَماً[1] عن نفْسه، مأخوذاً بالكُلِّية عن الإحساس بكُلِّ غيرٍ بما ظهر، واستولى من سلطان الحقيقة . . فذاك جمع الجمع.

فالتَّفرقة: شهود الأغيار لله عزَّ وجلّ.

---

(١) أي: غافلاً.

والجمع: شهود الأغيار بالله عزَّ وجلّ.

وجمع الجمع: الاستهلاك بالكلية، وفناء الإحساس بما سوى الله عزَّ وجلّ عند غَلَبات الحقيقة.

وبعد هذا حالة عزيزة، يسمِّيها القومُ **الفَرْقَ الثاني**: وهو أنْ يُرَدَّ العبد إلى الصحْو عند أوقات أداء الفرائض؛ ليجريَ عليه القيام بالفرائض في أوقاتها، فيكون رجوعاً لله بالله تعالى لا للعبد بالعبد، فالعبد يطالع نفْسَه في هذه الحالة في تصريف الحقِّ سبحانه وتعالى.

وأشار بعضهم بلفظ الجمع والفرق إلى تصريف الحقِّ جميعَ الخَلْق، فجمَعَ الكُلَّ في التَّقليب والتَّصريف من حيثُ إنه مُنشئُ ذواتِهم ومجري صفاتهم، ثم فرَّقهم في التَّنويع: ففريقاً أسعدهم، وفريقاً أبعدهم وأشقاهم، وفريقاً هداهم، وفريقاً أضلَّهم وأعماهم، وفريقاً حجَبَهُم عنه، وفريقاً جذبهم إليه، وفريقاً آنسهم بوَصْلِه، وفريقاً آيسهم من رحمته، وفريقاً أكرمهم بتوفيقه، وفريقاً اصطلَمهم[1] عند رَوْمهم لتحقيقه، وفريقاً أصحاهم، وفريقاً محاهم، وفريقاً قرَّبهم، وفريقاً غيَّبهم، وفريقاً أدناهم وأحضرهم ثم أسقاهم فأسكرهم، وفريقاً أشقاهم وأخَّرَهم ثم أقصاهم وهجرهم، وأنواع أفعاله لا يحيط بها حصر، ولا يأتي على تفصيلها شرْح ولا ذِكر.

الفناءُ والبقاءُ

أشار القوم بالفناء: إلى سقوط الأوصاف المذمومة، وأشاروا بالبقاء: إلى قيام الأوصاف المحمودة به.

وإذا كان العبد لا يخلو عن أحد هذين القِسمين . . فمِن المعلوم أنه إذا

(١) أي: غيَّبَهم.

لم يكن أحد القِسمين . . كان القسم الآخر لا محالة، فمَن فني عن أوصافه المذمومة . . ظهرت عليه الصِّفات المحمودة، ومَن غلبت عليه الخصال المذمومة استترَتْ عنه الصِّفات المحمودة.

واعلم أنَّ الذي يتصف به العبد: أفعال، وأخلاق، وأحوال.

فالأفعال: تصرُّفاته باختياره.

والأخلاق: جِبِلَّة فيه، ولكن تتغَيَّر بمعالجته على مستمرِّ العادة.

والأحوال: تَرِد على العبد على وجه الابتداء، لكِنْ صفاؤها بعد زكاء الأعمال، فهي كالأخلاق من هذا الوجه؛ لأنَّ العبد إذا نازَل الأخلاق بقلبه فينفي بجهده سَفْسافَها . . مَنَّ الله عليه بتحسين أخلاقه، فكذلك إذا واظب على تزكية أعماله ببَذلِ وُسعه . . مَنَّ الله عليه بتصفية أحواله، بل بتوفية أحواله، فمَن ترك مذمومَ أفعالِهِ بلسان الشَّريعة . . يقال: إنَّه فنِي عن شهَواته، ومن عالَج أخلاقَه فنفى عن قلبه الحسد والحقد والبخل والشُّحَّ والغضب والكِبر وأمثالَ هذا مِن رُعونات النَّفْس . . يقال: فني عن سوء الخُلُق، فإذا فني عن سوء الخُلُق . . بقي بالفُتوَّة والصِّدق، ومَن شاهد جريان القُدرة في تصاريف الأحكام . . يقال: فني عن حُسْبان الحَدَثان مِن الخَلْق، فإذا فني عن توهُّم الآثار مِن الأغيار . . بقي بصفات الحقِّ[1]، ومَن استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد مِن الأغيار لا عيناً ولا أثراً ولا رسماً ولا طَللاً . . يقال: إنه فني عن الخَلْق وبقي بالحقِّ، فقد ترى الرَّجُل يدخل على ذي سلطان أو محتشَم، فيَذْهل عن نفْسه وعن أهل مجلسه هيبة، وربَّما يذْهل عن ذلك المحتشَم، حتى إذا سئل بعد خروجه من عنده عن أهل مجلسه و هيآتِ ذلك الصَّدرِ و هيآتِ نفْسِه . . لم يمكنْه الإخبار عن شيء، فمَن فني عن جهله

(١) أي: ارتقى إلى البقاء.

. . بقي بعِلمه، ومَن فني عن شهوته . . بقي بإنابته، ومَن فني عن رغبته . . بقي بزَهادته، ومَن فني عن مُنيَته . . بقي بإرادته تعالى، وكذلك القول في جميع صفاته، فإذا فني العبد عن صفته بما جرى ذِكره . . يرتقي عن ذلك بفَنائه عن رؤية فَنائه.

الغَيبةُ والحضورُ

فالغَيبة: غَيبة القلب عن عِلم ما يجري مِن أحوال الخَلْق؛ لاشتغال الحِسِّ بما ورد عليه، ثم قد يغيب عن إحساسه بنفْسه وغيره بواردٍ مِن تذكُّر ثواب أو تفكُّر عقاب، كما روي أنَّ الرَّبيع بن خيثم كان يذهب إلى ابن مسعود رضي الله عنه، فمرَّ بحانوت حدَّاد، فرأى الحديدة المحمَّاة في الكير، فغُشي عليه ولم يُفِق إلى الغد، فلما أفاق سئل عن ذلك، فقال: تذكَّرت كونَ أهل النَّار في النَّار، فهذه غَيبة زادت على حدِّها حتى صارت غَشْية.

وروي عن علي بن الحسين أنه كان في سجوده، فوقع حريق في داره، فلمْ ينصرف عن صلاته، فسُئل عن حاله، فقال: ألهتْني النَّار الكبرى عن هذه النَّار.

وربَّما تكون الغَيبة عن إحساسه، بمعنىً يكاشَفُ به من الحقِّ سبحانه، ثم إنهم مختلفون في ذلك على حسَب أحوالهم.

ومن المشهور: أنَّ ابتداء حال أبي حفص النَّيسابوري الحدَّاد في ترك الحِرفة، أنه كان على حانوته، فقرأ قارئ آية من القرآن، فورد على قلب أبي حفص واردٌ تَغافَل به عن إحساسه[1]، فأدخل يده في النار وأخرج الحديدة المحمَّاة بيده، فرأى تلميذٌ له ذلك، فقال: يا أستاذ . . ما هذا؟ فنظر أبو حفص إلى ما ظَهر عليه، فترك الحِرفة وقام من حانوتِه.

(١) أي: أخذته الغَيبة عما حوله من الخلْق.

وأما الحضور: فقد يكون حاضراً بالحقِّ؛ لأنه إذا غاب عن الخلْق . . حَضر بالحقِّ، على معنى أنه يكون كأنه حاضر، وذلك لاستيلاء ذِكر الحقِّ على قلبه، فهو حاضر بقلبه بين يدي ربِّه تعالى، فعلى حسَب غَيبته عن الخلْق يكون حضوره بالحقِّ، فإنْ غاب بالكُلِّيَّة . . كان الحضور على حسَب الغَيبة، وقد تختلف أحوالهم في الغَيبة، فمنهم مَن لا تمتدُّ غَيبته، ومنهم مَن تدوم غَيبته.

الصَّحْو والسُّكْر

فالصَّحْو: رجوع إلى الإحساس بعد الغَيبة. والسُّكْر: غَيبةٌ بواردٍ قويٍّ.

والسُّكْر: زيادة على الغَيبة من وجه، وذلك أنَّ صاحب السُّكْر قد يكون مبسوطاً إذا لم يكن مُستوْفىً في حال سُكْره.

والغَيبة: قد تكون للعُبَّاد بما يَغلب على قلوبهم من موجِب الرَّغبة والرَّهبة ومقتضَيات الخوف والرَّجاء.

والسُّكْر لا يكون إلا لأصحاب المواجيد، فإذا كوشف العبد بنعت الجمال . . حصل السُّكْر وطاب[1] الرُّوح وهام القلب.

واعلم أنَّ الصَّحْو على حسب السُّكْر، فمَن كان سُكْره بحقٍّ . . كان صحْوه بحقٍّ، ومَن كان سُكْره بحظٍّ مَشُوباً . . كان صحْوه بحظٍّ مصحوباً، ومَن كان محِقّاً في حاله . . كان محفوظاً في سُكْره.

والعبد في حال سُكْره بشاهد الحال، وفي صحْوه بشاهد العِلم، إلَّا أنَّه في حال سُكْره محفوظ لا بتكلُّفه، وفي حال صحْوه متحفِّظ بتصرُّفه.

---

(١) أي: طرِبت.

الذَّوْق والشُّرْب

ومِن جملة ما يجري في كلامهم: الذَّوْق والشُّرْب، ويعبِّرون بذلك عما يجدونه من ثمرات التَّجلِّي ونتائج الكُشوفات وبَوادِه[١] الوارِدات.

وأوَّل ذلك: الذَّوْق، ثم الشُّرْب، ثم الرِّي.

فصفاءُ معاملاتهم[٢] يوجِب لهم ذَوقَ المعاني، ووفاء مُنازَلاتِهم[٣] يوجِب لهم الشُّرْب، ودوامُ مواصَلاتِهم يقتضي لهم الرِّي.

ومَن قويَ حُبُّه تَسرْمَد شُرْبه، فإذا دامت به تلك الصِّفة . . لم يورثْه الشُّرْب سُكْراً، فكان صاحياً بالحقِّ فانياً عن كُلِّ حظٍّ لم يتأثَّر بما يَرِدُ عليه، ولا يتغيَّرْ عما هو به، ومَن صفا سِرُّه . . لم يتكدَّرْ عليه الشُّرْب، ومَن صار الشَّراب له غذاءً . . لم يصبر عنه، ولم يبقَ بدونه، وأنشدوا:

عجبْتُ لمَن يقول ذكرْتُ ربي فهل أنسى فأذكرُ ما نَسيتُ
شربْتُ الحُبَّ كأساً بعد كأس فما نفِدَ الشَّرابُ ولا رَوِيْتُ

ويقال: كتب يحيى بن معاذ إلى أبي يزيد البسطامي: ههنا مَن شرب مِن كأس المحبَّة لمْ يظمأ بعده، فكتب إليه أبو يزيد: عجبْتُ مِن ضَعْفِ حالك! ههنا مَن يحتسي بحار الكون وهو فاغرٌ فاهُ يستزيد.

---

(١) يأتي الحديث عنه في مبحث ((البواده والهجوم)) (ص٨٣).

(٢) أي: صفاء المعاملات الظَّاهرة.

(٣) أي: صدق المجاهدات.

المحْو والإثبات

المحْو: رفْع أوصاف العادة.

والإثبات: إقامة أحكام العبادة.

فمَن نفى عن أحواله الخصال الذَّميمة وأتى بَدَلَها بالأفعال والأحوال الحميدة . . فهو صاحبُ محْو وإثبات.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق رحمه الله تعالى يقول: قال بعض المشايخ لواحد: إيش تمحو؟ وإيش تثبت؟ فسكت الرَّجُل، فقال: أمَا علمت أنَّ الوقت محْو وإثبات؛ إذ مَن لا محْو له ولا إثبات . . فهو مُعطِّل[1] مهمِل.

وينقسم إلى: محْو الزَّلَّة عن الظَّواهر، ومحْو الغفلة عن الضَّمائر، ومحْو العِلَّة عن السَّرائر، ففي محْو الزَّلَّة: إثبات المعاملات، وفي محْو الغفلة: إثبات المُنازَلات، وفي محْو العِلَّة: إثبات المواصَلات، وهذا محْو وإثبات بشرْط العبودية.

وأمَّا حقيقة المحْو والإثبات . . فصادران عن القُدرة، فالمحْو: ما ستره الحقُّ ونفاه، والإثبات: ما أظهره الحقُّ وأبداه.

والمحْو والإثبات مقصوران على المشيئة، قال الله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرّعد: ٣٩].

السَّتْر والتَّجلِّي

العَوَام[2] في غطاء السَّتْر[3]، والخَوَاص في دوام التَّجلِّي.

---

(١) لأحكام الشَّريعة.

(٢) أي: من الصُّوفيَّة.

(٣) أي: أنْ يُخفي الله عنهم أحوالهم؛ ليدوموا على جِدِّهم واجتهادهم في عباداتهم.

وفي الخبر: «**إنَّ الله إذا تجلَّى لشيء . . خَشع له**»(١).

فصاحب السَّتْر بوصف شهوده، وصاحب التَّجلِّي أبداً بنعت خشوعه، والسَّتْر للعَوَام عقوبة، وللخَوَاص رحمة؛ إذ لولا أنه يستر عليهم ما يُكاشِفُهم به . . لتلاشَوا عند سلطان الحقيقة، ولكنَّه كما يُظهِر لهم يَستُر عليهم.

وعَوَام هذه الطَّائفة عيشُهم في التَّجلِّي، وبلاؤهم في السَّتْر، وأمَّا الخَوَاص . . فهم بين طَيش وعَيش(٢)؛ لأنهم إذا تجلَّى لهم . . طاشوا، وإذا ستر عليهم . . رُدُّوا إلى الحظِّ فعاشوا.

وقال ﷺ: «**إنَّه لَيُغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم مئة مرة**»(٣) فكأنه ﷺ أخبر أنه يطلب السَّتْر على قلبه عند سطَوات الحقيقة؛ إذ الخلْق لا بقاء لهم مع وجود الحقِّ.

وفي الخبر: «**حجابه النور لو كشفه . . لَأحرقت سُبُحات وجهه ما أدرك بصرُه**(٤)»(٥).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في ((مسنده)) (١٨٣٦٥)، والنسائي في ((الكبرى)) (١٨٧٠) عن سيدنا النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أي: سُكْر وصَحْو.

(٣) أخرجه مسلم في ((صحيحه)) (٢٧٠٢) عن سيدنا الأغر المزني، وكان له صحبة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في ((صحيحه)) (٢٩٣)، وابن ماجه في ((سننه)) (١٩٥) عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٥) أي: إنَّ العبد لا يطيق رؤيةَ الحقِّ سبحانه ولا كمالَ جلاله، وإنما يَكشف لكُلِّ عبد مِن رؤيته في الدُّنيا ما تقْوى عليه بصيرتُه، وليس المراد بقولهم: المكاشفة والمشاهدة ونحوهما مِن الألفاظ مُعاينة الذَّات حقيقة، فإن ذلك لا يقع في الدُّنيا ولا في الآخرة على الوجه المعهود. ا هـ مِن كلام الشَّيخ زكريَّا الأنصاري رحمه الله تعالى.

المحاضَرة والمكاشَفة والمشاهَدة

المحاضَرة ابتداءً، ثم المكاشَفة، ثم المشاهَدة.

فالمحاضَرة: حضور القلب، وقد يكون بتواتر البرهان، وهو بعدُ وراءَ السترِ[١]، وإن كان حاضراً باستيلاء سلطان الذِّكر.

ثم بعده المكاشَفة: وهو حضوره بنعْتِ البيان غيرُ مفتقرٍ في هذه الحالة إلى تَأمُّل الدَّليل وتَطلُّب السَّبيل، ولا مستجيرٍ من دواعي الرَّيْب[٢]، ولا محجوبٍ عن نعْت الغَيب.

ثم المشاهدة: وهي حضور الحقِّ مِن غير بقاء تُهْمة[٣]، فإذا أصحَت سماءُ السِّرِّ عن غيوم السَّتْر . . فشمس الشُّهود مشرقة عن بُرْج الشَّرَف.

وحقُّ المشاهدة[٤]: ما قاله الجنيد رحمه الله تعالى: وجود الحقِّ مع فُقدانك[٥]، فصاحب المحاضَرة مربوط بآياته[٦]، وصاحب المكاشفة مبسوط بصفاته، وصاحب المشاهدة مُلقىً بذاته، وصاحب المحاضرة يهديه عقله، وصاحب المكاشفة يُدنيه عِلمه، وصاحب المشاهدة تمحوه معرفته.

اللَّوائحُ والطَّوالعُ واللَّوامعُ

قال الأستاذ رضي الله عنه: هذه الألفاظ متقاربة المعنى، لا يكاد يحصل بينها كبيرُ فرْق، وهي مِن صفات أصحاب البدايات الصَّاعدين في التَّرقِّي بالقلب، فلم

(١) أي: الحجاب.

(٢) أي: باطمئنان مِن غير شكٍّ في قلبه بالتَّجلّي.

(٣) أي: شُبهة.

(٤) أي: حقيقتها.

(٥) أي: فنائك عما سواه.

(٦) أي: المكوَّنات.

يدُم لهم بَعْدُ ضياءُ شموس المعارف، لكنَّ الحق سبحانه وتعالى يؤتي رزقَ قلوبهم في كُلِّ حين، كما قال: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مَريَم: ٦٢][(١)]، فكُلَّما أظلم عليهم سماء القلوب بسَحاب الحظوظ . . سَنح[(٢)] لهم فيها لوائح الكشف، وتلألأ لوامعُ القُرْب، وهم في زمان سَتْرهم يرقُبون فجأة اللوائح[(٣)].

فتكون أولاً لوائح ثم لوامع ثم طوالع، فاللوائح كالبروق ما ظهرت حتى استترت، واللوامع أظهَر من اللوائح، ليس زوالُها بتلك السرعة، فقد تبقى اللوامع وقتين وثلاثة، فإذا لمعَ . . قطعَك عنك وجمعك به، لكنْ لم يُسفِر نورُ نهاره حتى كرَّ عليه عساكر الليل، فهؤلاء بين رَوْح ونَوْح؛ لأنهم بين كَشْف وسَتْر.

والطوالع أبقى وقتاً، وأقوى سلطاناً، وأدومُ مُكْثاً، وأذهبُ للظُّلمة، وأنفى للتُّهمة.

البَوادِه والهجوم

البَوادِه: ما يَفْجَأ قلبَك من الغَيب على سبيل الوهْلة[(٤)]، إمَّا موجِب فرح، وإمَّا موجِب ترح.

والهجوم: ما يَرِد على القلب بقوَّة الوقت مِن غير تصنُّع منك.

---

(١) فالنفحات تأتي على دفعات.

(٢) أي: يلوح لهم معنى.

(٣) أي: ينتظرون قدوم اللَّوائح بغتة.

(٤) أي: البغْتة.

التَّلوين والتَّمكين

التَّلوين: صفة أرباب الأحوال.

والتَّمكين: صفة أهل الحقائق.

فما دام العبد في الطَّريق . . فهو صاحبُ تلوين؛ لأنه يرتقي من حال إلى حال، وينتقل من وصف إلى وصف، وصاحب التَّلوين أبداً في الزِّيادة، وصاحب التَّمكين وَصل ثم اتَّصل، وأمارة أنه اتَّصل: أنه بالكُلِّيَّة عن كُلِّيَّته بَطَل.

وقال بعض المشايخ: انتهى سفَرُ الطَّالبين إلى الظَّفَر بنفوسهم، فإذا ظفِروا بنفوسهم[١] . . فقد وصلوا.

قال الأستاذ رحمه الله تعالى: يريد انخناسَ أحكام البشريَّة[٢]، واستيلاءَ سلطان الحقيقة، فإذا أدام للعبد هذه الحالة . . فهو صاحب تمكين.

القُرْب والبُعْد

أوَّل رتبة في القرب: القرب مِن طاعته والاتِّصاف في دوام الأوقات بعبادته، وأمَّا البعد . . فهو التَّدنُّس بمخالفته والتَّجافي عن طاعته.

فأوَّل البعد: بُعْد عن التَّوفيق، ثم بُعْد عن التَّحقيق، بل البُعْد عن التَّوفيق هو البعد عن التَّحقيق، قال ﷺ - مخبراً عن الحقِّ سبحانه -: «**ما تقرَّب إليَّ المتقرِّبون بمثل أداء ما افترضتُه عليهم، ولا يزال العبد يتقرَّب إليَّ بالنَّوافل حتى يحبَّني وأحبَّه، فإذا أحببتُه . . كنت له سمعاً وبصراً، فبي يبصُر، وبي يسمع . . .**»[٣]، فقُرْب العبد أوَّلاً قُرْب بإيمانه وتصديقه، ثم قُرْب بإحسانه وتحقيقه.

---

(١) أي: تحكموا وتمكنوا من قيادة نفوسهم.

(٢) أي: الشهوات.

(٣) أورده ابن حجر في ((فتح الباري)) (١١/ ٤٤)، وللحديث شاهد في ((صحيح البخاري)) =

وقرب الحقِّ سبحانه ما يخصُّه اليومَ به من العِرفان، وفي الآخرة ما يكرمه به من الشُّهود والعَيان، وفيما بين ذلك من وجود اللُّطْف والامتنان.

ولا يكون قرب العبد مِن الحقِّ إلا ببُعده عن الخلْق، وهذه مِن صفات القلوب دون أحكام الظَّواهر والكَون.

وقرب الحقِّ سبحانه بالعلم والقدرة عامٌّ للكافَّة، وباللُّطْف والنُّصْرة خاصٌّ بالمؤمنين، ثم بخصائص التَّأنيس[١] مختصٌّ بالأولياء، قال الله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦][٢]، وقال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ [الواقعة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤][٣]، وقال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، ومَن تحقَّق بقرب الحقِّ سبحانه وتعالى . . فأدْوَنُه[٤] دوام مراقبته إيَّاه؛ لأنَّ عليه رقيبَ التَّقوى، ثم رقيب الحفظ والوفاء، ثم رقيب الحياء.

فأمَّا القرب بالذَّات . . فتعالى الله الملك الحقُّ عنه؛ فإنه متقدِّس عن الحدود والأقطار والنهاية والمقدار، ما اتَّصل به مخلوق، ولا انفصل عنه حادث مسبوق به، جَلَّت صمديَّته عن قَبول الوصل والفصل.

فقرب هو في نعته مُحال: وهو تداني الذَّوات، وقرب هو واجب في نعته: وهو قرب بالعلم والرؤية، وقرب هو جائز في وصفه - يخصُّ به مَن

= (٦٥٠٢) بلفظ «**إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها . . .**».

(١) أي: الأنْس بالله.

(٢) هذا القرب للكافَّة.

(٣) هذه معيَّةُ النُّصْرة للمؤمنين.

(٤) أي: فأقلُّه.

يشاء من عباده -: هو قرب الفضل باللُّطْف.

الشَّريعة والحقيقة

الشَّريعة: أمر بالتزام العبودية.

والحقيقة: مشاهدة الرُّبوبيَّة.

فكُلُّ شريعة غيرُ مؤيَّدة بالحقيقة . . فغير مقبول، وكُلُّ حقيقة غيرُ مقيَّدة بالشريعة . . فغير مقبول.

فالشريعة جاءت بتكليف الخلْق، والحقيقة إنباء عن تصريف الحقِّ. فالشريعة أنْ تعبدَه، والحقيقة أنْ تشهدَه. والشريعة: قيام بما أمر، والحقيقة: شُهود لما قضى وقدَّر وأخفى وأظهر.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق رحمه الله تعالى يقول: قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥] حِفظ للشريعة، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥] إقرار بالحقيقة.

النَّفَس

النَّفَس: ترويح القلوب بلطائف الغيوب، وصاحب الأنفاس أرقُّ وأصفى من صاحب الأحوال، فكان صاحب الوقت مبتدئاً، وصاحب الأنفاس منتهياً، وصاحب الأحوال بينهما.

فالأحوال وسائط، والأنفاس نهاية التَّرقِّي، فالأوقات لأصحاب القلوب، والأحوال لأرباب الأرواح، والأنفاس لأهل السَّرائر.

وقالوا: أفضل العبادات عَدُّ الأنفاس مع الله سبحانه وتعالى[١].

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق رحمه الله تعالى يقول: العارف لا يَسلَم له

(١) أي: الحضور مع الله بعدد الأنفاس.

النفس؛ لأنه لا مسامحة تجري معه، والمحبُّ لابد له مِن نفَس؛ إذ لولا أنْ يكون له نفَس . . لتلاشى؛ لعدم طاقته.

الخواطر

الخواطر: خِطاب يَرِد على الضَّمائر، وهو قد يكون بإلقاء مَلَك، وقد يكون بإلقاء شيطان، ويكون أحاديث النَّفْس، ويكون من قِبَل الحقِّ سبحانه، فإذا كان مِن الملَك . . فهو الإلهام[١]، وإذا كان من قِبَل النَّفْس . . قيل له: الهواجس، وإذا كان من قِبَل الشَّيطان . . فهو الوَسواس، وإذا كان مِن قِبَل الله سبحانه وإلقائه في القلب . . فهو خاطرُ حقٍّ، وجملة ذلك من قبيل الكلام.

فإذا كان من قِبَل الملَك . . فإنما يُعلَم صدقُه بموافقة العِلم، ولهذا قالوا: كُلُّ خاطر لا يشهَد له ظاهر[٢] . . فهو باطل.

وإذا كان من قِبَل الشَّيطان . . فأكثره[٣] يدعو إلى المعاصي.

وإذا كان مِن قِبَل النَّفْس . . فأكثره يدعو إلى اتِّباع شهوة أو استشعار كِبْر أو ما هو من خصائص أوصاف النفس.

واتَّفق المشايخ على أنَّ مَن كان أكلُه مِن الحرام . . لم يفرِّق بين الإلهام والوَسواس.

وفرَّق الجنيد بين هواجس النَّفْس ووساوس الشَّيطان؛ بأنَّ النَّفْس إذا طالبتك بشيء . . ألحَّت، فلا تزال تُعاودك ولو بعد حين حتى تصل إلى

(١) ويسمى: لَمَّة الملَك.

(٢) أي: من العلم.

(٣) قال: أكثره؛ لأنَّ الشَّيطان ربما يدعوك إلى طاعة ويدخل عليك ما يُفْسدها من رياء وغيره، وربما يدعوك إلى طاعة؛ ليضيِّع عليك العمل في طاعة أعلى منها.

مرادها ويحصُل مقصودها، اللهم إلَّا أنْ يدوم صِدق المجاهدة، ثم إنها تُعاودك وتُعاودك، وأمَّا الشَّيطان إذا دعاك إلى زَلَّة فخالفتَه بترك ذلك . . يوسوس بزَلَّة أُخرى؛ لأنَّ جميع المخالفات له سواء، وإنما يريد أن يكون داعياً أبداً إلى زَلَّة ما، ولا غرَض له في تخصيص واحد دون واحد.

وقد قيل: كُلُّ خاطر يكون مِن الملَك . . فربَّما يوافقه صاحبه وربَّما يخالفه، فأمَّا خاطر يكون مِن الحقِّ سبحانه . . فلا يحصل خلاف مِن العبد له.

علمُ اليقين وعينُ اليقين وحقُّ اليقين

هذه عبارات عن علوم جليَّة

فاليقين: هو العلم الذي لا يُداخِل صاحبَه رَيب على مطلَق العُرْف، ولا يُطلَق في وصف الحقِّ سبحانه؛ لعدم التَّوقيف[١].

فعلم اليقين: هو اليقين، وكذلك عين اليقين: نفْس اليقين، وحقُّ اليقين: نفْس اليقين.

فعلم اليقين - على موجب اصطلاحهم -: ما كان بشرط البرهان، وعين اليقين: ما كان بحكْم البيان[٢]، وحقُّ اليقين: ما كان بنعْت العَيان[٣].

فعِلم اليقين لأرباب العقول، وعين اليقين لأصحاب العلوم، وحق اليقين لأصحاب المعارف[٤].

---

(١) أي: ما ورد في أسمائه سبحانه.

(٢) أي: بطريق الكشف.

(٣) أي: بطريق المشاهدة.

(٤) الذين غلب على قلوبهم ما شغَلَهم عن ذِكر غير الله.

والكلام في الإفصاح عن هذا بحال تحقيقه يعود إلى ما ذكرناه[١]، فاقتصرنا على هذا القَدْر على جهة التَّنبيه.

الوارد

ويجري في كلامهم ذِكر الواردات كثيراً.

والوارد: ما يَرِد على القلوب من الخواطر المحمودة مما لا يكون بتعمُّد العبد، وكذلك ما لا يكون من قبيل الخواطر فهو أيضاً وارد.

ثم قد يكون وارد مِن الحقِّ، ووارد مِن العلم، فالواردات أعمُّ مِن الخواطر؛ لأن الخواطر تختصُّ بنوع الخطاب، أو ما يتضمَّن معناه.

والواردات تكون: وارد سرور، ووارد حُزْن، ووارد قبْض، ووارد بسْط . . . إلى غير ذلك من المعاني.

الشَّاهد

كثيراً ما يجري في كلامهم لفظ: الشَّاهد.

فلان بِشاهد[٢] العِلم، وفلان بِشاهد الوَجْد، وفلان بِشاهد الحال، ويريدون بلفظ الشَّاهد: ما يكون حاضرَ قلب الإنسان، وهو ما كان الغالبَ عليه ذِكرُه، حتى كأنه يراه ويبصره، وإنْ كان غائباً عنه، فكُلُّ ما يستولي على قلب صاحبه ذِكرُه . . فهو شاهده، فإنْ كان الغالب عليه العِلم . . فهو بِشاهد العِلم، وإن كان الغالب عليه الوَجْد . . فهو بِشاهد الوَجْد.

النَّفْس

نفْس الشَّيء في اللغة: وجودُه، وعند القوم: ليس المراد من إطلاق لفظ

(١) من المنازَلات والمجاهَدات.

(٢) أي: مُتَلبِّس.

النَّفْس الوجودَ ولا القالَبَ الموضوع[١]، إنَّما أرادوا بالنَّفْس: ما كان معلولاً مِن أوصاف العبد مذموماً مِن أخلاقه وأفعاله.

ثم إنَّ المعلولات من أوصاف العبد على ضربين:

أحدهما: ما يكون كسْباً له، كمعاصيه ومخالفاته.

والثاني: أخلاقه الدَّنيئة، فهي في أنْفُسها مذمومة، فإذا عالجها العبد ونازَلها . . تنتفي عنه بالمجاهدة تلك الأخلاق على مستمَر العادة.

والقسم الأوَّل مِن أحكام النَّفْس ما نُهي عنه نَهْي تحريم أو نَهْي تنزيه.

وأمَّا القسم الثَّاني مِن قِسمي النَّفْس . . فسَفْساف الأخلاق والدنيءُ منها.

وهذا حدُّه على الجملة، ثم تفصيلها: فالكِبر، والغضب، والحِقد، والحسد، وسوء الخلُق، وقلَّة الاحتمال، وغير ذلك من الأخلاق المذمومة، ومعالجة الأخلاق في ترْك النَّفْس وكسْرُها أتَمُّ من مقاساة الجوع والعطش والسَّهَر . . . وغير ذلك من المجاهدات التي تتضمَّن سقوط القوَّة، وإنْ كان ذلك أيضاً من جملة ترك النَّفْس.

الرُّوح

الأرواح مختَلَف فيها عند أهل التَّحقيق من أهل السُّنَّة: فمنهم مَن يقول: إنها الحياة، لطيفة أجرى الله العادة بخَلْق الحياة في القالَب ما دامت الأرواح في الأبدان، فالإنسان حيٌّ بالحياة، ولكنَّ الأرواح مودَعة في القوالب، ولها تَرَقٍّ في حال النوم، ومفارقةٌ للبدن ثم رجوع إليه، وأنَّ الإنسان هو الرُّوح والجسد؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى سخَّر هذه الجملة بعضَها لبعض، والحشْرُ يكون للجملة، والمُثاب والمُعاقَب الجملة.

---

(١) أي: الجسم.

السِّرُّ

أصولهم تقتضي أنها محلُّ المشاهدة كما أنَّ الأرواح محلٌّ للمحبَّة، والقلوبَ محلٌّ للمعارف.

وقالوا: السِّرُّ: ما لَك عليه إشراف، وسِرُّ السِّرِّ: ما لا اطِّلاع عليه لغير الحقِّ.

ويقولون: الأسرار مُعتَقَة عن رِقِّ الأغيار من الآثار والأطلال.

ويُطلَق لفظ السِّرِّ على ما يكون مَصوناً مكْتوماً بين العبد والحقِّ سبحانه في الأحوال، وعليه يُحمَل قول مَن قال: أسرارُنا بِكْر لم يَفتضَّها وهْمُ واهِم.

ويقولون: صدور الأحرار قبورُ الأسرار.

وقالوا: لو عرف زِرِّي سِرِّي . . لطرحتُه.

فهذا طرَف من تفسير إطلاقاتهم وبيان عباراتهم فيما انفردوا به من ألفاظ ذكرناها على شروط الإيجاز.

باب
في ذكر مشايخ هذه الطريقة وما يدلُّ من سِيَرهم وأقوالِهم على تعظيم الشريعة

اعلموا - رحمكم اللَّه تعالى - أن المسلمين بعد رسول اللَّهِ ﷺ لم يتَسَمَّ أفاضلُهم في عصرهم بتسمية عَلَم، سوى صُحبةِ رسول اللَّه ﷺ؛ إذ لا فضيلةَ فوقَها، فقيل لهم: (الصحابة)، ولما أدركَهم أهلُ العصرِ الثاني سُمِّي مَن صحِبَ الصحابةَ: (التابعينَ)، ورأَوا في ذلكَ أشرفَ سِمَةٍ، ثم قيلَ لمن بعدَهم: (أتباع التابعين)، ثم اختلف الناسُ وتباينتِ المراتبُ، فقيل لخواصِّ الناس - مِمَّن لهم شِدّةُ عناية بأمر الدين -: الزُّهَّادُ والعُبَّادُ، ثم ظهرت البِدَعُ، وحصل التداعي بين الفِرَق، فكلُّ فريق ادَّعَوا أنَّ فيهم زُهَّاداً، فانفرد خواصُّ أهلِ السُّنة المراعونَ أنفاسَهُم مع الله تعالى الحافظون قلوبَهم عن طوارقِ الغفلة باسم (التصوف)، واشتُهِرَ هذا الاسم لهؤلاءِ الأكابِرِ قبلَ المئتينِ منَ الهجرة.

ونحن نذكرُ في هذا الباب أسامي جماعةٍ من شيوخِ هذهِ الطريقةِ، من الطَّبقة الأولى إلى وقت المتأخرين منهم، ونذكرُ جُملاً من سِيَرهم وأقاويلِهم، بما يكون فيه تنبيهٌ على أصولِهم، وآدابهم إن شاء الله تعالى.

فمنهم: أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ بنِ مَنصُور

من كُورة بَلْخ، رضي الله تعالى عنه، كان من أبناءِ الملوكِ، فخرجَ يوماً متصيِّداً، فأثارَ ثعلباً أو أرنباً وهو في طلبه، فهتفَ به هاتفٌ: يا إبراهيم، ألهذا خُلقْتَ !؟ أم بهذا أُمِرْتَ !؟ ثم هتف به أيضاً من قُربُوس سَرْجِه[1]: والله ما

(١) وهو القسم المرتفع من قُدام المقعد ومن مؤخره.

لهذا خُلقْتَ ولا بهذا أُمِرْتَ، فنزل عن دابته، وصادف راعياً لأبيه، فأخذ جُبَّةً للراعي من صوف ولبِسها، وأعطاه فرسَه وما معه، ثم إنه دخل البادية، ثم دخل مكة، وصحِب بها سفيانَ الثوري والفضيلَ بن عياض، ودخل الشام ومات بها، وكان يأكل من عمل يده، مثل: الحصاد وحفظ البساتين وغيرِ ذلك.

وكانَ إبراهيمُ بنُ أدهم كبيرَ الشأنِ في باب الورع، ويحكى عنه أنه قال: أطِب مطعمَك ولا حرج عليك ألَّا تقومَ الليل ولا تصومَ النهار[1].

وقيل: كان عامَّةُ دعائِه: اللهم .. انقُلني من ذُلِّ معصيتِكَ إلى عِزِّ طاعتِكَ.

وقيل لإبراهيم بن أدهم: إن اللحم قد غلا ! فقال: أرخصوه؛ أي: لا تشتروه، وأنشد في ذلك:

وإذا غلا شيء عليَّ تركتُه فيكونُ أرخصَ ما يكونُ إذا غلا

قال إبراهيم بن أدهم لرجل في الطواف: اعلم أنك لا تنالُ درجةَ الصالحينَ حتى تجُوزَ ستَّ عقَبات:

أولاها: تغلقُ بابَ النعمة وتفتح باب الشِّدَّة.

والثانية: تغلق باب العزِّ وتفتح باب الذلِّ.

والثالثة: تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد.

والرابعة: تغلق باب النوم وتفتح باب السهر.

والخامسة: تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر.

والسادسة: تغلق باب الأمل وتفتح باب الاستعداد للموت.

---

(١) أي: من النوافل.

ومنهم: أبو الفيضِ ذُو النونِ المصريُّ

اسمه: ثوبان بن إبراهيم، وقيل: الفيض بن إبراهيم، وأبوه كان نوبيّاً[١]، تُوفي سنة خمس وأربعين ومئتين.

فائق في هذا الشأن، وأوحَدُ وقته عِلماً وورعاً وحالاً وأدباً، سعَوا به[٢] إلى المتوكِّل، فاستحضره من مصرَ، فلما دخلَ عليه . . وعظه، فبكى المتوكِّلُ وردَّه إلى مصر مكرَّماً، وكان المتوكل إذا ذُكر بين يديه أهلُ الورعِ . . يبكي ويقول: إذا ذُكرَ أهل الورعِ . . فحيَّهلا بذي النون.

وكان رجلاً نحيفاً تعلوهُ حُمرة، ليس بأبيضَ اللِّحية.

قال ذو النون: مدار الكلام على أربع: حبُّ الجليل، وبغضُ القليل[٣]، واتِّباعُ التنزيل، وخوفُ التحويل.

وقال رحمه الله تعالى: من علامات المحبِّ لله عزَّ وجلّ: متابعة حبيب الله ﷺ في أخلاقِهِ وأفعالِهِ وأوامرِهِ وسننِهِ.

وقال رحمه الله تعالى: لا تسكنُ الحكمةُ[٤] معدةً مُلئت طعاماً.

وسُئل ذو النون عن التوبة، فقال: توبة العوام تكون من الذنوب، وتوبة الخواص تكون من الغفلة.

---

(١) النوبة: بالضم ثم السكون، وباء موحدة وهي بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر وهم أهل شدة في العيش، أول بلادهم بعد أسوان، واسم مدينة النوبة دمقلة، وطول بلدهم مع النيل ثمانون ليلة، وبلدهم أشبه شيء باليمن، انظر ((مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع)) (٣/ ١٣٩٤).

(٢) أي: اتهموه بالزندقة.

(٣) لا يطمع حتى بالقليل.

(٤) أي: أسرار الحقيقة.

ومنهم: أبو عليٍّ الفضيلُ بنُ عياضٍ

خُراساني من ناحية مرو، وقيل: إنه وُلد بسمرقند ونشأ بأَبِيْوَرْدَ، مات بمكة في المُحرَّم سنة سبع وثمانين ومائة.

كان الفضيل شاطراً[1]؛ يقطع الطريق بين أَبِيْوَرْدَ وسرْخَس.

وكان سببُ توبته: أنه عشِق جاريةً، فبينما هو يرتقي الجدران إليها .. سمِعَ تالياً يتلو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحَديد: ١٦]، فقال: يا ربِّ قد آن، فرجع، فآواه الليل إلى خِرْبة، فإذا فيها رُفقة، فقال بعضهم: نرتحل، وقال قوم: حتى نصبحَ؛ فإن فضيلاً على الطريقِ يقطعُ علينا، فتابَ الفضيلُ وأمَّنَهم.

وجاور الحرم حتى مات.

وقال الفضيل: لو حلفْتُ أنِّي مُراءٍ .. أحبُّ إليَّ مِن أن أحلف أنِّي لستُ بمراءٍ.

وقال رحمه الله تعالى: تركُ العمل لأجل الناس هو الرياء، والعمل لأجل الناس هو الشِّرْك.

وقال أبو علي الرازي: صحبتُ الفضيلَ ثلاثين سنةً ما رأيته ضاحكاً ولا متبسماً إلا يوم مات ابنُه علي، فقلت له في ذلك، فقال: إنَّ الله أحبَّ أمراً، فأحببتُ ذلك.

ومنهم: أبو مَحفُوظٍ معروفٌ بنُ فيروزٍ الكَرخيُّ

كان من المشايخ الكبار، مُجابَ الدعوةِ، يُستَشْفى بِقبرِهِ[2]، ماتَ سنةَ

(١) الشطارة: الخباثة والدهاء.

(٢) أي: إن الناس يدعون الله عند قبره فتحصل الإجابة.

مائتين، وقيلَ: سنة إحدى ومائتين.

وكان أستاذَ السّرِيِّ السَّقطيِّ، وقد قال له يوماً: إذا كانت لك حاجة إلى الله . . فأقسِمْ عليه بي.

سمعت الأستاذَ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمَه اللهُ تعالى يقولُ: كان معروفٌ الكرخيُّ أبواه نصرانيان، فسلَّموا معروفاً إلى مؤدِّبِهم، وهو صبيٌّ، فكانَ المؤدِّبُ يقولُ لهُ: قل ثالثُ ثلاثةٍ، فيقولُ: بل هو واحدٌ، فضربَهُ المعلِّم يوماً ضرباً مبرِّحاً، فهربَ معروفٌ، فكانَ أبواهُ يقولانِ: ليتَهُ يرجعُ إلينا على أيِّ دينٍ يشاءُ، فنوافِقُهُ عليه، ثمَّ إنَّه أسلم على يدي علي بن موسى الرضا، ورجع إلى منزلِهِ، ودقَّ البابَ، فقيل: مَن بالبابِ؟ فقالَ: معروفٌ، فقالوا: على أيِّ دينٍ جئتَ؟ فقال: على الدِّين الحنيفيِّ، فأسلمَ أبواهُ.

قال سَرِيٌّ السَّقطي: رأيتُ معروفاً الكرخي في النوم كأنه تحتَ العرش، فيقولُ الله عزَّ وجلّ لملائكته: من هذا؟ فيقولون: أنت أعلم يا رب، فيقول: هذا معروفٌ الكرخي سَكِرَ من حُبِّي، فلا يَفيق إلا بلقائي.

وقال معروف: قال لي بعض أصحاب داود الطائي: إياك أن تترك العمل؛ فإن ذلك الذي يقرِّبك إلى رضا مولاك، فقلت: وما ذلك العمل؟ فقال: دوام طاعة ربك، وخدمة المسلمين، والنصيحة لهم.

وقيل لمعروف في مرض موته: أوْصِ، فقال: إذا مِتُّ . . فتصدَّقوا بقميصي؛ فإني أريد أن أخرج من الدنيا عُرياناً كما دخلتها عُرياناً.

ومرَّ معروف بسَقَّاء يقول: رحم الله مَنْ يشرب، وكان صائماً، فتقدمَ فشرب، فقيل له: ألم تكن صائماً؟ فقال: بلى، ولكنِّي رجوتُ دعاءَه.

ومنهم: أبو الحسنِ سَرِيُّ بنُ المُغَلِّسِ السَّقَطيُّ

خال الجنيد وأستاذُه، وكان تلميذَ معروف الكرخي، كان أوحدَ زمانه في الورع وأحوال السُنَّة وعلوم التوحيد.

كان السريُّ السقطي يتَّجِر في السوق - وهو من أصحاب معروف الكرخي - فجاءه معروف يوماً ومعه صبي يتيم، فقال: اُكْسُ هذا اليتيم، قال سري: فكسوته، ففرح به معروف، وقال: بَغَّضَ الله إليك الدنيا، وأَراحك مما أَنت فيه، فقمْتُ من الحانوت وليس شيء أبغضَ إليَّ مِنَ الدنيا، وكُلُّ ما أنا فيه من بركاتِ معروف.

قال الجنيد: ما رأيت أعبدَ من السري، أتت عليه ثمانٍ وتسعون سنة ما رُئي مضطجعاً إلا في علَّة الموت.

ويحكى عن السري أنه قال: التصوُّف اسم لثلاث معان: وهو الذي لا يُطفِئُ نورُ معرفته نورَ ورعِهِ، ولا يتكلَّم بباطنٍ في علمٍ يَنقُضه عليه ظاهرُ الكتاب أو السنَّة، ولا تحمله الكراماتُ على هتْكِ أستارِ محارِمِ الله.

مات السريُّ سنة سبع وخمسين ومئتين.

ويُحكى عن السريِّ أنه قال: منذ ثلاثين سنة أنا في الاستغفار من قولي: الحمد لله مرَّةً، قيل: وكيف ذلك؟ فقال: وقع ببغدادَ حريق، فاستقبَلَني رجل، فقال لي: نجا حانوتُك، فقلت: الحمد لله، فمنذ ثلاثين سنة أنا نادم على ما قُلْت، حيث أردْتُ لنفسي خيراً مما حصل للمسلمين.

قال السريُّ: اللهم . . مهما عذبتَني بشيء فلا تعذِّبْني بذُلِّ الحجاب.

ومنهم: أبو نَصْرٍ بِشْرُ بنُ الحارثِ الحافيُّ

أصله من مَرْو وسكن بغداد، ومات بها سنة سبع وعشرين ومائتين، وكان كبير الشأن.

وكان سببُ توبته: أنه أصاب في الطريق كاغدةً مكتوباً فيها اسمُ اللهِ عزَّ وجلّ قد وطِئَتْها الأقدام، فأخذها، واشترى بدرهم كان معه غالية[1]، فطيَّب بها الكاغدة، وجعلها في شق حائط، فرأى في المنام كأنَّ قائلاً يقول له: يا بِشْر، طيَّبْتَ اسمي، لأُطيِّبَنَّ اسمَك في الدنيا والآخرة.

قال بشرٌ: رأيت النبي ﷺ في المنام، فقال لي: يا بشر، أتدري لِمَ رفعك الله مِن بين أقرانك؟ قلت: لا يا رسول الله، قال: باتِّباعِك لسُنَّتي، وخِدمتِك للصالحين، ونصيحتِك لإخوانِك، ومحبتِك لأصحابي وأهلِ بيتي، وهو الذي بلَّغَك منازلَ الأبرار.

وقيل: إنه اشتهى الباقِلَّاءَ سنين، فلم يأكلْه، فرئي في المنام بعد وفاته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، وقال: كُلْ يا مَن لَم يأكل، واشرب يا مَن لم يشرب.

وقال بشر: لا يجدُ حلاوةَ الآخرة رَجُل يُحِبُّ أنْ يعرفَهُ الناس.

ومنهم: أبو عَبْدِ اللهِ الحارثُ بنُ أسدٍ المحاسِبيُّ

عديم النظير في زمانِه علماً وورعاً ومعاملةً وحالاً، بَصْريُّ الأصل، مات ببغداد سنة ثلاث وأربعين ومائتين.

قيل: إنه ورث من أبيه سبعينَ ألفَ درهم، فلم يأخذ منها شيئاً، قيل: لأن أباه كان يقول بالقَدَر، فرأى من الورع ألَّا يأخذ من ميراثِه شيئاً، وقال:

---

(١) هو نوع من الطيب.

صحَّت الرواية عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يتوارَثُ أهل مِلَّتين شيئاً**»[١].

كان الحارث المحاسبي إذا مدَّ يده إلى طعام فيه شُبهة . . تحرَّك على إصْبُعِهِ عِرْق، فكان يمتنع منه.

قال الحارث رحمه الله تعالى: من صحَّح باطنَه بالمراقبة والإخلاص . . زَيَّن الله ظاهرَه بالمجاهدة واتِّباع السُّنَّة.

ومنهم: أبو سليمانَ داودُ بنُ نُصيرٍ الطائيُّ

كان كبيرَ الشأن، ورث داود الطائي عشرين ديناراً، فأكلها في عشرين سنة.

وقيل: كان سببُ زُهده: أنه كان يجالِسُ أبا حنيفةَ رضي الله عنه، فقال له أبو حنيفةَ يوماً: يا أبا سليمان أمَّا الأداة . . فقد أحكمناها، فقال له داود: فأيُّ شيء بقي؟ فقال: العمل به، قال داود: فنازعتني نفسي إلى العُزلة، فقلت لنفسي: حتى تجالِسَهم ولا تتكلمَ في مسألة، قال: فجالستُهم سَنَةً لا أتكلَّم في مسألة، وكانت المسألةُ تمُرُّ بي وأنا إلى الكلام فيها أشدُّ نزاعاً من العطشان إلى الماء البارد، ولا أتكلَّم به، ثم صار أمره إلى ما صار.

وقيل: حجَم جنيدٌ الحجامُ داودَ الطائي، فأعطاه ديناراً، فقيل له: هذا إسراف، فقال: لا عبادةَ لمن لا مروءةَ له.

قالت دايةُ[٢] داود الطائي له: أما تشتهي الخبز؟ فقال: بين مَضْغ الخبز وشُرْب الفتيت قراءةُ خمسين آية.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن أبي خيثمة في ((التاريخ الكبير)) (٣٨٤٢)، والحديث عند أبي داود في ((سننه)) برقم (٢٩١١)، والإمام أحمد في ((مسنده)) برقم (٦٦٦٤) بلفظ: «**لا يتوارث أهل ملتين شتى**» عن سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٢) أي: جارية.

ولما تُوفي داود . . رآه بعض الصالحين في المنام وهو يعْدو، فقيل له: ما لَك؟ فقال: الساعةَ تخلَّصْتُ من السِّجن، فاستيقظ الرجل من منامه، فارتفع الصِّيَاحُ بقول الناس: مات داود الطائي.

ومنهم: أبو عليٍّ شقيقُ بنُ إبراهيمَ البَلْخيُّ

من مشايخ خراسان، له لسان في التوكُّل، وكان أستاذَ حاتم الأصم، وحكي أن حاتماً الأصمَّ قال: كنا مع شقيق في مَصافَّ[١] نحارب التُّرك في يوم لا تَرى فيه إلا رؤوساً تُنْدَر[٢]، ورماحاً تنقَصف، وسيوفاً تنقطع، فقال لي شقيق: كيف ترى نفسَك يا حاتم في هذا اليوم؟ تُراه مثلَ ما كنتَ في الليلة التي زُفَّت إليك امرأتك؟ فقلت: لا والله، قال: لكني - والله - أرى نفسي في هذا اليوم مثلَ ما كنتُ تلك الليلة، ثم نام بين الصفَّين ودُرْقَتُه تحت رأسه حتى سمعْتُ غطيطه.

وقال شقيق: إذا أَردْتَ أن تعرف الرجل . . فانظر إلى ما وعده الله ووعده الناس، فبأيِّهما يكون قلبُه أوثق.

وقال رحمه الله تعالى: تَعرف تقوى الرجل في ثلاثة أشياء: في أخْذِه، ومنعِه، وكلامِه.

ومنهم: أبو يزيدَ طيفورُ بنُ عيسى البِسطاميُّ

كان جدُّه مجوسياً أسلم، وكانوا ثلاثةَ إخوة: آدم وطيفور وعلي، وكلهم كانوا زُهَّاداً عُبَّاداً، وأبو يزيد كان أجلَّهم حالاً.

قيل: مات سنة إحدى وستين ومائتين، وقيل: أربع وثلاثين ومائتين.

---

(١) جمع صف، وهي التي تكون تلقاء وجه العدو في الحرب.

(٢) أي: تسقط.

سُئل أبو يزيد: بأيِّ شيءٍ وجدْتَ هذه المعرفة؟ فقال: ببطنٍ جائع وبدن عارٍ.

وقيل: لم يخرج أبو يزيد من الدنيا حتى استظهر القرآنَ كلَّه.

قال أبو يزيد لأحد إخوانه: قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية، وكان رجلاً مقصوداً مشهوراً بالزهد، فمضينا إليه، فلما خرج من بيته ودخل المسجد . . رمى ببصاقه تُجاه القِبلة، فانصرف أبو يزيد ولم يسلِّمْ عليه، وقال: هذا غيرُ مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ، فكيف يكون مأموناً على ما يدَّعِيه !؟

قال رحمه الله تعالى: لقد هـمَمْتُ أنْ أسأل الله تعالى أن يكفيَني مؤنة الأكل ومؤنة النساء، ثم قلت: كيف يجوز لي أن أسأل الله هذا ولم يسأله رسول الله ﷺ إياه؟ فلَمْ أسأله، ثم إنَّ الله سبحانه وتعالى كفاني مؤنة النساء، حتى لا أُبالي أستقبلتني امرأة أو حائط.

وقال رحمه الله تعالى: لو نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء . . فلا تغترُّوا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة.

ومنهم: أبو محمدٍ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التُّسْتَريُّ

أحد أئمة القوم، لم يكن له في وقته نظيرٌ في المعاملات والورع، وكان صاحب كرامات، لقي ذا النون المصري بمكة سنةَ خروجه إلى الحج، تُوفي - كما قيل - سنة ثلاث وثمانين ومئتين، وقيل: ثلاث وسبعين ومئتين.

وقال سهل: كنت ابن ثلاث سنين، وكنت أقوم بالليل أنظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار، وكان يقوم بالليل، فربَّما كان يقول لي: يا سهل . . اذهب فنم؛ فقد شغلتَ قلبي.

يُحكى عن سهل بن عبد الله قال: قال لي خالي يوماً: ألا تذكرُ اللهَ الذي خلقك؟ فقلت: كيف أذكره؟ فقال لي: قل بقلبك عند تقلُّبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرِّك به لسانك: الله معي، الله ناظرٌ إليَّ، الله شاهد عليَّ، فقلت ذلك ثلاث ليال، ثم أعلمتُه، فقال لي: قل في كل ليلة سبع مرات، فقلت ذلك، ثم أعلمته، فقال: قل في كل ليلة إحدى عشرةَ مرَّة، فقلت ذلك، فوقع في قلبي له حلاوة، فلما كان بعد سنة . . قال لي خالي: احفظ ما علَّمتُك، ودُم عليه إلى أن تدخل القبر؛ فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة، فلم أزَلْ على ذلك سنين، فوجدت لها حلاوةً في سِرِّي، ثم قال لي خالي يوماً: يا سهل . . من كان الله معه وهو ناظر إليه وشاهِدُهُ . . أيعصيه؟ إيَّاك والمعصية، فكنت أخلو، فبعثوني إلى الكُتَّاب، فقلت: إني لأخشى أن يتفرق عليَّ همِّي، ولكن شارطوا المعلِّم أنِّي أذهب إليه ساعة فأَتعلَّم، ثم أرجع، فمضيت إلى الكُتَّاب، وحفظتُ القرآن وأنا ابنُ ستِّ سنين أو سبع سنين، وكنت أصوم الدهر، وقُوْتي خبز الشعير، إلى أن بلغت اثنتي عشرة سنة، فوقعَتْ لي مسألة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة، فسألت أهلي أن يبعثوني إلى البصرة أسأل عنها، فجئت البصرة وسألت علماءها، فلم يَشفِ أحد منهم عني شيئاً، فخرجت إلى عبَّادان، إلى رجل يُعرَفُ بأبي حبيب حمزة بن عبد الله العبَّاداني، فسألتُه عنها فأجابني، وأقمْت عنده مدَّةً أنتفِع بكلامه وأتأدب بآدابه، ثم رجعت إلى تُستَر، فجعلتُ قُوْتي اقتصاراً على أن يُشتَرى لي بدرهم من الشعير الفَرَق، فيطحن ويخبز لي، فأفطِرُ عند السحَر كلَّ ليلة على أوقية واحدة بَحْتاً[1] بغير ملح ولا إدام، فكان يكفيني ذلك الدرهم سَنة، ثم عزمْتُ على أن أطويَ ثلاث ليال ثم أفطر ليلة، ثم خمساً، ثم سبعاً، ثم خمساً

(١) أي: خبز بَحْت ليس معه غيره.

وعشرين ليلة، وكنت عليه عشرين سنة، ثم خرجتُ أسيحُ في الأرض سنين، ثم رجعت إلى تُستَر، وكنت أقوم الليلَ كلَّه.

ومنهم: أبو سليمانَ عبدُ الرحمنِ بنُ عطيةَ الدَّاراني

وداران: قرية من قرى دمشق، مات سنة خمس عشرة ومائتين.

قال أبو سليمان: مَن أحسن في نهاره . . كُوفئ في ليله، ومن أحسن في ليله . . كُوفئ في نهاره، ومن صدق في ترك شهوة . . ذهب الله بها من قلبه، والله تعالى أكرم من أن يعذِّب قلباً بشهوةٍ تُركت له.

وقال رحمه الله تعالى: إذا سكنت الدنيا القلبَ . . ترحَّلَت منه الآخرة.

وقال رحمه الله تعالى: ربما يقع في قلبي النُّكتة[١] من نكَت القوم أياماً، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنَّة.

وقال رحمه الله تعالى: أفضل الأعمال: خلاف هوى النفس.

وقال رحمه الله تعالى: لكلِّ شيء عَلَم[٢]، وعَلَمُ الخُذلان ترك البكاء.

وقال رحمه الله تعالى: نمتُ عن وِرْدي، فإذا أنا بحوراءَ تقول لي: تنام وأنا أُرَبَّى لك في الخدور منذ خمسمائة عام !؟.

ومنهم: أبو عبدِ الرحمنِ حاتمُ بنُ علوانَ الأصمُّ

يقال: حاتم بن يوسف الأصم، من أكابر مشايخ خراسان، وكان تلميذ شقيق، وأستاذ أحمد بن خضرويه.

قيل: لم يكن أصمَّ، وإنما تصامَم مرَّة فسُمِّي به، سمعت الأستاذ أبا عليٍّ الدَّقَّاق رحمه الله تعالى يقول: جاءت امرأة فسألت حاتماً عن مسألة، فاتفق

(١) أي: الحكمة.

(٢) أي: علامة.

أنه خرج منها في تلك الحالة صوت، فخجلت، فقال حاتم: ارفعي صوتك، فأَرى من نفسه أنه أصمُّ، فسُرَّت المرأة بذلك، وقالت: إنه لم يسمع الصوت، فغَلب عليه اسم الصمم.

قيل له: ألا تشتهي؟ فقال: أشتهي عافية يوم إلى الليل، فقيل له: أليست الأيام كلُّها عافية؟ فقال: إن عافية يومي ألَّا أعصي الله فيه.

وحكي عن حاتم الأصمِّ أنه قال: كنت في بعض الغزَوات، فأخذني شخص، فأضجعني للذبح، فلم يشتغل به قلبي، بل كنت أنظر ماذا يحكم الله تعالى فيَّ، فبينما هو يطلب السكين من خُفِّه . . أصابه سهمُ غَرْبٍ، فقتله وطرحه عني، فقمت.

ومنهم: أبو زكريَّا يحيى بنُ معاذٍ الرازيُّ الواعظُ

نسيجُ وحدِه في وقته، له لسان في الرجاء خصوصاً، وكلام في المعرفة، خرج إلى بَلْخ، وأَقام بها مدَّة، ورجع إلى نيسابور ومات بها سنة ثمان وخمسين ومئتين.

قال يحيى بن معاذ: كيف يكون زاهداً مَن لا ورع له؟! تورَّعْ عما ليس لك، ثم ازهدْ فيما لك.

وقال رحمه الله تعالى: جوع التوَّابين تَجربة[١]، وجوع الزاهدين سياسة[٢]، وجوع الصِّدِّيقين تكرِمة[٣].

وقال أبو زكريا: الفوت أشد من الموت؛ لأن الفوت انقطاع عن الحق، والموت انقطاع عن الخلق.

---

(١) أي: ليظهر حاله في التوبة.

(٢) أي: ليروِّض نفسه على الطاعة.

(٣) أي: ليرفع مقامهم.

وقال يحيى: الزهد ثلاثة أشياء: القِلَّة، والخلوة، والجوع.

وقال أبو زكريا: مَن خان الله في السِّرِّ . . هتك الله سترَه في العلانية.

ومنهم: أبو حامدٍ أحمدُ بنُ خَضْرَوَيه البلْخيُّ

مِن كبار مشايخ خراسان، صحب أبا تراب النخْشبي، قدم نيسابور، وزار أبا حفص، وخرج إلى بِسطام في زيارة أبي يزيد البِسطامي، وكان كبيراً في الفُتوّة، وقال أبو حفص: ما رأيت أحداً أكبرَ همَّةً ولا أصدق حالاً من أحمد بن خضرويه.

قال محمد بن حامد: كنت جالساً عند أحمد بن خضرويه، وهو في النزْع، وكان قد أتى عليه خمس وتسعون سنة، فسأله بعضُ أصحابه عن مسألة، فدمعت عيناه، وقال: يا بُني، بابٌ كنت أدُقُّه منذ خمس وتسعين سنة، وهو ذا يُفتح لي الساعة، لا أدري أبالسعادة يُفتح أم بالشقاوة، أنَّى لي أوانُ الجواب؟ قال: وكان عليه سبعمائة دينار، وغرماؤُه عنده، فنظر إليهم، وقال: اللهم . . إنك جعلت الرهون وثيقةً لأرباب الأموال، وأنت تأخذ عنهم وثيقَتَهم، فأدِّ عني، قال: فدقَّ داقُّ الباب وقال: أين غرماء أحمد؟ فقضى عنه، ثم خرجت روحُه، ومات - رحمه الله تعالى - سنة أربعين ومائتين.

قال أحمد بن خضرويه: لا نومَ أثقل من الغفلة، ولا رِق أملَك من الشهوة، ولولا ثِقَلُ الغفلة عليك . . لما ظَفِرت بك الشهوة.

ومنهم: أبو الحسينِ أحمدُ بنُ أبي الحواريِّ

من أهل دمشق، صحِب أبا سليمان الدَّاراني وغيره، مات سنة ثلاثين ومائتين، كان الجنيد يقول: أحمد بن أبي الحواري ريحانة الشام.

قال أحمد بن أبي الحواري: مَن نظر إلى الدنيا نظرة إرادة وحبٍّ لها . . أخرج الله نورَ اليقين والزهد من قلبه.

وقال رحمه الله تعالى: مَن عمل عملاً بلا اتباع سنَّة رسول الله ﷺ . . فباطل عمله.

وقال رحمه الله تعالى: أفضل البكاء: بكاءُ العبد على ما فاته من أوقاته على غير الموافَقة[١].

ومنهم: أبو حفصٍ عمرُ بنُ مَسْلمةَ الحدادُ

من قرية يقال لها: كورداباذ على باب مدينة نيسابور على طريق بخارى، كان أحد الأئمة والسادة، مات سنة نيِّف وستين ومائتين.

قال أبو حفص: المعاصي بَريد الكفر، كما أن الحُمَّى بريد الموت.

وقال رحمه الله تعالى: إذا رأيت المريد يحب السماع . . فاعلم أن فيه بقيةً من البَطالة.

وقال رحمه الله تعالى: حُسن أدب الظاهر عُنوان حسن أدب الباطن.

وقال رحمه الله تعالى: الفُتوَّة: أداء الإنصاف وترك مطالبة الإنصاف.

ومنهم: أبو ترابٍ عسكرُ بنُ حصينٍ النخْشبيُّ

صحِبَ حاتماً الأصمَّ، وأبا حاتم العطار المصري، مات سنة خمس وأربعين ومئتين.

قال ابن الجلاء: صحبت ستمائة شيخ، ما لقِيت فيهم مثلَ أربعة، أوَّلُهُم: أبو تراب النخْشبي.

---

(١) أي: على غير ما جاءت به السنَّة.

قال أبو تراب: الفقير قُوتُه ما وجَده، ولباسه ما ستره، ومسكنه حيث نزل.

وقال رحمه الله تعالى: إذا صدق العبد في العمل . . وجد حلاوتَه قبل أن يعمله، فإذا أخلص فيه . . وجد حلاوته ولذَّتَه وقت مباشرة الفعل.

وقال لأصحابه: من لبس منكم مُرَقَّعة[١] وهو يملك غيرها . . فقد سأل[٢]، ومن قعد في خانقاه[٣] أو مسجد . . فقد سأل، ومن قرأ القرآن من مصحف أو كيما يُسمِعَ الناسَ . . فقد سأل.

قال أبو تراب النخشبي: ما تمنَّت نفسي عليَّ شيئاً قَطُّ إلا مرة واحدة، تمنَّت عليَّ خبزاً وبيضاً، وأنا في سفري، فعدَلْت عن الطريق إلى قرية، فوثب رجل وتعلَّق بي، وقال: كان هذا مع اللصوص، فبطحوني وضربوني سبعين خشبةً، قال: فوقف علينا رجل صوفي، فصرخ، وقال: وَيْحَكُم، هذا أبو تراب النخشبي، فخلَّوني واعتذروا إليَّ، وأدخلني الرجل منزلَه، وقدَّم إليَّ خبزاً وبيضاً، فقلت: كُلْها بعد سبعين جلدة.

ومنهم: أبو محمدٍ عبدُ اللهِ بنُ خُبَيقٍ

من زُهَّاد المتصوِّفة، صحِب يوسف بن أسْباط، كان كوفيَّ الأصل، ولكنه سكن أَنطاكية.

قال فتح بن شَخْرَف: حدثني عبد الله بن خبيق أوَّلَ ما لقيته، فقال لي: يا خراساني . . إنما هي أربع لا غير: عينُك ولسانُك وقلبُك وهواك، فانظر عينَك: لا تنظر بها إلى ما لا يَحِل، وانظر لسانك: لا تقُل به شيئاً

(١) أي: ثياباً بالية.

(٢) أي: طلب من الناس أن يعطوه.

(٣) أي: رباط الصوفية.

يعلم الله تعالى خلافَه من قلبك، وانظر قلبك: لا يكن فيه غِلٌّ ولا حقد على أحد من المسلمين، وانظر هواك: لا تهوى به شيئاً من الشرِّ، فإذا لم يكن فيك هذه الأربع من الخصال . . فاجعل الرماد على رأسك؛ فقد شَقِيت.

وقال ابن خبيق: لا تَغتَمَّ إلا من شيء يضرُّك غداً، ولا تفرح إلا بشيء يسرُّك غداً.

وقال رحمه الله تعالى: أنفع الخوف: ما حَجزَك عن المعاصي، وأطال منك الحزن على ما فاتك، وألزمك الفكرة في بقية عمرك، وأنفع الرجاء: ما سهَّلَ عليك العمل.

وقال رحمه الله تعالى: طُول الاستماع إلى الباطل يُطفِئ حلاوة الطاعة من القلب.

ومنهم: أبو عليٍّ أحمدُ بنُ عاصمٍ الأنطاكيُّ

من أقران بشر بن الحارث والسريِّ السقطي والحارث المحاسبيِّ، وكان أبو سليمان الدَّاراني يسمِّيه: جاسوس القلب؛ لحِدَّة فِراسته.

قال أحمد بن عاصم: إذا طلبتَ صلاح قلبك . . فاستعِن عليه بحفظ لسانك.

وقال رحمه الله تعالى: قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التغَابُن: ١٥]، ونحن نستزيدُ من الفتنة.

ومنهم: أبو السِّرِيِّ منصورُ بنُ عمارٍ

من أهل مرو، وقيل: إنه من بوشَنج، أقام بالبصرة، وكان من الواعظين الأكابر.

قال منصور بن عمار: مَن جَزِع من مصائب الدنيا . . تَحوَّلت مصيبته في دينه.

وقال رحمه الله تعالى: أحسنُ لباس العبد: التواضع والانكسار، وأحسن لباس العارفين: التقوى؛ قال الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

ومنهم: أبو صالحٍ حمدونُ بنُ أحمدَ بنِ عُمارةَ القصارُ

نيسابوري، صحب سلمان الباروسي وأبا تراب النخْشبي، مات سنة إحدى وسبعين ومئتين.

سُئل حمدون: متى يجوز للرجل أن يتكلَّم على الناس؟ فقال: إن تعيَّن عليه أداءُ فرض من فرائض الله تعالى في علمه، أو خاف هلاك إنسان في بدعة، وهو يرجو أن ينجيَه الله تعالى منها.

وقال رحمه الله تعالى: مَن ظنَّ أن نفسَه خير من نفس فرعون . . فقد أظهر الكبر[1].

وقال عبد الله بن مُنازِل: قلت لأبي صالح: أوصني، فقال: إن استطعت ألَّا تغضب لشيء من الدنيا . . فافعل.

ومات صديقٌ له، وهو عند رأسه، فلما مات . . أطفأ حمدون السِّراج، فقالوا له: في مثل هذا الوقت يُزاد في السراج الدُّهْن، فقال لهم: إلى هذا الوقت كان الدُّهْن له، ومِن هذا الوقت صار الدهن للورثة.

وقال حمدون: مَن نظر في سِيَر السلف . . عرَف تقصيره وتخلُّفَه عن دَرْك درجات الرجال.

وقال رحمه الله تعالى: لا تُفْشِ على أحد ما تحبُّ أن يكون مستوراً منك.

---

(١) لأنَّه لا يدري بما يُختم له، أما الحكم في الحال بأن المؤمن خير من الكافر . . فحقٌّ لا كِبْر فيه.

ومنهم: أبو القاسمِ الجنيدُ بنُ محمدٍ

سيد هذه الطائفة وإمامُهم، أصله من نهاوند، ومنشؤه ومولده بالعراق، وأبوه كان يبيع الزجاج، فلذلك يقال له: القواريري، وكان فقيهاً على مذهب أبي ثور، وكان يفتي في حلْقَته بحضرته وهو ابن عشرين سنة، صحب خالَه السَّرِيَّ والحارث المحاسبي ومحمد بن علي القصاب، مات سنة سبع وتسعين ومائتين.

سُئل الجنيد: مَن العارف؟ قال: مَن نَطَق عن سِرِّك وأنت ساكت.

وقال رحمه الله تعالى: ما أخذنا التصوفَ عن القيل والقال، لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسَنات.

وقال الجنيد لرجل ذَكَر المعرفة وقال: أهل المعرفة بالله يصِلون إلى ترك الحركات[1] من باب البِر والتقرب إلى الله عزَّ وجلّ، فقال الجنيد: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهو عندي عظيمة، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً مِن الذي يقول هذا، فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعالى، وإليه رجَعوا فيها، ولو بقيتُ ألف عام . . لم أُنقِص من أعمال البرِّ ذرَّة إلا أن يُحال بي دونَها.

وقال رحمه الله تعالى: الطُّرُق كلُّها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثرَ الرسول ﷺ.

وقال رحمه الله تعالى: مَن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث . . لا يُقتدى به في هذا الأمر؛ لأن علمَنا هذا مُقَيَّدٌ بالكتاب والسُّنَّة.

رُئي في يده سُبحة، فقيل له: أنت مع شرفِك تأخذ بيدك سُبحة؟! فقال: طريقٌ به وصلت إلى ربي، لا أفارقُه.

---

(١) أعمال الطاعات.

كان الجنيد يدخل كلَّ يوم حانوتَه، ويُسبل السِّتْر، ويصلي أربعمئة ركعة، ثم يعود إلى بيته.

وقال أبو بكر العَطَوي: كنت عند الجنيد حين مات، فرأيته خَتَم القرآن، ثم ابتدأ من البقرة وقرأ سبعين آية، ثم مات رحمه الله تعالى.

ومنهم: أبو عثمانَ سعيدُ بنُ إسماعيلَ الحِيريُّ

المقيم بنيسابور، وكان من الرِّيِّ، صحب شاه الكرماني ويحيى بن معاذ الرازي، ثم ورد نيسابور مع شاه الكرماني على أبي حفص الحداد، وأقام عنده، قرأ على أبي حفص وتخرَّج به، وزوَّجَه أبو حفص ابنته، مات سنة ثمان وتسعين ومائتين، وعاش بعد أبي حفص نيفاً وثلاثين سنة.

قال أبو عثمان: لا يَكْمُل إيمان الرجل حتى يستوي في قلبه أربعة أشياء: المنع، والإعطاء، والعزُّ، والذلُّ.

ولما تغيَّرَ على أبي عثمان الحال[1] . . مزَّقَ ابنُه أبو بكر قميصاً على نفسه، ففتح أبو عثمان عينيه، وقال: خلاف السُّنَّة يا بُني في الظاهر علامة رياء في الباطن.

وقال أبو عثمان: الصحبة مع الله بحُسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة، والصحبة مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم باتِّباع سُنَّته ولزوم ظاهر العلم، والصحبة مع أولياء الله تعالى بالاحترام والخدمة، والصحبة مع الأهل بحسن الخلق، والصحبة مع الإخوان بدوام البِشر ما لم يكن إثماً، والصحبة مع الجُهَّال بالدُّعاء لهم والرحمة عليهم.

وقال رحمه الله تعالى: مَن أمَّر السُّنَّة على نفسه قولاً وفعلاً . . نَطق

(١) حين غشي عليه في مرض موته.

بالحكمة، ومَن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً . . نطق بالبدعة، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النُّور: ٥٤].

ومنهم: أبو الحسينِ أحمدُ بنُ محمدٍ النُّوريُّ

بغدادي المولد والمنشأ، بَغَوي الأصل، صحِب السريَّ السقطي وابن أبي الحواري، وكان من أقران الجنيد رحمه الله تعالى، مات سنة خمس وتسعين ومائتين، وكان كبير الشأن حسن المعاملة واللسان.

قال النوري رحمه الله تعالى: التصوُّف: ترك كلِّ حظ للنفس.

وقال رحمه الله تعالى: أعزُّ الأشياء في زماننا شيئان: عالم يعمل بعلمه، وعارف ينطق عن حقيقة.

وكان يقول: مَن رأيتَه يدَّعي مع الله حالة تُخرِجه عن حدِّ العلم الشرعي . . فلا تقْربنَّ منه.

قال الجنيد: منذ مات النوري لم يخْبِر عن حقيقة الصِّدق أحد.

وقال أبو أحمد المغازلي: ما رأيت أعبَدَ مِن النوري، قيل: ولا الجنيد؟ قال: ولا الجنيد.

وقال النوري: كانت المراقع غطاءً على الدُّرِّ، فصارت اليوم مزابلَ على جيف.

وقيل: كان يخرج كلَّ يوم من داره، ويحمل الخبز معه، ثم يتصدَّق به في الطريق، ويدخل مسجداً يصلي فيه إلى قريب من الظهر، ثم يخرج منه ويفتح بابَ حانوته ويصوم، فكان أهله يتوهَّمون أنه يأكل في السوق، وأهل السوق يتوهَّمون أنه يأكل في بيته، وبقي على هذا في ابتدائه عشرين سنة.

ومنهم: أبو عبدِ اللهِ أحمدُ بنُ يحيى الجَلَّاءُ

بغدادي الأصل، أقام بالرَّملة ودمشق، من أكابر مشايخ الشام، صحب أبا تراب وذا النون وأبا عبيد البُسري وأباه يحيى الجلَّاء.

قال ابن الجَلَّاء: قلت لأبي وأمي: أحبُّ أن تَهَباني لله عزَّ وجلّ، فقالا: قد وهبناك لله عزَّ وجلّ، فغبت عنهما مدَّة، فلما رجعت .. كانت ليلة مَطيرة، فدققت الباب، فقال لي أبي: من ذا؟ قلت: ولدك أحمد، فقال: كان لنا ولد، فوهبناه لله تعالى، ونحن من العرب لا نسترجع ما وهبناه، ولم يَفتح لي الباب.

وقال رحمه الله تعالى: مَن استوى عنده المدح والذم .. فهو زاهد، ومَن حافظ على الفرائض في أول مواقيتها .. فهو عابد، ومَن رأى الأفعال كلَّها من الله .. فهو مُوحِّد لا يرى إلا واحداً.

ولما مات ابن الجلَّاء .. نظروا إليه، وهو يضحك، فقال الطبيب: إنه حي، ثم نظر إلى مَجَسَّته، فقال: إنه ميت، ثم كشف عن وجهه، فقال: لا أدري أهو ميت أم حي.

ومنهم: أبو محمدٍ رُوَيمُ بنُ أحمدَ

بغدادي، مِن أجِلَّة المشايخ، مات سنة ثلاثٍ وثلاثمائة، وكان مقرئاً وفقيهاً على مذهب داود الظاهري.

قال رويم: مِن حِكَم الحكيم: أن يوسِّع على إخوانه في الأحكام، ويضيِّق على نفسه فيها؛ فإن التوسعة عليهم اتباع العلم، والتضييق على نفسه من حِكَم الورع.

قال أبو عبد الله بن خَفيف: سألتُ رويماً، فقلت: أوصني، فقال: ما هذا

الأمر إلا ببذل الروح[١]، فإن أمكنك الدخولُ فيه مع هذا، وإلا . . فلا تشتغل بتُرَّهات الصوفية.

وقال رويم: قُعودُك مع كل طبقة من الناس أسلم من قعودك مع الصوفية؛ فإن كلَّ الخَلق قعدوا على الرسوم، وقعدت هذه الطائفة على الحقائق، وطالبَ الخلقُ كلُّهم أنفسَهُم بظواهر الشرع، وطالبَ هؤلاء أنفسَهم بحقيقةِ الورعِ ومداومةِ الصدقِ، فمَن قعد معهم وخالفَهم في شيء مما يتحققون به . . نزع الله نورَ الإيمان من قلبه.

وقال رحمه الله تعالى: إذا رزقَك الله المقال والفِعال[٢]، فأخذ منك المقال وأبقى عليك الفِعال . . فإنها نعمة، وإذا أخذ منك الفِعال وأبقى عليك المقال . . فإنها مصيبة، وإذا أخذ منك كليهما . . فهي نِقمة وعقوبة.

ومنهم: أبو عبدِ اللّٰهِ محمدُ بنُ الفضلِ البلْخيُّ

ساكنُ سمرقند، بلخيُّ الأصل، أُخرج منها، فدخل سمرقند، ومات بها، وصحِب أحمد بن خَضْرويه وغيرَه، وكان أبو عثمان الحيري يميل إليه جداً، مات سنة تسع عشرة وثلاثمائة.

كتب أبو عثمان الحيري إلى محمد بن الفضل يسأله: ما علامة الشقاوة؟ فقال: ثلاثة أشياء: يُرزَق العلم ويُحرَم العمل، ويُرزَق العمل ويُحرَم الإخلاص، ويُرزَق صحبة الصالحين ولا يَحترم لهم.

قال محمد بن الفضل: ذهاب الإسلام من أربعة: لا يعملون بما يعلمون، ويعملون بما لا يعلمون، ولا يتعلمون مالا يعلمون، ويمنعون الناس من التعلم.

---

(١) أي: بذل الجهد في الطاعات، والإعراض عن المحرمات.

(٢) يقصد بالمقال: العلم، وبالفعال: العمل.

وقال رحمه الله تعالى: العَجَب ممن يقطع المفاوز ليصل إلى بيته[١]، فيرى آثارَ النبوة، كيف لا يقطع نفسَه وهواه ليصل إلى قلبه، فيرى آثار ربِّه عزَّ وجلّ؟

وقال رحمه الله تعالى: إذا رأيت المريد يستزيد من الدنيا . . فذلك من علامات إدباره.

ومنهم: أبو بكرٍ أحمدُ بنُ نصرٍ الزَّقاقُ الكبيرُ

كان من أقران الجنيد، من أكابر مصر.

قال الزقاق: مَن لم يصحبه التُّقى في فَقره . . أكل الحرام المحض.

ومنهم: أبو عبدِ اللهِ عمرُو بنُ عثمانَ المكِّيُّ

لقي أبا عبد الله النِّباجي، وصحب أبا سعيد الخرَّاز وغيره، شيخ القوم، وإمام الطائفة في الأصول والطريقة، مات ببغداد سنة إحدى وتسعين ومائتين.

قال عمرو بن عثمان المكي: كل ما توهَّمه قلبك، أو رسَخ في مجاري فكرتِك، أو خَطَر في معارضات قلبك من حُسْن أو بهاء أو أُنس أو جمال أو ضياء أو شبح أو نور أو شخص أو خيال . . فالله تعالى بعيد من ذلك، ألا تسمع إلى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقال: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٣-٤].

وقال رحمه الله تعالى: العلم قائد، والخوف سائق، والنفس حَرون بين ذلك، جَموح، خدَّاعة، روَّاغة[٢]، فاحذرها بسياسة العلم، وسُقْها بتهديد

(١) أي: بيتِ الله عزَّ وجلّ.

(٢) في نسخة: مراوغة.

الخوف، يَتِمُّ لك ما تريد.

ومنهم: أبو الحسنِ سمنونُ بنُ حمزةَ

ويقال: أبو القاسم، صحب السري وأبا أحمد القلانسي ومحمد بن علي القصَّار وغيرهم.

قيل إنه أنشد:

ولـيـس لـي فـي سـواك حـظ فكـيـفـمـا شـئـت فـاخـتـبـرنـي

فأخذه الأُسْرُ[1] من ساعته، فكان يدور على المكاتب، ويقول: ادعوا لعمِّكم الكذَّاب.

وقيل: إنه أنشد هذه الأبيات، فقال بعض أصحابه لبعض: سمعت البارحة - وكنت في الرُّسْتاق - صوت أستاذنا سمنون يدعو الله ويتضَرَّع إليه، ويسأله الشفاء، فقال آخر: وأنا أيضاً كنت سمعت هذا البارحة، وكنت بالموضع الفلاني، فقال ثالث ورابع مثل هذا، فأُخبر سمنون، وكان قد امتُحن بعلَّة الأُسْر، وكان يصبر ولا يجزع، فلما سمعهم يقولون هذا، ولم يكن هو دعا ولا نَطق بشيء من ذلك . . علم أن المقصود منه إظهار الجزع تأدُّباً بالعبودية وسَتراً لحاله، فأخذ يطوف على المكاتب ويقول: ادعوا لعمِّكم الكذَّاب.

وكان سمنون ظريف الخُلق، أكثر كلامه في المحبَّة، وكان كبير الشأن، مات قبل الجنيد كما قيل.

---

(١) وهو احتباس البول.

ومنهم: أبو عُبيدٍ البُسْرِيُّ

من قدماء المشايخ، صحِب أبا تراب النخشَبي، قال ابن الجلَّاء: لقيت ستمائة شيخ، فما رأيت مثل أربعة: ذي النون المصري، وأبي[١]، وأبي تراب، وأبي عبيد البُسْري.

يقول أبو زُرعة الحسني: كان أبو عبيد البُسْري يوماً على جرجر[٢] يَدرُس قمحاً له، وبينه وبين الحج ثلاثة أيام، إذ أتاه رجلان، فقالا: يا أبا عبيد، تَنْشَطُ للحج؟ فقال: لا، ثم التفتَ إليَّ، وقال: شيخُك على هذا[٣] أقدر منهما يعني: نفسه.

ومنهم: أبو الفوارسِ شاهُ بنُ شجاعٍ الكرمانيُّ

كان من أولاد الملوك، صحب أبا تراب النَخْشَبي وأبا عبيد البُسْري وأولئك الطبقة، وكان أحد الفتيان كبير الشأن، مات قبل الثلاثمائة.

قال شاه: علامة التقوى: الورع، وعلامة الورع: الوقوف عند الشبهات.

وكان يقول لأصحابه: اجتنبوا الكذب والخيانة والغيبة، ثم اصنعوا ما بدا لكم.

قال شاه الكرماني: مَن غَضَّ بصره عن المحارم، وأمسك نفسَه عن الشهوات وعمَّر باطنَه بدوام المراقبة وظاهِرَهُ باتِّباع السُّنَّة، وعوَّد نفسَه أكل الحلال . . لم تخطئ له فِراسة.

---

(١) يقصد: يحيى الجلَّاء.

(٢) هي آلة تداس بها أعواد القمح لمحصود ونحوه؛ لفصل الحَبِّ من السنابل.

(٣) أي: على الحج قبل فوات أوانه عن طريق طَيِّ الأرض له.

ومنهم: أبو يعقوبَ يوسفُ بنُ الحسينِ الرازيُّ

شيخ الرِّيِّ والجبال في وقته، وكان نسيجَ وحْدِه في إسقاط التَّصنُّع، وكان عالماً أديباً، صحب ذا النون المصري وأبا تراب النَّخْشبي، ورافق أبا سعيد الخرَّاز، مات سنة أربع وثلاثمائة.

قال يوسف بن الحسين: لَأَنْ ألقى الله تعالى بجميع المعاصي . . أحَبُّ إليَّ من أن ألقاه بذرَّةٍ من التَّصنُّع.

وقال رحمه الله تعالى: إذا رأيت المريد يشتغل بالرُّخَص . . فاعلم أنه لا يجيء منه شيء.

وكتب إلى الجنيد: لا أذاقك الله طعْم نفسِك؛ فإنك إن ذقتَها . . لم تذُق بعدها خيراً أبداً.

وقال رحمه الله تعالى: رأيت آفات الصوفية في صحبة الأحداث ومعاشرة الأضداد ورِفْق النسوان.

ومنهم: أبو عبدِ اللّهِ محمدُ بنُ عليٍّ الترمذيُّ

من كبار الشيوخ، وله تصانيف في علوم القوم، صحب أبا تراب النَّخشبي وأحمد بن خضرويه وابن الجلَّاء وغيرهم.

سئل محمد بن علي عن صفة الخَلْق، فقال: ضعْف ظاهر ودعوى عريضة.

وقال رحمه الله تعالى: ما صنَّفتُ حرفاً عن تدبير، ولا ليُنسَب إليَّ شيء منه، ولكن كان إذا اشتدَّ علَيَّ وقتي أتسلَّى به.

ومنهم: أبو بكرٍ محمدُ بنُ عمرَ الورَّاقُ الترمذيُّ

أقام ببلْخ، صحب أحمد بن خضرويه وغيره، وله تصانيف في الرِّياضات.

قال أبو بكر الورَّاق: مَن أرضى الجوارح بالشهوات . . غَرس في قلبه شجر النَّدامات.

وقال: لو قيل للطمع: مَن أبوك؟ قال: الشَّكُّ في المقدور، ولو قيل: ما حرفتك؟ قال: اكتساب الذُّلِّ، ولو قيل: ما غايتك؟ قال: الحِرمان.

وكان يمنع أصحابه عن الأسفار و السِّياحات، ويقول: مفتاح كلِّ بركة الصبر في موضع إرادتك إلى أن تصحَّ لك الإرادة، فإن صَحَّتْ لك الإرادة . . فقد ظهرت عليك أوائل البركة.

ومنهم: أبو سعيدٍ أحمدُ بنُ عيسى الخرَّازُ

مِن أهل بغداد، صحب ذا النون المصري و النِّباجي وأبا عبيد البُسْري والسَّري وبِشراً وغيرَهم، مات سنة سبع وسبعين ومائتين.

قال أبو سعيد الخرَّاز: كلُّ باطن يخالفُه ظاهر . . فهو باطل.

وقال رحمه الله تعالى: رأيت إبليس في النوم وهو يمرُّ عني ناحية، فقلت له: تعال، ما لك؟ فقال: إيش أعمل بِكُم وأنتم طرحتم عن نفوسِكم ما أُخادِع به الناس!؟ فقلت: وما هو؟ قال: الدنيا، فلما ولَّى عني . . التفت إليَّ وقال: غير أنَّ لي فيكم لطيفة[1]، فقلت: وما هي؟ قال: صُحبة الأحداث.

---

(١) أي: أمرٌ خفي.

وقال رحمه الله تعالى: صحبت الصوفية ما صحبت، فما وقع بيني وبينهم خلاف، قالوا: لِمَ؟ قال: لأنِّي كنت معهم على نفسي.

ومنهم: أبو عبدِ اللّهِ محمدُ بنُ إسماعيلَ المغربيُّ

أستاذ إبراهيم بن شيبان الخوَّاص، وتلميذ علي بن رَزِين، عاش مائة وعشرين سنة، ومات سنة تسع وتسعين ومائتين، كان عجيب الشأن، لم يأكل مما وصلت إليه يد بني آدم سنين كثيرة، وكان يتناول من أصول الحشيش أشياء تعوَّدَ أكلها.

وقال رحمه الله تعالى: أفضل الأعمال: عِمارة الأوقات بالموافقات.

وقال رحمه الله تعالى: أعظم الناس ذلاً: فقيرٌ داهَن غنياً أو تواضع له، وأعظم الخَلْق عزاً غنيٌّ تذلل للفقراء، وحفظ حرمتهم.

ومنهم: أبو العباسِ أحمدُ بنُ محمدٍ بنِ مسروقٍ

من أهل طُوس، سكن بغداد، وصحب الحارث المحاسبي والسَّريَّ السَّقطي، توفي في بغداد سنة تسع، وقيل: ثمان وتسعين ومائتين.

قال ابن مسروق: مَن راقب الله تعالى في خَطَرات قلبه . . عصمَه الله في حركات جوارحه.

وقال رحمه الله تعالى: تعظيمُ حرمات المؤمنين مِن تعظيم حرمات الله تعالى، وبه يصل العبد إلى محل حقيقة التقوى.

وقال رحمه الله تعالى: متى طمِعتَ في المعرفة ولم تُحْكِم قبلَها مدارج الإرادة . . فأنت في جهل، ومتى طلبت الإرادة قبل تصحيح مقام التوبة . . فأنت في غفلة عما تطلب.

ومنهم: أبو الحسنِ عليُّ بنُ سهلٍ الأصبَهانيُّ

مِن أقران الجنيد، قصدَه عمرو بن عثمان المكيّ في دَيْنٍ رَكِبه، فقضاه عنه، وهو ثلاثون ألف درهم، لقي أبا تراب النَّخشبي والطبقة[١].

قال علي بن سهل: المبادرة إلى الطاعات: مِن علامة التوفيق، والتقاعد عن المخالفات: مِن علامات حُسن الرعاية، ومراعاة الأسرار: من علامات التيقُّظ، وإظهار الدَّعاوى: من رعونات البشرية، ومَن لم تصحَّ مبادئ إرادته.. لا يسلمُ في منتهى عواقبه.

ومنهم: أبو محمدٍ أحمدُ بنُ محمدِ بنِ الحسينِ الجريريُّ

مِن كبار أصحاب الجنيد، وصحب سهل بن عبد الله، أُقعد بعد الجنيد في مكانه، وكان عالماً بعلوم هذه الطائفة كبير الحال، مات سنة إحدى عشرة وثلاثمائة.

مِن كلامه رحمه الله تعالى: مَن استولت عليه النَّفْس.. صار أسيراً في حكم الشهوات محصوراً في سجن الهوى، وحرَّم الله على قلبه الفوائد، فلا يستلذُّ بكلام الحق تعالى ولا يستحليه وإن كثُر ترداده على لسانه؛ لقوله تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

ومنهم: أبو العباسِ أحمدُ بنُ محمدِ بنِ سهلِ بنِ عطاءٍ الآدَميُّ[٢]

مِن كبار مشايخ الصوفية وعلمائِهم، كان الخرَّاز يعظِّم شأنَه، وهو من

(١) هم الذين في طبقته.

(٢) بفتح الهمزة والدال نسبة إلى بيع الأُدُم؛ أي: الجلد.

أقران الجنيد، وصحب إبراهيم المارستاني. مات سنة تسع وثلاثمائة.

قال ابن عطاء الآدمي: مَن ألزم نفْسَه آداب الشريعة . . نوَّر الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب ﷺ في أوامره وأفعاله وأخلاقه.

وقال رحمه الله تعالى: أعظم الغفلة: غفلة العبد عن ربه عزَّ وجلّ، وغفلتُه عن أوامره ونواهيه، وغفلته عن آداب معاملته.

وقال رحمه الله تعالى: كلُّ ما سُئِلْتَ عنه . . فاطلبه في مفازة العِلم، فإن لم تجدْه . . ففي ميدان الحكمة، فإن لم تجده . . فزِنْه بالتوحيد، فإن لم تجده في هذه المواضع الثلاثة . . فاضرب به وجهَ الشيطان.

ومنهم: أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ أحمدَ الخوَّاصُ

مِن أقران الجنيد والنُّوري، وله في التوكل والرِّياضات حَظٌّ كبير، مات بالرِّيِّ سنة إحدى وتسعين ومئتين.

قال الخوَّاص: ليس العلم بكثرة الرِّواية، إنما العالم من اتَّبع العلم واستعمله واقتدى بالسُّنن، وإن كان قليل العلم.

وقال رحمه الله تعالى: دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبُّر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرُّع عند السَّحَر، ومجالسة الصالحين.

ومنهم: أبو محمدٍ عبدُ اللهِ بنُ محمدٍ الخرَّازُ

من أهل الرِّيِّ، جاور بمكة، صحب أبا حفص وأبا عمران الكبير، وكان من المتورِّعين، مات قبل العشرة والثلاثمائة.

قال الدُّقِّي: دخلت على عبد الله الخرَّاز ولِي أربعة أيام لم آكل، فقال: يجوع أحدكم أربعة أيام فيصبح ينادي عليه الجوع، ثم قال: إيش يكون لو أنَّ

كُلَّ نفس منفوسة تلِفَت فيما تؤمِّله عند الله . . تُرى يكون ذلك كثيراً؟!

وقال الخرَّاز: الجوع طعام الزاهدين، والذِّكر طعام العارفين.

ومنهم: أبو الحسنِ بُنانُ بنُ محمدٍ الحمَّالُ

واسطيُّ الأصل، أقام بمصر ومات بها سنة ست عشرة وثلاثمائة، كبير الشأن، صاحب الكرامات.

سئل بُنان عن أجَلِّ أحوال الصوفية، فقال: الثِّقة بالمضمون[١]، والقيام بالأوامر، ومراعاة السِّرِّ، والتَّخَلِّي من الكونين.

قال أبو علي الروذباري: أُلقي بُنان الحمَّال بين يدي السبُع[٢]، فجعل السبع يشَمُّه ولا يضرُّه، فلما أُخرج . . قيل: ما الذي كان في قلبك حيث شمَّك السبع؟ قال: كنت أفكر في اختلاف العلماء في سؤر السبُع.

ومنهم: أبو حمزةَ البغداديُّ البزَّازُ

مات قبل الجنيد، وكان من أقرانه، صحب السَّريَّ والحسن المسوحي، وكان عالماً بالقراءات، فقيهاً، وكان من أولاد عيسى بن أبان، وكان أحمد ابن حنبل يقول له في المسائل: ما تقول فيها يا صوفي؟

قيل: كان يتكلم في مجلسه يومَ جمعة، فتغير عليه الحال، فسقط عن كرسيه ومات في الجمعة التالية، وقيل: مات سنة تسع وثمانين ومائتين.

قال أبو حمزة: مَن علم طريق الحق تعالى . . سهُل عليه سلوكُه، ولا دليل على الطريق إلى الله تعالى إلا متابعة الرسول ﷺ في أحواله وأفعاله وأقواله.

---

(١) أي: الرزق.

(٢) بأمر ابن طولون.

وقال رحمه الله تعالى: مَن رُزِق ثلاثة أشياء . . فقد نجا من الآفات: بطنٌ خالٍ مع قلب قانع، وفقرٌ دائم معه زهد حاضر، وصبرٌ كامل معه ذِكر دائم.

ومنهم: أبو بكرٍ محمدُ بنُ موسى الواسطيُّ

خراساني الأصل، من فَرْغانة، صحب الجنيد والنُّوْريّ، عالم كبير الشأن، أقام بمرو، ومات بها بعد العشرين والثلاثمائة.

قال الواسطي: الخوف والرجاء زِمامان يمنعان العبدَ من سوء الأدب.

وقال رحمه الله تعالى: إذا أراد الله هوان عبدٍ . . ألقاه إلى هؤلاء الأنتان والجيَف، يريد به صحبةَ الأحداث.

وقال رحمه الله تعالى: جعلوا سوءَ أدبهم إخلاصاً، وشَرَه نفوسهم انبساطاً، ودناءة الهِمم جَلادة، فعمُوا عن الطريق، وسلكوا فيه المضيق، فلا حياة تنمو في شواهدهم، ولا عبادة تزكو في محاضرتهم، إن نطقوا . . فبالغصب، وإن خاطبوا . . فبالكبر، تَوَثُّبُ أنفسِهم يُنبئُ عن خُبثِ ضمائرهم، وشَرَهُهم في المأكول يُظهِر ما في سويداء أسرارهم، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق رحمه الله تعالى يقول: سمع بعض المَراوزة إنساناً صيدلانياً يقول: اجتاز الواسطيُّ يوم جمعة بباب حانوتي قاصداً إلى الجامع، فانقطع شِسْع[1] نعله، فقلت: أيُّها الشيخ . . أتأذن لي أن أُصلِح نعلك؟ فقال: أَصلح، فأصلحت شِسْعه، فقال: أتدري لِمَ انقطع شِسْع نعلي؟ فقلت: حتى تقول، قال: لأني ما اغتسلْتُ للجمعة، فقلت له: يا سيدي . . ههنا حمَّامٌ، تدخله؟ فقال: نعم، فأدخلْتُه الحمَّام، فاغتسل.

---

(١) قطعةٌ تمسك النعل بأصابع القدم.

ومنهم: أبو الحسنِ عليُّ بنُ محمدِ بنِ سهلٍ الدِّينَوَريُّ ابنُ الصَّائغِ

أقام بمصر ومات بها، وكان من كبار المشايخ، قال أبو عثمان المغربي: ما رأيت من المشايخ أكثر نوراً من أبي يعقوب النَّهْرَجوري، ولا أكثر هيبةً من أبي الحسن بن الصَّائغ، مات سنة ثلاثين وثلاثمائة.

سئل ابن الصَّائغ عن الاستدلال بالشَّاهد على الغائب، فقال: كيف يُستدَلُّ بصفات مَن له مِثلٌ ونظير على مَن لا مِثل له ولا نظير؟!

وسئل عن صفة المريد، فقال: ما قال الله عزَّ وجلّ: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ...﴾ [التوبة: ١١٨].

وقال رحمه الله تعالى: الأحوال كالبُروق، فإذا ثبتت . . فهو حديث النفس وملازَمة الطَّبع.

ومنهم: أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ داودَ الرقيُّ

مِن كبار مشايخ الشَّام، مِن أقران الجنيد وابن الجلَّاء، وقد عُمِّر، وعاش إلى سنةِ ستٍّ وعشرين وثلاثمائة.

قال إبراهيم الرقي: المعرفة: إثبات الحقِّ على ما هو، خارجاً عن كل ما هو موهوم.

وقال رحمه الله تعالى: أضعفُ الخلق: مَن ضَعُف عن ردِّ شهواته، وأقوى الخَلْق: مَن قوِيَ على ردِّها.

وقال رحمه الله تعالى: علامة محبة الله: إيثار طاعته ومتابعة نبيه ﷺ.

ومنهم: مِمْشادٌ الدِّيْنَوَريُّ

مِن كبار مشايخهم، مات سنة تسع وتسعين ومائتين.

قال مِمشاد: أدب المريد: في التزام حُرمات المشايخ، وخدمة الإخوان،

والخروج عن الأسباب، وحفظ آداب الشرع على نفسه.

وقال رحمه الله تعالى: ما دخلت قَطُّ على أحد من شيوخي إلا وأنا خالٍ مِن جميع ما لي، أنتظر بركاتِ ما يَرِدُ علَيَّ مِن رؤيته وكلامه، فإنَّ مَن دخل على شيخ بحظِّه[١] . . انقطع عن بركات رؤيته ومُجالَسته وكلامه.

ومنهم: خَيرٌ النَّسَّاجُ

صحب أبا حمزة البغدادي، ولقي السَّريَّ، وكان من أقران أبي الحسن النُّوْري، إلا أنه عُمِّرَ عُمُراً طويلاً، وعاش - كما قيل - مائة وعشرين سَنة، وتاب في مجلسه الشِّبْليّ والخوَّاص، وكان أستاذَ الجماعة.

وقيل: كان اسمه محمد بن إسماعيل، من سامرة، وإنما سُمِّي خير النَّسَّاج لأنه خرج إلى الحج، فأخذه رجل على باب الكوفة، وقال: أنت عبدي واسمك خير - وكان أسود - فلَم يخالِفْه، واستعمله الرَّجل في نسْج الخَزِّ، فكان يقول له: يا خير . . فيقول: لبَّيك، ثم قال له الرجل بعد سنين: غلطت، لا أنت عبدي ولا اسمُك خير، فمضى وترَكه، وقال: لا أُغيِّر اسماً سمَّاني به رجل مسلم.

وقال رحمه الله تعالى: الخوف سَوط الله يُقَوِّم به أنفُساً قد تعودَت سوء الأدب.

قال أبو الحسين المالكي: سألت مَن حَضَرَ مَوتَ خيرٍ النَّسَّاج عن أمرِه؟ فقال: لَمَّا حضرَت صلاةُ المغرب . . غُشِيَ عليه، ثم فتح عينيه، وأومأ في ناحية البيت، وقال: قف - عافاك الله - فإنما أنت عبد مأمور وأنا عبد مأمور، وما أُمرْتَ به لا يفوتُك وما أُمِرْتُ به يفوتُني، ودعا بماء فتوضأ للصَّلاة، ثم

(١) أي: مع وجود حظِّ نفس أو تكبُّر.

تمدَّد وغمَّض عينيه، وتشهَّدَ ومات، فرُئي في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال لسائله: لا تسألْني عن هذا، ولكن استرحت من دنياكم الوَضِرَة.

ومنهم: أبو حمزةَ الخراسانيُّ

بنيسابور، أصله من محلَّة ملقاباذ، من أقران الجنيد والخرَّاز وأبي تراب النَّخْشبي، وكان ورِعاً دَيِّناً.

قال أبو حمزة: مَن استشعر ذِكرَ الموت . . حبَّبَ اللهُ إليه كُلَّ باق، وبغَّض إليه كُلَّ فان.

وقال رحمه الله تعالى: العارفُ بالله يُدافع عيشَه يوماً بيوم، ويأخذ عيشَه يوماً ليوم.

وقال له رجل: أوصني، فقال: هيئ زادك للسفر الذي بين يديك.

وقال رحمه الله تعالى: كنت قد بقيت محرماً في عباء، أسافر كل سنة ألف فرسخ تطلع الشمس علَيَّ وتغرب، كلَّما حللت . . أحرمت.

توفي سنة تسعين ومائتين.

ومنهم: أبو بكرٍ دُلَفُ بنُ جَحْدَرٍ الشِّبْليُّ

بغداديُّ المولد والمنشأ، وأصله من أُسْرُوشْنة، صحب الجنيد ومَن في عصره، وكان شيخَ وقته حالاً وظَرْفاً وعلماً، مالكيُّ المذهب، عاش سبعاً وثمانين سنة، ومات سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وقبرُه ببغداد، ولمَّا تاب الشِّبْليُّ في مجلس خير النسَّاج . . أتى دُماوَنْدَ، وقال: كنت والي بلدكم، فاجعلوني في حِلٍّ.

وكانت مجاهداته في بدايته فوق الحدِّ.

وكان الشِّبْليُّ إذا دخل شهرُ رمضان . . جَدَّ فوق جِدِّ مَن عاصَرَه، ويقول:

هذا شهرٌ عظَّمَه ربي، فأنا أوَّلُ من يعظِّمُه.

ومنهم: أبو محمدٍ عبدُ اللّٰهِ بنُ محمدٍ المرتَعِشُ

نيسابوري، من محلَّة الحِيرة، صحب أبا حفص وأبا عثمان، ولقي الجنيد، وكان كبير الشأن، وكان يُقيم في مسجد الشُّونِيزيَّة، مات ببغداد سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة.

قال المرتعش: الإرادة: حبْسُ النفْس عن مراداتِها، والإقبال على أوامر الله تعالى، والرضا بمَوارد القضاء عليه.

وقيل له: إنَّ فلاناً يمشي على الماء، فقال: عندي أنَّ مَن مكَّنَه الله تعالى مِن مخالفة هواه فهو أعظمُ مِنَ المشي في الهواء.

ومنهم: أبو عليٍّ أحمدُ بنُ محمدٍ الرُّوذباريُّ

بغدادي، أقام بمصر ومات بها سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة، صحب الجنيد والنُّوْري وابن الجلَّاء والطبقة، أظرف المشايخ وأعلمهم بالطريقة.

سئل عمن يسمع الملاهي ويقول: هي لي حلال؛ لأني وصلت إلى درجة لا تؤثِّر فيَّ اختلاف الأحوال، فقال: نعم، قد وصل، ولكن إلى سقر.

وسُئل عن التصوف، فقال: هذا مذهب كُلُّه جِدٌّ، فلا تخلِطوه بشيء من الهزْل.

ومنهم: أبو محمدٍ عبدُ اللّٰهِ بنُ مُنازلٍ

أوحد وقتِه، صحب حمدون القصَّار، وكان عالماً، وكتب الحديثَ الكثيرَ، مات بنيسابور سَنة تسع وعشرين أو ثلاثين وثلاثمائة.

قال عبد الله بن مُنازل: لم يضيِّع أحدٌ فريضة من الفرائض إلا ابتلاه الله تعالى بتضييع السُّنن، ولم يُبتَلَ أحد بتضييع السُّنن إلا أوشك أن

يبتلى بالبدع.

وقال رحمه الله تعالى: أفضل أوقاتك وقت تَسْلَم فيه من هواجس نفسك، ووقت يَسْلَم الناسُ فيه من سوء ظَنِّك.

ومنهم: أبو عليٍّ محمدُ بنُ عبدِ الوهابِ الثَّقفيُّ

إمامُ الوقتِ، صحب أبا حفص وحمدون القصَّار، وبه ظهر التصوُّف بنيسابور، مات سَنة ثمان وعشرين وثلاثمائة.

قال أبو علي الثَّقفي: لو أنَّ رجُلاً جَمع العلوم كلَّها، وصحب طوائف الناس . . لا يبلغ مبلَغ الرِّجال إلا بالرياضة من شيخ أو إمام أو مؤدِّب ناصح، ومَن لم يأخذ أَدَبَه من أستاذ يريه عيوب أعماله ورعونات نفسِه . . لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات.

وقال رحمه الله تعالى: يأتي على هذه الأمة زمان لا تطيب المعيشة فيه للمؤمن إلا بعد استناده إلى منافق[1].

ومنهم: أبو الخيرِ الأقطعُ

مغربيُّ الأصل، سكن تِينَات، وله كرامات وفِراسة حادَّة، كان كبير الشَّأن، مات سنة نيف وأربعين وثلاثمائة.

قال أبو الخير: ما بلغ أحد إلى حالة شريفة إلَّا بملازمة الموافقة[2]، ومعانقة الأدب، وأداء الفرائض، وصُحبة الصالحين.

ومنهم: أبو بكرٍ محمدُ بنُ عليٍّ الكَتَّانيُّ

بغداديُّ الأصل، صحب الجنيد والخرَّاز والنُّوْري، وجاور بمكة إلى أن

(١) أي: إنَّ المؤمن يكره التَّعلُّق بالدُّنيا، فإذا رأيتَه متعلِّقاً بالدُّنيا . . فاعلم أنه مصاحِبٌ للمنافقين.

(٢) أي: للكتاب والسنة.

مات سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة.

نظر الكتَّاني إلى شيخ أبيض الرأس واللحية يسأل الناس، فقال: هذا رجل أضاع حقَّ الله في صِغره، فضيَّعه الله في كِبَره.

وقال رحمه الله تعالى: الشهوة زِمام الشَّيطان، فمن أخذ بزمامه . . كان عبده.

ومنهم: أبو يعقوبَ إسحاقُ بنُ محمدٍ النَّهَرَجوريُّ

صحب أبا عمرو المكيَّ وأبا يعقوب السُّوسي والجنيد وغيرهم، مات بمكة - مجاوراً بها - سنة ثلاثين وثلاثمائة.

قال النَّهْرَجوري: الدُّنيا بحر، والآخرة ساحل، والمركب التَّقوى، والناس سَفْر.

وقال رحمه الله تعالى: رأيت رجُلاً في الطواف بفردِ عين يقول: أعوذ بك منك، فقلت: ما هذا الدعاء !؟ فقال: نظرت يوماً إلى شخص، فاستحسنتُه، وإذا لطْمةٌ وقعت على بصري، فسالَتْ عيني، فسمعت هاتفاً يقول: لطْمةٌ بنظرة، ولو زدت . . لزدناك.

وقال رحمه الله تعالى: أفضل الأحوال: ما قارن العلم.

ومنهم: أبو الحسنِ عليُّ بنُ محمدٍ المُزَيِّنُ

مِن أهل بغداد، مِن أصحاب سهل بن عبد الله والجنيد والطبقة، مات بمكة مجاوراً سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، وكان ورعاً كبيراً.

قال المُزَيِّن: الذنب بعد الذنب عقوبة الذنب الأوَّل، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة الأولى.

وسئل عن التَّوحيد، فقال: أن تَعلم أن أوصافه تعالى بائنة لأوصاف

خلقه، بَايَنَهم بصفاته قِدْماً كما باينوه بصفاتهم حِدْثاً.

وقال رحمه الله تعالى: مَن لَم يستغنِ بالله .. أحوجه الله إلى الخَلْق، ومَن استغنى بالله .. أحوج الله الخلق إليه.

ومنهم: أبو عليٍّ الحسنُ بنُ أحمدَ بنِ الكاتبِ

صحب أبا علي الروذباري وأبا بكر المصري وغيرهما، كان كبيراً في حاله، مات سنة نيِّف وأربعين وثلاثمائة.

قال ابن الكاتب: إذا سكن الخوف في القلب .. لم ينطقِ اللِّسان إلا بما يعنيه.

ومنهم: مُظفَّرُ القِرْمِسينيُّ

من أشياخ الجبل[1]، صحب عبد الله الخرَّاز وغيره.

قال مُظفَّر القِرْمِسيني: الصَّوم على ثلاثة أوجُه: صوم الرُّوح بقِصَر الأمل، وصوم العقل بخلاف الهوى، وصوم النَّفْس بالإمساك عن الطعام والمحارم.

وقال رحمه الله تعالى: أفضل أعمال العبيد: حِفْظُ أوقاتِهم الحاضرة، وهو ألَّا يقصِّروا في أمر، ولا يتجاوزوا عن حدٍّ.

وقال رحمه الله تعالى: مَن لم يأخذِ الأدب عن حكيم .. لم يتأدَّب به مريد.

ومنهم: أبو بكرٍ عبدُ اللهِ طاهرٌ الأبْهَريُّ

مِن أقران الشِّبْليِّ، من مشايخ الجبل، عالم وَرِع، صحب يوسف بن الحسين وغيره، مات بقُرْبٍ من الثلاثين والثلاثمائة.

قال رحمه الله تعالى: إذا أحببْتَ أخاً في الله .. فأقلِلْ مخالَطته في الدنيا.

---

(١) جبل قاسيون.

ومنهم: أبو الحسينِ بنُ بُنانٍ

ينتمي إلى أبي سعيد الخرَّاز، مِن كبار مشايخ مصر.

قال ابن بُنان: كل صوفيٍّ كان هَمُّ الرِّزق قائماً في قلبه . . فلزوم العمل أقرب إليه، وعلامة سكون القلب إلى الله: أن يكون بما في يد الله أوثقَ منه بما في يده.

وقال رحمه الله تعالى: اجتنبوا دناءة الأخلاق كما تجتنبون الحرام.

ومنهم: أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ شيبانَ القِرْمِسينيُّ

شيخ وقته، صحب أبا عبد الله المغربيَّ والخوَّاص وغيرهما.

قال إبراهيم بن شيبان: مَن أراد أن يتعطَّل أو يتبطَّل . . فليلزمِ الرُّخَص.

وقال رحمه الله تعالى: عِلمُ الفَناء[١] والبقاء[٢] يدور على إخلاص الوحدانية وصحة العبودية، وما كان غير هذا . . فهو المغاليط والزَّنْدقة.

ومنهم: أبو بكرٍ الحسينُ بنُ عليِّ بنِ يَزْدَانِيَارَ

مِن إرمينيَّة، له طريقة يختصُّ بها في التَّصوُّف، وكان عالماً ورعاً، وكان ينكر على بعض العارفين في إطلاقات ألفاظٍ لهم[٣].

قال ابن يزدانيار: إيَّاك أن تطمعَ في الأُنس بالله وأنت تحب الأُنس بالنَّاس، وإيَّاك أن تطمع في حُبِّ الله وأنت تحبُّ الفضول، وإيَّاك أن تطمع في المنزلة عند الله وأنت تحبُّ المنزلة عند النَّاس.

---

(١) أي: عن غير الله.

(٢) مع الله بلا تكييف ولا واسطة.

(٣) وكان يقول في ذلك: تُراني تكلمتُ بما تكلمتُ به إنكاراً على التَّصوُّف والصُّوفية، والله ما تكلمت إلا غَيرة عليهم؛ حيث أفشَوا أسرار الحق وأبدَوها إلى غير أهلها، فحملني ذلك على الغَيرة عليهم والكلام فيهم، وإلا فهم السادة، وبمحبَّتهم أتقرَّب إلى الله تعالى.

ومنهم: أبو سعيدٍ أحمدُ بنُ محمدِ بنِ زيادِ بنِ الأعرابيِّ

بصريٌّ، جاور الحرم، ومات به سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة، صحب الجنيد وعمرو بن عثمان المكي والنُّوْري وغيرهم.

قال ابن الأعرابي: أخْسَرُ الأخسرين: مَن أبدى للناس صالحَ أعماله وبارز بالقبيح مَن هو أقرب إليه من حبل الوريد.

ومنهم: أبو عمرٍو محمدُ بنُ إبراهيمَ الزَّجَّاجيُّ النيسابوريُّ

جاور بمكة سنين كثيرة ومات بها، صحب الجنيد وأبا عثمان والنُّوْري والخوَّاص ورُويماً، مات سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة.

سئل أبو عمرو الزَّجّاجي: ما بالُك تتغيَّر عند التكبيرة الأولى في الفرائض؟ فقال: لأنَّي أخشى أن أفتتح فريضتي بخلاف الصدق، فمَن يقول: الله أكبر وفي قلبه شيء أكبرُ منه، أو قد كبَّر شيئاً سواه على مرور الأوقات . . فقد كذَّب نفسَه على لسانه.

وقال رحمه الله تعالى: مَن تكلَّم عن حالٍ لم يصل إليها . . كان كلامه فتنةً لِمن يسمعُه، ودعوى تتولد في قلبه، وحرَمَه الله الوصولَ إلى تلك الحال.

ومنهم: أبو محمدٍ جعفرُ بنُ محمدِ بنِ نُصَيرٍ

بغداديُّ المنشأ والمولِد، صحب الجنيد وانتمى إليه، وصحب النُّوْري ورُويماً وسمنون والطبقة، مات ببغداد سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة.

قال جعفر: لا يجد العبدُ لذَّة المعاملة مع الله مع لذَّة النَّفْس؛ لأن أهل الحقائق قطعوا العلائق[1] التي تقطعهم عن الحقِّ قبل أن تقطعَهم العلائق.

(١) العلائق: ما يعلَق في القلب من حُبِّ الدُّنيا.

وقال رحمه الله تعالى: إنَّ ما بين العبد وبين الوجود: أن تسكُن التَّقوى قلبَه، فإذا سكنت التَّقوى قلبه . . نزلت عليه بركات العلم، وزالت عنه رغبة الدُّنيا.

ومنهم: أبو العباسِ القاسمُ بنُ القاسمِ السَّيَّاريُّ

من مرو، صحب الواسطي، وانتمى إليه في علوم هذه الطائفة، وكان عالماً، مات سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة.

سئل أبو العباس السَّيَّاري: بماذا يُرَوِّض المريد نفْسَه؟ فقال: بالصَّبر على فعل الأوامر، واجتناب النواهي، وصُحبة الصَّالحين، وخدمة الفقراء.

ومنهم: أبو بكرٍ محمدُ بنُ داودَ الدِّينَوَريُّ

المعروف بالدُّقيِّ، أقام بالشام، وعاش أكثر من مائة سنة، مات بدمشق بعد الخمسين والثلاثمائة، صحب ابن الجلَّاء والزَّقَّاق.

قال أبو بكر الدُّقي: المعدة موضع يَجمعُ الأطعمة، فإذا طرحْتَ فيها الحلال . . صدرَت الأعضاء بالأعمال الصالحة، وإذا طرحْتَ فيها الشُّبهة . . اشتبه عليك الطَّريق إلى الله تعالى، وإذا طرحْتَ فيها التَّبِعات . . كان بينك وبين أمر الله حجاب.

ومنهم: أبو محمدٍ عبدُ اللّٰهِ بنُ محمدٍ الرَّازيُّ

المعروف بالحدَّاد، مولده ومنشؤه بنيسابور، صحب أبا عثمان الحِيري والجنيد ويوسف بن الحسين ورُويماً وسمنوناً وغيرهم، مات سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة.

وسئل رحمه الله تعالى: ما بال الناس يَعرفون عيوبَهم ولا يرجعون إلى الصواب؟ فقال: لأنهم اشتغلوا بالمباهاة بالعلم ولم يشتغلوا باستعماله،

واشتغلوا بالظواهر ولم يشتغلوا بآداب البواطن، فأعمى اللهُ قلوبَهم، وقيَّد جوارحَهم عن العبادات.

ومنهم: أبو عمرٍو إسماعيلُ بنُ نُجَيدٍ

صحب أبا عثمان الحِيري، ولقي الجنيد، وكان كبير الشَّأن، آخِرُ من مات من أصحاب أبي عثمان، توفي بمكة سنة ست وستين وثلاثمائة.

قال أبو عمرو: كلُّ حال لا يكون عن نتيجةِ علم . . فإنَّ ضَررَه على صاحبه أكثرُ من نفعه.

وقال رحمه الله تعالى: مَن ضَيَّع في وقت من أوقاته فريضة افترضها الله عليه . . حُرِمَ لذَّة تلك الفريضة ولو بعد حين.

وسئل عن التصوف، فقال: الصَّبر تحت الأمر والنَّهي.

وقال رحمه الله تعالى: آفة العبد: رِضاه من نفسه بما هو فيه.

ومنهم: أبو الحسنِ عليُّ بنُ أحمدَ بنِ سهلٍ البُوشنجيُّ

أحد فتيان خُراسان، لقي أبا عثمان وابن عطاء والجريري وأبا عمرو الدِّمشقي، مات سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة.

وسئل البُوشنجي عن المروءة فقال: هي ترك استعمال ما هو مُحرَّم عليك مع الكرام الكاتبين.

وقال له إنسان: ادع الله لي، فقال: أعاذك الله من فِتنتك.

ومنهم: أبو عبدِ اللهِ محمدُ بنُ خفيفٍ الشِّيرازيُّ

صحب رُويماً والجريري وابن عطاء وغيرهم، مات سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة، وهو شيخ الشُّيوخ، وواحد وقته.

قال ابن خفيف: الإرادة: استدامة الكدِّ، وترك الراحة.

وسئل عن القُرْب، فقال: قُرْبك منه بملازمة الموافَقات، وقُرْبه منك بدوام التَّوفيق.

وقال رحمه الله تعالى: ربَّما كنت أقرأ في ابتداء أمري في ركعة واحدة عشرة آلاف مرَّة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١]، وربَّما كنت أقرأ في ركعة واحدة القرآن كُلَّه، وربَّما كنت أصلِّي من الغداة إلى العصر ألف ركعة.

دخل يوماً من الأيام فقير[١]، فقال للشيخ ابن خفيف: بي وسوسة، فقال الشيخ: عهدي بالصُّوفيَّة يَسخَرون من الشَّيطان، والآن الشَّيطان يسخر منهم!

وقال أبو عبد الله: ضَعُفْتُ عن القيامِ في النوافل، فجعلت بدل كُلِّ ركعة من أورادي ركعتين قاعداً، للخبَر: «**صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم**»[٢].

ومنهم: أبو الحسينِ بُنْدارُ بنُ الحسينِ الشِّيرازيُّ

كان عالماً بالأصول، كبيراً في الحال، صحب الشِّبليَّ، مات بأرَّجان سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة.

قال بُنْدار بن الحسين: لا تخاصم لنفسك؛ فإنَّها ليست لك، دعْها لمالِكها يفعل بها ما يريد.

وقال رحمه الله تعالى: صُحبة أهل البدع تورِث الإعراض عن الحق.

وقال رحمه الله تعالى: اُترك ما تهوى لما تُؤَمِّل.

---

(١) أي: من الصوفية.

(٢) أخرجه ابن ماجه في ((سننه)) (٢٢٩)، والنسائي في ((الكبرى)) (١٣٧٢) عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

ومنهم: أبو بكرٍ الطِّمستانيُّ

صحب إبراهيم الدَّباغ وغيره، وكان أوحَدَ وقتِه علماً وحالاً، مات بنيسابور بعد سنة أربعين وثلاثمائة.

قال أبو بكر الطِّمستاني: النِّعمة العُظمى الخروج من النَّفْس، والنَّفْس أعظم حجاب بينك وبين الله.

وقال رحمه الله تعالى: إذا هَمَّ القلب[1] عوقب في الوقت.

وقال رحمه الله تعالى: الطَّريق واضح، والكتاب والسُّنَّة قائمان بين أظهُرنا، وفضل الصَّحابة معلوم؛ لسَبْقهم إلى الهجرة ولصحبتهم، فمَن صحب مِنَّا الكتاب والسُّنة وتغرَّب عن نفْسه والخَلْقِ وهاجرَ بقلبه إلى الله . . فهو الصَّادق المصيب.

ومنهم: أبو العباسِ أحمدُ بنُ محمدٍ الدِّينَوَريُّ

صحب يوسف بن الحسين وابن عطاء والجريريَّ، وكان عالماً فاضلاً، وَرَد نيسابور وأقام بها مُدَّة، وكان يعظُ النَّاس، ويتكلم على لسان المعرفة، ثم ذهبَ إلى سمرقند ومات بها بعد الأربعين وثلاثمائة.

قال أبو العباس الدِّينوَري: أدْنى الذِّكر: أن تنسى ما دونه، ونهاية الذِّكر: أن يغيب الذَّاكر في الذِّكر عن الذِّكر.

وقال رحمه الله تعالى: لسان[2] الظَّاهر لا يغيِّر حُكم الباطن.

ومنهم: أبو عثمانَ سعيدُ بنُ سَلَّامٍ المغربيُّ

واحد عصره، لم يوصَف مثلُه قبلَه، صحب ابن الكاتب وحبيباً المغربي

(١) أي: بالإعراض عن الله.

(٢) لسان: في نسخة: لباس.

وأبا عمرو الزَّجَّاجي، ولقي النَّهْرَجوري وابن الصَّائغ وغيرهم، مات بنيسابور سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، وأوصى بأن يُصلِّي عليه الإمام أبو بكر بن فُوْرَك رحمه الله تعالى، وكان في الرِّياضة كبير الشَّأن.

قال أبو عثمان: التقوى: هي الوقوف مع الحدود، لا يُقصِّر فيها ولا يَتعدَّاها.

وقال رحمه الله تعالى: مَن آثر صُحبة الأغنياء على مُجالسة الفقراء . . ابتلاه الله بموت القلب.

ومنهم: أبو القاسمِ إبراهيمُ بنُ محمدٍ النَّصراباذيُّ

شيخ خراسان في وقته، صحب الشِّبليَّ وأبا علي الرُّوذْباري والمرتعِش، جاور بمكة سنة ست وستين وثلاثمائة، ومات بها سنة تسع وستين وثلاثمائة، وكان عالماً بالحديث كثير الرِّواية.

قال النَّصراباذي: إذا بدا لك شيء من بَوادي الحقِّ . . فلا تلتفت معها إلى جَنَّة ولا إلى نار، فإذا رجعْتَ عن تلك الحال . . فعظِّم ما عظَّمه الله.

قيل للنَّصراباذي: إنَّ بعض النَّاس يجالس النِّسوان ويقول: أنا معصوم في رؤيتِهِنَّ، فقال: ما دامت الأشباح[1] باقيةً . . فإنَّ الأمر والنهي باق، والتَّحليل والتَّحريم مخاطَب به، ولن يجترئَ على الشُّبُهات إلَّا مَن تعرَّض للمحرَّمات.

وقال رحمه الله تعالى: أصل التَّصوف: ملازمة الكتاب والسُّنة، وترك الأهواء والبِدع، وتعظيم حرمات المشايخ، ورؤية أعذار الخلْق، والمداومة على الأوراد، وترك ارتكاب الرُّخَص والتَّأويلات.

---

(١) أي: الأشخاص.

ومنهم: أبو الحسنِ عليُّ بنُ إبراهيمَ الحُصَريُّ

سكن بغداد، عجيب الحال واللِّسان، شيخ وقته، ينتمي إلى الشِّبْليِّ، مات ببغداد سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة.

قال الحُصَريُّ: النَّاس يقولون: الحُصَري لا يقول بالنَّوافل[١]، وعلَيَّ أوراد من حال الشَّباب لو تركْتُ ركعة . . لعوقِبْتُ.

ومنهم: أبو عبدِ اللهِ أحمدُ بنُ عطاءٍ الرُّوذْباريُّ

ابن أخت الشَّيخ أبي علي الرُّوذْباري، شيخ الشَّام في وقته، مات بصُور سنة تسع وستين وثلاثمائة.

وكان أبو عبد الله الرُّوذْباري إذا دُعيَ أَصحابُه معه إلى دعوة في دُور السُّوقة ومَن ليس من أهل التَّصوُّف . . لا يُخْبِر الفقراء بذلك، وكان يطعمُهم شيئاً، فإذا فرغوا . . أخبرهم ومضى بهم، فكانوا قد أكلوا في الوقت، فلا يمكنهم أن يمُدُّوا أيديَهم إلى طعام الدَّعوة إلا بالتَّعزُّز، وإنما كان يفعلُ ذلك لئلَّا تَسوءَ ظُنونُ النَّاس بهذه الطَّائفة، فيأثَموا بسببِهم.

وقيل: كان أبو عبد الله الرُّوذْباري يمشي على أثر الفقراء يوماً، وكذا كانت عادته أنْ يمشيَ على أثرهم[٢]، وكانوا يمضون إلى دعوة، فقال إنسان بَقَّال: هؤلاء المستَحِلُّون[٣]، وبسط لسانه فيهم، وقال في أثناء كلامه: إنَّ واحداً منهم قد استقرض منِّي مائة درهم ولم يَرُدَّها علَيَّ، ولستُ أدري أين أطلبُه؟ فلمَّا دخلوا دارَ الدَّعوة . . قال أبو عبد الله الرُّوذْباري لصاحب الدَّار

(١) أي: لا يعتني بها.

(٢) أي: يتأخر عنهم ويسير خلفَهم؛ تواضعاً.

(٣) أي: لأموال الناس.

- وكان من محِبِّي هذه الطَّائفة -: ائتِني بمائة درهم إنْ أردْتَ سكونَ قلبي، فأتاه بها في الوقت، فقال لبعض أصحابه: اِحمل هذه المائة إلى البَقَّال الفُلاني وقل له: هذه المائة التي استقرضَها منك بعض أصحابِنا، وقد وقع له في التَّأخير بها عُذر، وقد بعثَها الآن، فاقبل عذرَه، فمضى الرَّجُل وفَعل، فلمَّا رجعوا من الدَّعوة . . اجتازوا بحانوت البَقَّال، فأخذ البَقَّال في مدحهم يقول: هؤلاء هم الثِّقات الأُمَناء الصُّلَحاء وما أشبه ذلك.

وقال أبو عبد الله الرُّوذْباري: أقبحُ من كُلِّ قبيح صوفيٌّ شحيح.

قال أبو القاسم الأستاذ الإمام جمال الإسلام رضي الله عنه:

هذا هو ذِكر جماعة من شيوخ هذه الطائفة

وكان الغرض مِن ذِكرهم في هذا الموضع: التَّنبيه على أنهم مُجمِعون على تعظيم الشريعة، متَّصفون بسلوك طرُق الرِّياضة، مقيمون على متابعة السُّنة، غيرُ مخِلِّين بشيء من آداب الدِّيانة، متَّفقون على أنَّ مَن خلا من المعاملات والمجاهدات ولم يبْنِ أمرَه على أساس الورع والتَّقوى . . كان مفترياً على الله سبحانه وتعالى فيما يدَّعيه، مفتوناً هلك في نفْسه، وأهلَك من اغْترَّ به ممَّن رَكَنَ إلى أباطيله.

شرح المقامات

باب التَّوبة

قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النُّور: ٣١].

وكان من سُنَّته ﷺ دوام الاستغفار، فقد قال ﷺ: «**إنه لَيغان على قلبي، فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة**»(١).

فالتَّوبة أوَّل منزل مِن منازل السَّالكين، وأوَّل مقام من مقامات الطَّالبِين.

وحقيقة التَّوبة في لغة العرب: الرُّجوع، يقال: تاب؛ أي: رجع، فالتَّوبة: الرُّجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود فيه.

فأرباب الأصول من أهل السُّنَّة قالوا: شَرْط التَّوبة - حتى تصحَّ - ثلاثة أشياء:

١ - النَّدم على ما عمل مِن المخالفات.

٢ - وترك الزَّلَّة في الحال.

٣ - والعزْمُ على ألَّا يعود إلى مثل ما عمل مِن المعاصي.

فهذه الأركان لا بُدَّ منها حتى تصحَّ توبته.

فإذا فكَّر بقلبه في سوء ما يصنعه وأبصر ما هو عليه مِن قبيح الأفعال . . سَنح(٢) في قلبه إرادة التوبة والإقلاع عن قبيح المعاملات، فيمُدُّه الحقُّ - سبحانه - بتصحيح العزيمة، والأخْذ في جميل الرجوع، والتَّأهُّب لأسباب

---

(١) أخرجه مسلم في ((صحيحه)) بلفظ: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**» عن الأغرِّ المزني وكان له صحبةٌ.

(٢) أي: خطر.

التَّوبة، فأوَّل ذلك: هِجران إخوان السُّوء؛ فإنهم هم الذين يحملونه على ردِّ هذا القصد، ويشوشون عليه صحَّة هذا العزم.

حُكي عن أبي سليمان الدَّاراني أنه قال: اختلفْتُ[١] إلى مجلس قاصٍّ، فأثَّر كلامه في قلبي، فلمَّا قُمت . . لم يبقَ في قلبي منه شيء، فعدت ثانياً، فبقي أثر كلامه في قلبي حتى رجعت إلى منزلي، فكسرت آلات المخالفات ولزمت الطريق، فحكى هذه الحكاية ليحيى بن معاذ، فقال: عصفورٌ اصطاد كرْكيّاً ! أراد بالعصفور ذلك القاصَّ، وبالكرْكيِّ أبا سليمان الدَّاراني.

سمعت الشَّيخ أبا علي الدَّقَّاق رحمه الله تعالى يقول: تاب بعض المريدين، ثم وقعَت له فترة[٢]، فكان يفكِّر وقتاً: لو عاد إلى توبته، كيف حكمه؟ فهتف به هاتف: يا فلان . . أطعتَنا فشكرناك، ثم تركتَنا فأمهلناك، وإنْ عُدْت إلينا . . قبلناك، فعاد الفتى إلى الإرادة ونفَذ فيها.

فإذا ترك المعاصي وحَلَّ عن قلبه عُقدةَ الإصرار وعزم ألَّا يعود إلى مِثله . . فعند ذلك يخلُصُ إلى قلبه صادق النَّدم، فيتأسَّف على ما عمِله، ويأخذ في التحسُّر على ما ضيَّعه[٣] مِن أحواله وارتكبَه من قبيح أعماله، فتتمُّ توبته وتصدق مجاهدته، واستبدل بمخالطته العزلة، وبصحبته مع إخوان السُّوء التَّوحُّشَ عنهم والخلوةَ دونَهم، ويصلُ ليلهُ بنهاره في التلهُّف، ويعتنق في عموم أقواله بصدق التَّأسُّف، يمحو بصوب عَبْرته آثار عَثْرته، ويأسو[٤] بحُسن توبته كُلومَ حوبته[٥]، ويُعرَف مِن بين أمثاله بذُبوله، ويُستدَلُّ على صحَّة حاله

(١) أي: ترددْتُ.

(٢) أي: عودة إلى ما كان عليه قبل التوبة.

(٣) في نسخة: صنعه.

(٤) أي: يداوي.

(٥) أي: إثمه.

بنُحوله، ولن يتِمَّ له شيء مِن ذلك إلا بعد فراغه من إرضاء خصومه، والخروج عمَّا لزمه مِن مَظالمه، فإنَّ أوَّل منزلة من التوبة إرضاء الخصوم بما أمكنه، فإنِ اتَّسع ذاتُ يده لإيصال حقوقهم إليهم، أو سمَحت أنفُسهم بإحلاله والبراءة عنها، وإلا فالعزم بقلبه على أن يخرج عن حقوقهم عند الإمكان، والرُّجوعُ إلى اللهِ سبحانه بصدقِ الابتهالِ والدعاءِ لهم.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق رحمه الله تعالى يقول: التَّوبة على ثلاثة أقسام: أوَّلها: التَّوبة، وأوسطها: الإنابة، وآخرها: الأوْبة.

ويقال أيضاً: التَّوبة صفة المؤمنين؛ قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النُّور: ٣١]، والإنابة صفة الأولياء والمقرَّبين؛ قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [قَ: ٣٣]، والأوْبة: صفة الأنبياء والمرسلين؛ قال الله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [صَ: ٣٠].

قال الجنيد: دخلت على السَّريِّ يوماً، فرأيته متغيِّراً، فقلت له: ما لَك؟ فقال: دخل علَيَّ شابٌّ فسألني عن التَّوبة، فقلت له: ألَّا تنسى ذنبك، فعارضني وقال: بل التَّوبة أنْ تنسى ذنبك، فقلت: إن الأمر عندي ما قاله الشَّاب، فقال: لِمَ؟ قلت: لأني إذا كنت في حال الجفاء، فنقلَني إلى حال الوفاء، فذِكر الجفاء في حال الصَّفاء جفاء، فسكَتَ.

قال أبو نصر السَّرَّاج: أشار سهل إلى أحوال المريدين والمتعرضين، تارة لهم، وتارة عليهم، فأمَّا الجنيد . . فإنه أشار إلى توبة المحقِّقين؛ فإنهم لا يذكرون ذنوبهم بما غلب على قلوبهم من عظمة الله تعالى ودوام ذِكره.

سمعت عبد الله بن علي بن محمد التَّميمي يقول: شتَّان ما بين تائب يتوب من الزَّلَّات، وتائب يتوب من الغفَلات، وتائب يتوب من رؤية الحسنات.

قال ذو النُّون: حقيقة التَّوبة أنْ تَضيق عليك الأرض بما رحُبت، حتى لا يكون لك قرار، ثم تضيق عليك نفْسك كما أخبر الله تعالى في كتابه بقوله:

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨].

وقال ابن عطاء: التَّوبة: توبتان: توبة الإنابة، وتوبة الاستجابة، فتوبة الإنابة: أنْ يتوب العبد خوفاً من عقوبته، وتوبة الاستجابة: أنْ يتوب حياءً مِن كرمه.

وقال بعضهم: توبة الكذَّابين على أطراف ألسنتهم؛ يعني: قوله: أستغفر الله.

باب المجاهدة

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

بسنده إلى أبي سعيد الخُدري قال: سئل رسول الله ﷺ عن أفضل الجهاد، فقال: «**كلمة عدْل عند سلطان جائر**»(١).

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق رحمه الله تعالى يقول: مَن زيَّن ظاهره بالمجاهدة . . حسَّن الله سرائره بالمشاهدة، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

واعلم أنَّ مَن لم يكن في بدايته صاحبَ مجاهدة . . لَم يجد مِن هذه الطريقة شَمَّة.

وقال أبو عثمان المغربي: مَن ظنَّ أنْ يُفتَح له شيء مِن هذه الطريقة أو يُكشفَ له عن شيء منها إلا بلزوم المجاهدة . . فهو في غلط.

قال السَّريُّ: يا معشر الشَّباب . . جِدُّوا قبل أن تبلغوا مبلغي، فتضعُفوا

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٤٤)، والترمذي (٢١٧٤).

وتُقصِّروا كما ضعُفْت وقصَّرْت، وكان في ذلك السِّن لا يَلحقُه الشَّباب في العبادة.

واعلم أنَّ أصل المجاهدة ومِلاكَها[١]: فَطْمُ النَّفْس عن المألوفات، وحملُها على خلاف هواها في عموم الأوقات.

وجهد العوام في توفية الأعمال، وقصد الخواص إلى تصفية الأحوال، فإن مقاساة الجوع والسهر سهل يسير، ومعالجة الأخلاق والتنقي من سفسافها صعب شديد.

ويحكى عن أبي محمد المرتعش أنه قال: حججت كذا وكذا حجة على التجريد فبان لي أن جميع ذلك كان مشوباً بحظي وذلك أن والدتي سألتني يوماً أن أستقي لها جرة ماء فثقل ذلك على نفسي فعلمت أن مطاوعة نفسي في الحجات كانت لحظٍّ وشوب لنفسي إذ لو كانت نفسي فانية لم يصعب عليها ما هو حق في الشرع.

قال ذو النون المصري: ما أعزَّ الله عبداً بعزٍّ هو أعزُّ له مِن أنْ يَذُلَّه على ذُلِّ نفْسه[٢]، وما أذلَّ الله عبداً بذُلٍّ هو أذلُّ لَه مِن أنْ يحجُبه عن ذُلِّ نفْسه.

قال النَّصراباذي: سِجنُك نفْسُك، فإذا خرجت منها .. وقعت في راحة أبدية.

وقال ذو النون المصري: إنما دخل الفساد على الخَلْق من ستة أشياء:

الأول: ضعف النِّيَّة بعمل الآخرة.

والثاني: صارت أبدانُهم رهينة لشهواتهم.

والثالث: غلبَهم طول الأمل مع قُرب الأجل.

والرابع: آثروا رضا المخلوقين على رضا الخالق.

---

(١) أي: قِوامها.

(٢) ذل نفسه: قيادتها.

والخامس: اتَّبَعوا أهواءهم ونبذوا سُنَّة نبيِّهم ﷺ وراء ظهورهم.
والسادس: جعلوا قليل زلَّات السَّلف حُجةً لأنفُسهم، ودفنوا كثير مناقبهم.

باب الخلوة والعُزلة

بسنده إلى أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من خير معاش الناس لهم رجُل ممسك عِنان فرسه في سبيل الله يطير على متْنه، كُلَّما سمع هَيْعة أو فَزْعة . . طار عليه يبتغي القتْل والموت مظانَّهُ، أو رَجُل في غُنَيمة في رأس شَعَفة**[1] **مِن هذه الشَّعَف أو بطْن وادٍ من هذه الأودية، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربَّه حتى يأتيَه اليقين، ليس مِن النَّاس إلا في خير**»[2].

قال الأستاذ: الخلوة: صفة أهل الصَّفوة، والعُزْلة: مِن أمارات أهل الوَصلة، ومِن حقِّ العبد - إذا آثر العزْلة - أنْ يعتقد باعتزاله عن الخلْق سلامةَ النَّاس مِن شرِّه، ولا يقصد سلامتَه مِن شرِّ الخلْق، فإنَّ الأول مِن القسمين: نتيجةُ استصغار نفْسه، والثاني: شهودُ مزيَّته على الخلْق، ومَن استصغر نفْسه . . فهو متواضع، ومَن رأى لنفْسه مزيَّة على أحد . . فهو متكبِّر.

ومِن آداب العزْلة: أنْ يُحصِّل مِن العلوم ما يصحِّح به عُقَد توحيده؛ لكي لا يستهويه الشَّيطان بوَساوسه، ثم يُحصِّلَ مِن علوم الشَّرع ما يؤدي به فرْضَه؛ ليكون بِناءُ أمرِه على أساسٍ مُحْكَم.

والعزلة في الحقيقة: اعتزال الخصال المذمومة، فالتأثير لتبديل الصفات لا للتنائي عن الأوطان.

وقد قيل: العارف: كائن بائن، يعني: كائن مع الخلْق، بائن عنهم بالسِّرِّ.

---

(١) الشعفة: جبل.
(٢) أخرجه مسلم (١٨٨٩/ ١٢٥).

قال أبو عثمان المغربي: مَن اختار الخلوة على الصُّحبة . . ينبغي أن يكون خالياً من جميع الأذكار إلا ذِكْرَ ربِّه، وخالياً من جميع الإرادات إلا رضا ربِّه، وخالياً من مُطالبة النَّفْس من جميع الأسباب، فإنْ لم يكن بهذه الصفة . . فإنَّ خلْوتَه توقِعُه في فِتنة أو بليَّة.

قال يحيى بن معاذ: انظر أنسك بالخلوة أو أنسك معه في الخلوة فإن كان أنسك بالخلوة ذهب أنسك إذا خرجت منها، وإن كان أنسك به في الخلوة استوت لك الأماكن في الصحاري والبراري.

سمعت الشِّبليَّ يقول: الإفلاسَ . . الإفلاسَ يا ناس، فقيل له: يا أبا بكر . . ما علامة الإفلاس؟ قال: مِن علامة الإفلاس الاستئناس بالنَّاس.

قال أبو يعقوب السُّوسي: الانفراد لا يقوى عليه إلا الأقوياء، ولأمثالِنا الاجتماع أوفَر وأنفَع، يعمل بعضهم على رؤية بعض[١].

باب التَّقوى

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: ١٣].

بسنده إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله . . أوصني، قال: «**عليك بتقوى الله؛ فإنَّها جماع كل خير، وعليك بالجهاد في سبيل الله؛ فإنَّها رهبانيَّةُ المسلمين، وعليك بذكر الله وتلاوة كتابه؛ فإنَّه نور لك في الأرض، وذكر لك في السماء، واخْزُن لسانَك إلَّا من خير؛ فإنَّك بذلك تغلب الشَّيطان**»[٢].

وأصل التَّقوى اتِّقاء الشِّرك، ثم بعده اتِّقاء المعاصي والسَّيئات، ثم بعده

(١) فتدفعُهم الرُّؤية للعمل.

(٢) أخرجه أبو يعلى في ((مسنده)) (١٠٠٠)، والطبراني في ((المعجم الصغير)) (٩٤٩).

اتِّقاء الشُّبُهات، ثم يدَعُ بعده الفضلات[١].

وجاء في تفسير قوله عزَّ وجلّ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٢]، أنَّ معناه: (أنْ يُطاع فلا يُعصى، ويُذكَر فلا يُنسى، ويُشكَر فلا يُكْفَر)[٢].

وقال النَّصراباذي: التَّقوى: أنْ يتَّقي العبدُ ما سوى الله عزَّ وجلّ.

وقال: مَن لزم التَّقوى . . اشتاق إلى مُفارَقة الدُّنيا؛ لأنَّ الله سبحانه يقول: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنعَام: ٣٢].

وقال ذو النون:

فلا عيشَ إلا مع رجالٍ قلوبُهم تَحِنُّ إلى التَّقوى وترتاح للذِّكر
سكونٌ إلى روح اليقين وطِيبه كما سكَن الطِّفل الرَّضيع إلى الحِجْر

وقال الواسطيُّ: التَّقوى: أنْ يتَّقي مِن تقواه؛ يعني: مِن رؤية تقواه، والمتَّقي مثل ابن سيرين اشترى أربعين حُبَّاً سمْناً، فأخرج غلامُه فأرةً مِن حُبٍّ، فسأله: مِن أيِّ حُبٍّ أخرجتَها؟ فقال: لا أدري، فصبَّها كُلَّها على الأرض.

ورُئي عُتبة الغُلام بمكان يتصبَّب عرقاً في الشتاء، فقيل له في ذلك، فقال: إنه مكان عصيت فيه ربي، فسئل عنه، فقال: كشطْتُ مِن هذا الجدار قطعةَ طين، غَسل بها ضيف لي يدَه، ولَم أستحلَّ مِن صاحبه.

وعن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال: (سادة النَّاس في الدُّنيا الأسخياء، وسادة النَّاس في الآخرة الأتقياء)[٣].

---

(١) أي: بعض الأمور المباحة.

(٢) أخرجه الطبري في ((تفسيره)) (٥/ ٦٣٧) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (١٠٣٩٥) عن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم، ولم أجده عن سيدنا علي رضي الله عنه إلا عند المصنف رحمه الله تعالى.

باب الورع

بسنده إلى أبي ذرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مِن حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»(١).

قال الأستاذ الإمام رضي الله عنه: أمَّا الورع، فإنَّه: ترك الشبهات.

وقال ﷺ لأبي هريرة: «**كُن ورعاً . . تكن أعبد النَّاس**»(٢).

قال الشِّبْليُّ: الورع: أنْ تتورَّع عن كُلِّ ما سوى الله تعالى.

قال أبو سليمان الدَّاراني: الورع أول الزهد كما أنَّ القناعة طرف الرضا.

وقال أبو عثمان: ثواب الورع خِفَّة الحساب.

وقال يونس بن عبيد: الورع: الخروج عن كُلِّ شُبهة، ومحاسبة النَّفْس في كُلِّ طرْفة.

وقال بِشر بن الحارث: أشدُّ الأعمال ثلاثة: الجود في القِلَّة، والورع في الخلوة، وكلمة الحقِّ عند مَن يُخاف منه ويُرجى.

قيل: جاءت أختُ بِشرٍ الحافي إلى أحمدَ ابن حنبل، وقالت: إنا نغزل على سطوحِنا، فتمرُّ بنا مشاعل الظاهريَّة ويقع الشُّعاع علينا، أفيجوز لنا الغزْل في شُعاعها؟ فقال أحمد: مَن أنتِ عافاكِ الله تعالى؟ فقالت: أخت بِشر الحافي، فبكى أحمد، وقال: مِن بيتكم يخرج الورع الصَّادق، لا تغزِلي في شُعاعها.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، ولم أجده من طريق سيدنا أبي ذر إلا عند المصنف رحمه الله تعالى.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢١٧)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٥٣٦٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال سهل بن عبد الله: مَن لَم يصحبْه الورع . . أكل رأسَ الفيل ولم يشبع.

وقيل: حُمل إلى عمر بن عبد العزيز مِسك مِن الغنائم، فقبَض على مَشامِّه[١]، وقال: إنَّما يُنتفَع مِن هذا بريحه، وأنا أكره أنْ أجد ريحَه دون المسلمين.

ورهن أحمد ابن حنبل رحمه الله تعالى سطْلاً له عند بَقَّال بمكة - حرسها الله تعالى - فلمَّا أراد فَكاكه. . أخرج البَقَّال إليه سطْلين، وقال: خُذْ أيهما هو لك، فقال أحمد: أشكَلَ علَيَّ سطْلي، فهو لك، والدَّراهم لك، فقال البَقَّال: سطْلُك هذا، وأنا أردت أنْ أجرِّبَك، فقال: لا آخذُه، ومضى وترك السَّطْل عنده.

باب الزُّهد

بسنده إلى أبي خَلَّاد - وكانت له صُحبة رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: «**إذا رأيتم الرَّجُل المؤمن قد أعطي زُهداً في الدُّنيا وقلَّة مَنطِق . . فاقتربوا منه؛ فإنه يُلْقن الحكمة**»[٢].

قال الأستاذ الإمام أبو القاسم رحمه الله تعالى: اختلف الناس في الزهد فمنهم من قال: الزهد في الحرام؛ لأن الحلال مباح من قبل الله تعالى.

ومنهم من قال: الزهد في الحرام واجب، وفي الحلال فضيلة.

ومنهم من قال: إذا أنفق العبد ماله في الطاعة، وعلم من حاله الصبر وترك التعرض لما نهاه الشرع عنه في حال العسر، فحينئذ يكون زهده في

(١) مشامه: أي: أنفه.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٠١)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١٠٠٤٨).

المال الحلال أتم.

ومنهم من قال: ينبغي للعبد ألَّا يختار ترك الحلال بتكلفه ولا طلب الفضول مما لا يحتاج إليه ويراعي القسمة.

وتكلَّموا في معنى الزُّهد، فكُلٌّ نَطق عن وقته، وأشار إلى حَدِّه، فقيل: الزُّهد مِن قوله سبحانه وتعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، فالزَّاهد لا يفرح بموجود مِن الدُّنيا، ولا يتأسَّف على مفقود منها.

قال ابن الجَلَّاء: الزُّهد: هو النَّظر إلى الدُّنيا بعين الزَّوال؛ لتصغُر في عينك، فيسهُلَ عليك الإعراض عنها.

وقال الجنيد: الزهد خُلُوُّ القَلب عما خَلَتْ منه اليد.

وقال أبو سليمان الدَّاراني: الزُّهد: ترْك ما يُشغِل عن الله سبحانه وتعالى.

وسُئل الجنيد عن الزهد فقال: هو استصغار الدُّنيا، ومحْوُ آثارها مِن القلب.

وقال أبو عثمان: إنَّ الله تعالى يعطي الزَّاهد فوق ما يريد، ويعطي الرَّاغب دون ما يريد، ويعطي المستقيم موافقةَ ما يريد.

وقال الكَتَّاني: الشيء الذي لَم يخالِف فيه كوفيٌّ ولا مدنيٌّ ولا عراقيٌّ ولا شاميٌّ: الزُّهد في الدُّنيا، وسخاوة النَّفْس، والنَّصيحة للخلْق، يعني: أنَّ هذه الأشياء لا يقول أحد إنها غيرُ محمودة.

وقال أحمد ابن حنبل: الزُّهد على ثلاثة أوجه: تَركُ الحرام، وهو زُهد العوام، والثَّاني: ترْك الفضول من الحلال، وهو زُهد الخواص، والثَّالث: ترْك ما يَشغَل العبدَ عن الله تعالى، وهو زُهد العارفين.

قال الفضيل بن عياض: جعل الله الشَّرَّ كُلَّه في بيت وجعل مِفتاحه حُبَّ الدُّنيا، وجعل الخير كُلَّه في بيت وجعل مِفتاحه الزُّهدَ.

باب الصمت

بسنده إلى أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر . . فلا يؤذِ جاره، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر . . فليُكرمْ ضيفه، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر . . فليقُلْ خيراً أو ليصمُت**»(١).

وبسنده إلى عقبة بن عامر ﷺ قال: قلت: يا رسول الله . . ما النجاة؟ قال: «**أمسك عليك لسانك، ولْيَسعْك بيتُك، وابْكِ على خطيئتك**»(٢).

قال الأستاذ رحمه الله تعالى: الصمت سلامة وهو الأصل وعليه ندامة إذا ورد عنه الزجر فالواجب أن يُعتبرَ فيه الشرعُ والأمرُ والنهيُ.

والسُّكوت في وقته صفة الرِّجال، كما أنَّ النُّطق في موضعه مِن أشرف الخصال.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق يقول: من سكت عن الحق فهو شيطان أخرس.

وأنشدوا:

رأيت الكلام يَزين الفتى والصَّمتُ خير لمن قد صمت
فكم مِن حروف تجُرُّ الحُتوف ومِن ناطق وَدَّ أنْ لو سكت

فأمَّا إيثار أرباب المجاهدة السُّكوت . . فلِما علموا ما في الكلام مِن الآفات؛ ثم ما فيه مِن حظِّ النَّفْس وإظهار صفات المدح، والميل إلى أنْ

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧/ ٧٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٠٦)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٧٨٤).

يتميَّز بين أشكاله[١] بحُسْن النُّطق وغير هذا من آفات في الخُلُقِ، وذلك نعت أرباب الرِّياضات، وهو أحد أركانهم في حكم المنازَلة وتهذيب الخُلُق.

قال بِشر بن الحارث: إذا أعجبك الكلام . . فاصمُت، وإذا أعجبك الصَّمت . . فتكلَّم.

قال علي بن بَكَّار: جعل الله تعالى لكُلِّ شيء بابين، وجعل للِّسان أربعة أبواب: فالشَّفتان مِصراعان، والأسنان مِصراعان.

وقال بعض الحكماء: إنِّما خُلق للإنسان لسان واحد وعينان وأذُنان؛ ليسمع ويبصرَ أكثرَ مما يقول.

ودُعي إبراهيم بنُ أدهم إلى دعوة، فلمَّا جَلس . . أخذوا في الغِيبة، فقال: عندنا يُؤكل اللَّحم بعد الخبز، وأنتم ابتدأْتم بأكل اللَّحم؟ أشار إلى قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحُجرَات: ١٢].

وقال بعضهم: تعلم الصمت كما تتعلم الكلام فإن كان الكلام يهديك فإن الصمت يقيك.

وقيل: عفة اللسان صمته.

وقال الفضيل بنُ عياض: مَن عَدَّ كلامَه مِن عمله . . قَلَّ كلامُه إلا فيما يعنيه.

---

(١) أي: أقرانه وأمثاله.

باب الخوف

قال الله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السَّجدَة: ١٦].

بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل النار من بكى مِن خشية الله تعالى حتى يلِجَ اللَّبن في الضَّرْع، ولا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودُخانُ جهنَّم في مِنخرَيْ عبد مسلم أبداً**»(١).

وبسنده إلى أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم . . لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً**»(٢).

والخوف مِن الله تعالى هو: أنْ يخافَ أنْ يعاقبَه الله تعالى إمَّا في الدُّنيا وإمَّا في الآخرة.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق رحمه الله تعالى يقول: الخوف على مراتب: الخوف، والخشية، والهيبة.

فالخوف مِن شرط الإيمان وقضيتِه؛ قال الله تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٥].

والخشية مِن شرط العلم؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فَاطِر: ٢٨].

والهيبة مِن شرط المعرفة؛ قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عِمرَان: ٢٨].

وقال أبو حفص: الخوف سِراج القلب، به يُبصَر ما فيه مِن الخير والشَّر.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٠٥٦٠)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٧٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٢١)، ومسلم (٢٣٥٩/ ١٣٤).

وقال أبو عمر الدِّمشقي: الخائف مَن يخاف مِن نفْسه أكثر مما يَخاف مِن الشَّيطان.

قيل: ليس الخائف الذي يبكي ويمسح عينيه، إنما الخائف من يترك ما يخاف أن يعذب عليه.

وقال يحيى بن معاذ: مسكين ابن آدم، لو خاف من النَّار كما يخاف من الفقر . . لدخل الجنَّة.

وقال أبو سليمان الدَّاراني: ما فارق الخوفُ قلباً إلَّا خرِب.

وبسنده إلى عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله . . ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، أهو الرَّجُل يسرق ويزني ويشرب الخمر؟ قال: «**لا، ولكنِ الرَّجُل يصوم ويصلِّي ويتصدَّق ويخاف ألَّا يُقبلَ منه**»(١).

قال إبراهيم بن شيبان: إذا سكن الخوفُ القلب . . أَحرق مواضع الشَّهوات منه، وطرد رغبة الدُّنيا عنه.

وقال الواسطي: الخوف والرَّجاء زِمامان على النُّفوس؛ لئلا تخرجَ إلى رُعوناتها.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق رحمه الله تعالى ينشد كثيراً:

أحسنْتَ ظنَّك بالأيام إذ حسُنَتْ ولم تَخفْ سوء ما يأتي به القَدَر
وسالمَتْك اللَّيالي فاغترْتَ بها وعند صفوِ اللَّيالي يحدُث الكدر

وقال حاتِم الأصمُّ: لا تغترَّ بموضع صالح؛ فلا مكانَ أصلَحُ مِن الجنَّة، فلقيَ آدم - عليه السلام - فيها ما لقي، ولا تغترَّ بكثرة العبادة؛ فإنَّ إبليس بعد طول تعبُّده لقي ما لقي، ولا تغترَّ بكثرة العلم؛ فإنَّ بِلعام كان يُحسِن اسم الله الأعظم، فانظر ماذا لقي، ولا تغترَّ برؤية الصَّالحين؛ فلا شخص أكبر قدْراً مِن المصطفى ﷺ، ولَم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٥٧٠٥)، وابن ماجه (٤١٩٨).

باب الرَّجاء

قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ﴾ [العَنكبوت: ٥].

بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى يوم القيامة: أخرجوا مِن النَّار مَن كان في قلبه مثقالَ حبَّةٍ شعيرة مِن إيمان، ثم يقول: أخرجوا مِن النَّار مَن كان في قلبه مثقالَ حبَّةٍ خرْدل مِن إيمان، ثم يقول: وعزَّتي وجلالي . . لا أجعلُ مَن آمن بي ساعةً مِن ليل أو نهار كمَن لَم يؤمن بي**»(١).

الرَّجاء: تعلُّق القلب بمحبوب سيحصل في المستقبل.

والفرق بين الرَّجاء وبين التَّمنِّي: أنَّ التَّمنِّي يورِث صاحبَه الكسل، ولا يسلُك طريق الجُهْد والجِد، وبعكسه صاحب الرَّجاء، فالرَّجاء محمود، والتَّمنِّي معلول(٢).

وقال ابن خُبيق: الرَّجاء ثلاثة: رجل عمل حسنة فهو يرجو قَبولَها، ورجل عمل سيئة ثم تاب فهو يرجو المغفرة، والثالث: الرَّجُل الكاذب يتمادى في الذُّنوب ويقول: أرجو المغفرة.

ومَن عرف نفسه بالإساءة . . ينبغي أنْ يكون خوفُه غالباً على رجائه.

وقيل: الرَّجاء: ثقة الجود من الكريم الودود.

قال أبو علي الروذباري: الخوف والرجاء هما كجَناحَي الطَّائر، إذا استويا . . استوى الطَّير وتمَّ طيرانه، وإذا نقَص أحدُهما . . وقع فيه النَّقص،

---

(١) أخرجه الطبراني في ((الأوسط)) (٣٩٧٦).

(٢) أي: مذموم.

وإذا ذهبا . . صار الطَّائر في حدِّ الموت.

ورئي مالك بن دينار في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: قدِمْت على ربي عزَّ وجلّ بذنوب كثيرة، محاها عنِّي حُسنُ ظنِّي به تعالى.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقول الله عزَّ وجلّ: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، إنْ ذكرني في نفْسه . . ذكرتُه في نفْسي، وإنْ ذكرني في ملأ . . ذكرته في ملأ هو خير منه، وإنِ اقترب إليَّ شِبراً . . اقتربْت إليه ذراعاً، وإنِ اقترب إليَّ ذراعاً . . اقتربت إليه باعاً، وإنْ أتاني يمشي . . أتيتُه هرولة**»[(١)].

ويُحكى عن إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه أنه قال: كنت أنتظر مدَّة مِن الزَّمن أنْ يخلوَ المطاف لي، فكانت ليلة ظلماء فيها مطر شديد، فخلا المطاف، فدخلت للطَّواف، وكنت أقول فيه: اللهم . . اعصمني، اللهم . . اعصمني، فسمعت هاتفاً يقول لي: يا ابن أدهم . . أنت تسألُني العِصْمة، وكُلُّ النَّاس يسألوني العِصْمة، فإذا عصمْتُكم . . فمَن أرحم.

وقيل: كان رجل شِرِّيب[(٢)]، جمعَ قوماً من نُدمائه، ودفع إلى غلام له أربعة دراهم، وأمره أنْ يشتريَ بها شيئاً من الفواكه للمجلس، فمرَّ الغلام بباب مجلس منصور بن عمَّار وهو يسأل لفقير شيئاً، ويقول: مَن دفع له أربعة دراهم . . دعوتُ له أربعَ دعَوات، قال: فدفع له الغلام الدَّراهم، فقال منصور: ما الذي تريد أنْ أدعوَ لك به؟ فقال: لي سيِّد أريد أنْ أتخلَّص منه، فدعا لي منصور بذلك، وقال: ما الأُخرى؟ فقال: أن يُخلِف الله تعالى علَيَّ دراهمي، فدعا لي بذلك، ثم قال: وما الأخرى؟ فقال: أنْ يتوبَ الله على

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥/ ٢).

(٢) أي: كثير شرب الخمر.

سيَّدي، فدعا، قال: وما الأخرى؟ فقال: أنْ يغفرَ الله لي ولسيِّدي ولك وللقوم، فدعا منصور بذلك، فرجع الغلام إلى سيده، فقال له: لِمَ أبطأْت؟ فقصَّ عليه القصة، فقال له: وبمَ دعا؟ فقال: سألْت لنفسي العتق، فقال: اذهب فأنت حر، وما الثَّاني؟ فقال: أنْ يُخِلف الله علَيَّ الدَّراهم، فقال: لك أربعة آلاف درهم، فقال: وما الثَّالث؟ فقال: أنْ يتوب الله عليك، فقال: تبْتُ إلى الله تعالى، فقال: وما الرَّابع؟ فقال: أنْ يغفر الله تعالى لك ولي وللقوم وللمذكِّر، فقال: هذا الواحد ليس إليَّ، فلمَّا بات . . رأى في المنام كأنَّ قائلاً يقول له: أنت فعلت ما كان إليك[1]، تُراني لا أفعل ما إليَّ؟ قد غفرت لك وللغلام ولمنصور بن عمَّار وللقوم الحاضرين.

عن إبراهيم الأطروش قال: كنا قعوداً ببغداد، مع معروف الكرخي على الدجلة إذ مرَّ بنا قومٌ أحداث في زورق يضربون بالدفِّ ويشربون ويلعبون، فقلنا لمعروف: أما تراهم كيف يعصون الله تعالى مجاهرين؟! أُدْعُ الله عليهم فرفع يده وقال: إلهي كما فرَّحتهم في الدنيا ففرحهم في الآخرة، فقالوا: إنما سألناك أن تدعو عليهم! فقال: إذا فرَّحهم في الآخرة فقد تاب عليهم.

(١) ما كان بوسعك أنْ تفعلَه.

باب الحُزن

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فَاطِر: ٣٤].

بسنده إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من شيء يصيب العبد المؤمن، من وَصَب[١] أو نَصب[٢] أو حُزن أو ألَم يهمه[٣] إلا كفَّر الله تعالى عنه من سيئاته**»[٤].

الحُزن: حال يقبِض القلب عن التَّفرُّق في أودية الغفلة، والحزن: من أوصاف أهل السلوك.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق رحمه الله تعالى يقول: صاحب الحُزن يقطع مِن طريق الله في شهر ما لا يقطعُه مَن فَقَدَ حُزنَه سنين.

رويَ أنَّ رسول الله ﷺ «**كان متواصل الأحزان دائم الفِكْر**»[٥].

سمعَتْ رابعة العدوية رجُلاً يقول: واحُزناه، فقالت: قل: واقِلَّة حُزناه، لو كنت محزوناً .. لَم يتهيَّأ لك أن تتنفَّس.

وقال سفيان بن عُيينة: لو أنَّ محزوناً بكى في أُمَّة .. لَرحم الله تعالى تلك الأُمَّةَ ببكائه.

قال وكيع لما مات الفضيل: ذهب الحزن اليوم من الأرض.

---

(١) أي: المرض.

(٢) أي: التَّعب.

(٣) أي: يقلقه.

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٧٣/ ٥٢)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٩٣٧٢).

(٥) أخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (١٣٦٢)، والطبراني في ((الكبير)) (٤١٤) عن سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنه.

وقال الفضيل بن عياض: كان السَّلف يقولون: (إنَّ على كُلِّ شيء زكاة، وزكاة العقل[١] طول الحُزن)[٢].

بابُ الجوع وتَرْكِ الشَّهوة

قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ الآية، ثم قال في آخر الآية: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، فبشَّرَهم بجميل الثَّواب على الصَّبر على مُقاساة[٣] الجوع.

وقال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاءت فاطمة - رضي الله عنها - بكِسرة خبز لرسول الله ﷺ، فقال: «**ما هذه الكِسرة يا فاطمة؟**»، قالت: قُرص خبزْته، ولم تطِبْ نفْسي حتى أتيتُك بهذه الكِسرة، فقال: «**أمَا إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام**»[٤].

ولهذا كان الجوع مِن صفات القوم، وهو أحد أركان المجاهدة، فإنَّ أرباب السُّلوك تدرجوا إلى اعتياد الجوع والإمساك عن الأكل، ووجدوا ينابيعَ الحكمة في الجوع.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق رحمه الله تعالى يقول: دخل بعضهم على بعض الشُّيوخ، فرآه يبكي، فقال له: ما لَك تبكي؟ فقال: إنِّي جائع، فقال: ومثلُك يبكي من الجوع؟! فقال: اُسكُت، أمَا علمتَ أنَّ مرادَه مِن جوعي أنْ أبكي.

---

(١) أي: القلب.

(٢) أخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٤٣٥١).

(٣) في نسخة: في مقاساة.

(٤) أخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٢٥٩٦).

قال أبو سليمان الدَّاراني: مفتاح الدُّنيا الشبع، ومفتاح الآخرة الجوع.

قيل لسهل بن عبد الله: - الرَّجُل يأكل في اليوم أكلة - فقال: أكْلُ الصِّدِّيقين، قال: فأكلتين؟ قال: أكل المؤمنين؟ قال: فثلاثة؟ قال: قُل لأهلك يبنون لك معلَفاً.

قال يحيى بن معاذ: الجوع نور، والشِّبَع نار، والشَّهوة مثل الحطب يتولَّد منه الاحتراق، ولا تُطْفَأ نارُه حتى يَحرِقَ صاحبَه.

وقال أبو سليمان الدَّاراني: لَأنْ أترُك مِن عَشائي لُقمة . . أحبُّ إليَّ مِن أنْ أقوم اللَّيل إلى آخره.

وقال أبو علي الروذباري: إذا قال الصُّوفيُّ بعد خمسة أيام: أنا جائع . . فألزِموه السُّوق ومروه بالكسْب.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق يقول - حاكياً عن بعض المشايخ أنه قال -: إنَّ أهل النَّار غَلبت شهوتُهم حِمْيَتهم، فلذلك افتُضِحوا.

وسمعته يقول: قيل لبعضهم: ألا تشتهي؟ فقال: أشتهي، ولكنْ أحتمي.

باب الخشوع والتَّواضع

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١-٢].

بسنده إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يدخل الجنَّة مَن في قلبه مثقال ذرَّة مِن كِبْر، ولا يدخل النَّار مَن في قلبه مثقال ذرَّة مِن إيمان**»، فقال رجل: يا رسول الله . . إنَّ الرَّجُل يحبُّ أنْ يكون ثوبُه حَسَناً، فقال: «**إنَّ الله تعالى جميل يحبُّ الجمال، الكِبْر: مَن بَطَر الحقَّ، وغَمَط النَّاس**»[1].

(١) أخرجه مسلم (٩١/ ١٤٧)، والترمذي (١٩٩٩).

وبسنده إلى أنس بن مالك ﷺ قال: (كان رسول الله ﷺ يعُود المريض، ويشيِّع الجنائز، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد، وكان يومَ قريظةَ وبني نضيرٍ على حمارٍ مخطوم بحبْل مِن لِيف عليه إكاف[١] مِن لِيف)[٢].

الخشوع: الانقياد للحقِّ.

والتَّواضع: هو الاستسلام للحقِّ، وترْك الاعتراض على الحُكْم.

قال بعضهم: خشوع القلب قيد العيون عن النظر.

وسئل الجنيد عن الخشوع، فقال: تذلُّل القلوب لعَلَّام الغيوب؛ قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفُرقان: ٦٣].

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق رحمه الله تعالى يقول: معناه: متواضعين متخاشعين، وسمعته يقول: هم الذين لا يستحسنون شِسْعَ[٣] نعالِهم إذا مشَوا.

وقال الفضيل بن عياض: كان يُكرَه أنْ يُرى على الرَّجُل مِن الخشوع أكثرَ مما في قلبه.

وبسنده إلى ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنَّة مَن في قلبه مثقال حبَّة مِن خردل مِن كِبْر**»[٤].

وكان عمر بن عبد العزيز يكتبُ ليلةً شيئاً وعنده ضيف، فكاد السِّراج ينطفئ، فقال الضَّيف: أقوم إلى المصباح فأصلحه؟ فقال: لا، ليس من الكرم استخدام الضَّيف، قال: فأُنبِّه الغلام؟ قال: لا، هي أوَّل نومة نامَها، فقام إلى البطَّة[٥]، وجعل الدُّهنَ في المصباح، فقال الضَّيف: قُمتَ بنفسك يا أميرَ

(١) برذعة.

(٢) أخرجه الترمذي (١٠١٧)، وابن ماجه (٤١٧٨).

(٣) قطعة تُمسِك النَّعل بأصابع القدم.

(٤) أخرجه الترمذي (١٩٩٨)، وأخرجه مسلم (٩١/ ١٤٩) من رواية سيدنا ابن مسعود ﷺ.

(٥) وهي إناء صغير على شكل بطَّة يوضع فيه الدُّهن.

المؤمنين؟! فقال له عمر: ذهبْت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر.

وقال الفضيل بن عياض: مَن رأى لنفسه قيمة . . فليس له في التَّواضع نصيب.

وسئل الفضيل عن التَّواضع، فقال: تَخضعُ للحقِّ، وتَنقاد له، وتَقبلُه ممن قاله.

قال إبراهيم بن شيبان: الشَّرف في التَّواضع، والعِزُّ في التَّقوى، والحريَّة في القناعة.

وقال عروة بن الزُّبير ﷺ: رأيت عمر بن الخطاب ﷺ، وعلى عاتقه قِرْبةُ ماء، فقلت: يا أمير المؤمنين . . لا ينبغي لك هذا، فقال: لمَّا أتاني الوفود سامعين مطيعين . . دخلَتْ في نفْسي نخْوة[١]، فأحببْتُ أنْ أكسِرها، ومضى بالقِرْبة إلى حُجرة امرأة مِن الأنصار، فأفرغَها في إنائها.

وقال أبو نصر السَّراج الطُّوسي: رُئي أبو هريرةَ - وهو أمير المدينة - وعلى ظهره حُزْمة حطب، وهو يقول: طَرِّقوا للأمير[٢].

وبلغ عمرَ بن عبد العزيز ﷺ أنَّ ابناً له اشترى فَصَّاً بألف درهم، فكتب إليه عمر: بلغني أنك اشتريت فَصَّاً بألف درهم، فإذا أتاك كتابي هذا . . فبع الخاتَم، وأَشبع ألف بطن، واتخِّذْ خاتَماً مِن درهمين، واجعل فَصَّه حديداً صينيّاً، واكتب عليه " رحم الله امرءاً عرفَ قدْر نفْسه ".

---

(١) كِبْر وعظَمة.

(٢) أي: أوسعوا الطَّريق.

باب مخالفة النَّفْس وذِكر عيوبها

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النَّازعَات: ٤٠-٤١].

بسنده إلى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «**أخوَفُ ما أخاف على أُمَّتي: اتِّباع الهوى، وطول الأمل، فأمَّا اتِّباع الهوى . . فيصُدُّ عن الحقِّ، وأمَّا طول الأمل . . فيُنسي الآخرة**»(١).

اعلم أن من نجمت طوارقُ نفسه، أَفَلَتْ شوارقُ أُنسه.

وقال ابن عطاء: النَّفْس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازَمة الأدب، فالنَّفْس تجري بطبعها في مَيدان المخالفة، والعبد يردُّها بجُهده عن سوء المطالبة، فمَن أطلق عِنانها . . فهو شريكُها معها في فسادها.

وقال أبو حفص: مَن لَم يتَّهِمْ نَفْسه على دوام الأوقات، ولَم يخالفْها في جميع الأحوال، ولَم يجُرَّها إلى مكروهها في سائر أيامه . . كان مغروراً، ومَن نظر إليها باستحسانِ شيء منها . . فقد أهلكَها.

وقال أبو بكر الطِّمِسْتاني: النِّعمة العُظمى: الخروج مِن النَّفْس؛ لأن النَّفس أعظم حجاب بينك وبين الله عزَّ وجلّ.

وقال سهل بن عبد الله: ما عُبِدَ اللهُ بشيء مثلِ مخالفةِ النَّفْس والهوى.

وقال أبو سليمان الدَّاراني: مَن أحسنَ في ليله . . كوفئ في نهاره، ومَن أحسنَ في نهاره . . كوفئ في ليله، ومَن صدَق في ترْك شهوة . . كُفي مُؤْنتَها، والله أكرم مِن أنْ يعذِّبَ قلباً ترَك شهوةً لأجْله.

---

(١) أخرجه ابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٥٢/ ٢٤٣)، وأورده الإمام السيوطي في ((جامع الأحاديث)) (٢/ ٧٩) وعزاه لابن النجار.

قال جعفر بن نُصير: دفَع إليَّ الجنيد درهماً، وقال: اشترِ لي به التِّين الوزيري، فاشتريته له، فلمَّا أفطر . . أخذ واحدة ووضعها في فمه، ثم ألقاها، وبكى وقال: اِحملْه، فقلت له في ذلك، فقال: هتف في قلبي: أما تستحي !؟ شهوةٌ تركتَها مِن أجْلي، ثم تعود إليها !

وأنشدوا:

نون الهوان من الهوى مسروقة وصريع كُلِّ هوىً صريع هوان

واعلم أنَّ للنَّفْس أخلاقاً ذميمة، فمن ذلك: الحسد.

باب الحسد

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلَق: ١-٢]، ثم قال: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلَق: ٥].

بسنده إلى ابن مسعود رضي الله عنه قال: أنَّ النبي ﷺ قال: «**ثلاث هُنَّ أصل كُلِّ خطيئة فاتَّقوهنَّ واحذَروهنَّ: إيَّاكم والكِبْر؛ فإنَّ إبليس حمَلَه الكِبْر على ألَّا يسجُدَ لآدم، وإيَّاكم والحِرْص؛ فإنَّ آدم حمَلَه الحِرْص على أنْ أكل مِن الشَّجرة، وإيَّاكم والحسد؛ فإنَّ ابنَي آدم إنَّما قَتل أحدُهما صاحبَه حسداً**»[1].

وقال بعضهم: الحاسد جاحد؛ لأنه لا يرضى بقضاء الواحد.

وقيل: أثر الحسد يتبيَّن فيك قبْل أنْ يتبيَّن في عدوِّك.

وقال الأصمعيُّ: رأيتُ أعرابيًّاً أتى عليه مائة وعشرون سنة، فقلت له: ما أطولَ عمرَك ! فقال: تركْت الحسد، فبقيت.

وقال معاوية: كُلُّ إنسان أقدِرُ على أنْ أُرضيَه، إلا الحاسد؛ فإنه لا يرضِيه

(١) أخرجه ابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٤٩/ ٣٩).

إلا زوال النِّعمة.

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: ما رأيت ظالماً أشبهَ بمظلوم مِن الحاسد، غَمٌّ دائم ونَفَس متتابع.

وقال معاوية رضي الله عنه: ليس في خِلال الشَّرِّ خَلَّة أعدل مِن الحسد، تقتل الحاسد قبْل المحسود.

وقيل: إذا أردْت أنْ تَسلَم مِن الحاسد . . فلبِّسْ[1] عليه أمرَك.

وأنشدوا:

كُلُّ العداوة قد تُرْجى إماتتُها إلا عداوة مَن عاداك مِن حَسَدِ

ومِن الأخلاق المذمومة للنَّفْس: اعتياد الغِيبة.

باب الغِيبة

قال الله سبحانه: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحُجرَات: ١٢].

بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رجُلاً قام، وهو مع رسول الله ﷺ قبل ذلك جالسٌ، فقال بعض القوم: ما أعجَز فلاناً! فقال ﷺ: «**أكلتُم أخاكم واغتبتموه**»[2].

وقيل: دُعيَ إبراهيم بن أدهم إلى دعوة، فحضَر، فذكروا رجُلاً لَم يأتِهم، فقالوا: إنه ثقيل، فقال إبراهيم: إنَّما فَعَل بي هذا نفْسي، حيث حضرْت

(١) أي: أُستُر نِعَم الله عليك.

(٢) أخرجه الطبراني في ((الأوسط)) (٤٥٨)، وأورده الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/ ٩٤) وعزاه لأبي يعلى في ((مسنده)).

موضعاً يُغتاب فيه النَّاس، فخرج ولَم يأكل ثلاثة أيام.

وقيل: مثَل الذي يغتاب النَّاس كمثَل مَن نَصب مِنجنيقاً يرمي به حسناتِه شرقاً وغرباً، يَغتاب واحداً خراسانيَّاً، وآخَر تركيَّاً، فيفرِّق حسناتِه، ويقوم لا شيء معه.

وقال سفيان بن الحسين: كنت جالساً عند إيَاس بن معاوية، فنِلتُ مِن إنسان، فقال لي: هل غزوْتَ في هذا العام التُّرْك والرُّوم؟ فقلت: لا، فقال: سَلِمَ منك التُّرْك والرُّوم وما سَلِم منك أخوك المسلم؟!

وقال يحيى بن معاذ: لِيكُن حظُّ المؤمن منك ثلاثَ خصال: إنْ لَم تنفعْه.. فلا تضرَّه، وإنْ لَم تسُرَّه.. فلا تَغُمَّه، وإنْ لَم تمدحْه.. فلا تَذُمَّه.

قيل للحسن البصري: إن فلاناً اغتابك.. فبعث إليه طبق حلواء وقال: بلغني أنك أهديت إليَّ حسناتك فكافأتك.

قال الجنيد: كنت جالساً في مسجد الشونيزية أنتظر جنازةً أصلي عليها - وأهل بغداد على طبقاتهم جلوس ينتظرون الجنازة - فرأيت فقيراً عليه أثر النُّسُك يسأل النَّاس، فقلت في نفسي: لو عمل هذا عملاً يصون به نفسه كان أجمل به، فلما انصرفت إلى منزلي وكان لي شيء من الورد بالليل، حتى البكاء والصلاة وغير ذلك فثقل عليَّ جميع أورادي فسهرت وأنا قاعد فغلبتني عيناي فرأيت ذلك الفقير جاؤوا به على خوان ممدد وقالوا لي كُلْ لحمَه فقد اغتبته وكشف لي عن الحال، فقلت: ما اغتبته إنَّما قلت في نفسي شيئاً فقيل لي: ما أنت ممن يرضى بمثله، اذهب فاستحله، فأصبحت ولم أزل أتردد حتى رأيته في موضعٍ يلتقط من الماء عند تزايد الماء أوراقاً من البقل مما تساقط من غسل البقل، فسلمت عليه فقال: يا أبا القاسم تعود؟ فقلت: لا، قال: غفر الله لنا ولك.

باب القناعة

قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النّحل: ٩٧].

بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كُن ورِعاً .. تكُنْ أعْبَد النَّاس، وكن قنِعاً .. تكن أشْكَر النَّاس، وأحِبَّ للنَّاس ما تحبُّ لنَفْسِك .. تكُن مؤمناً، وأحسِنْ مجاورة مَن جاورك .. تكُن مسلماً، وأقِلَّ الضَّحِك؛ فإنّ كثْرة الضَّحِك تُميْت القلب**»(١).

قال أبو سليمان الدَّاراني: القناعةُ مِن الرِّضا بمنزلة الورع مِن الزُّهد، هذا أوَّل الرضا، وهذا أوَّل الزُّهد.

وقال أبو عبد الله بن خفيف: القناعة: ترك التَّشوُّف إلى المفقود، والاستغناء بالموجود.

وقال محمد بن علي الترمذي: القناعة رضا النفس بما قسم لها من الرزق.

وقال إبراهيم المارستاني: انتقم مِن حِرْصك بالقناعة كما تنتقم مِن عدوِّك بالقِصاص.

وقيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الانفطار: ١٣]: هو القناعة في الدُّنيا، ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٤]، هو الحِرْص على الدُّنيا.

وقيل لأبي يزيد: بمَ وصلْت إلى ما وصلْت؟ فقال: جمعْت أسباب الدُّنيا، فربطتها بحبل القناعة، ووضعتها في مِنجنيق الصِّدق، ورميت بها في

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٥)، وابن ماجه (٤٢١٧).

بحر اليأس، فاسترحت.

قال محمد بن فرحان بسامرةَ: سمعت خالي عبد الوهاب يقول: كنت جالساً عند الجنيد - أيامَ الموسم - وحولَه جماعة كثيرون من العجم والمولَّدِين، فجاءه إنسان بخمسمائة دينار، ووضعها بين يديه، وقال: تُفرِّقُها على هؤلاء الفقراء، فقال: أَلَك غيرُها؟ فقال: نعم، لي دنانيرُ كثيرة، فقال: أتريد غيرَ ما تملِك؟ فقال: نعم، فقال له الجنيد: خذها؛ فإنك أحوَجُ إليها منَّا، ولم يقبلها.

باب التَّوكُّل

قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

بسنده إلى عبد الله بن مسعود، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أُريْت الأُممَ بالموسم، فرأيت أُمَّتي قد مَلَؤوا السَّهل والجبل، فأعجبني كثرتهم وهيئتهم، فقيل لي: أرضيتَ؟ فقلت: نعم، قال: ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنَّة بغير حساب، لا يكتوون، ولا يتطيرون، ولا يَسترقون، وعلى ربِّهم يتوكَّلون**»، فقام عُكَّاشة بن مِحصَن الأسدي، فقال: يا رسول الله . . أُدعُ الله أنْ يجعلني منهم، فقال رسول الله ﷺ: «**اللهمَّ . . اجعله منهم**»، فقام آخر، فقال: أُدعُ الله أنْ يجعلني منهم، فقال ﷺ: «**سبقك بها عُكَّاشة**»[(١)].

قال حمْدُون: التَّوكُّل: هو الاعتصام بالله تعالى[(٢)].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣٨١٩)، والبخاري في ((الأدب المفرد)) (٩١١)، وله شاهد في ((صحيح البخاري)) (٥٧٥٢) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أي: الاعتماد عليه تعالى.

وقال أحمد بن خضْرويه: قال رجُل لحاتم الأصم: مِن أين تأكل؟ فقال: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنَافِقون: ٧].

قال الشَّيخ الإمام: واعلم أنَّ التَّوكُّل محلُّه القلب، والحركةُ بالظَّاهر لا تُنافي التَّوكُّل بالقلب، بعدما تحقَّق العبد أنَّ التَّقدير مِن قِبَل الله تعالى، فإنْ تعسَّر شيءٌ . . فبتقديره، وإنْ اتَّفق شيء . . فبتيسيره.

وبسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء رجُل على ناقة له، فقال: يا رسول الله . . أدَعُها[١] وأتوكَّل؟ فقال ﷺ: «**اعقلها وتوكَّل**»[٢].

قال بشر الحافي: يقول أحدُهم: توكَّلت على الله، ويكذب على الله تعالى، لو توكَّل على الله . . لرضي بما يفعله الله به.

قال عبد الله بن المبارك: سمعت حمْدُون القصَّار - وسئل عن التَّوكُّل - فقال: إنْ كان لك عشرة آلاف درهم، وعليك دانقُ[٣] دَينٍ . . لَم تأمنْ أنْ تموتَ ويبقى ذلك في عنُقك، ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دَين، ومِن غير أنْ تترك لها وفاء . . لا تيئسْ مِن الله تعالى أنْ يقضيَه عنك.

وقال سهل بن عبد الله: التَّوكُّل حالُ[٤] النبي ﷺ، والكَسْب سُنَّتُه، فمَن بقي على حاله . . فلا يتركنَّ سُنَّته.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق رحمه الله تعالى يقول: للمتوكِّل ثلاث درجات: التَّوكُّل، ثم التَّسليم، ثم التَّفويض، فالمتوكِّل يسكن إلى وعده[٥]،

---

(١) أي: أتركها.

(٢) أخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (١١٦١).

(٣) وهو سُدُس الدّرهم.

(٤) أي: صفته وخلُقه ومقامه.

(٥) وعد الله سبحانه في قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هُود: ٦].

وصاحب التَّسليم يكتفي بعِلمه[١]، وصاحب التَّفويض يرضى بحُكمه.

وسمعته يقول: التَّوكُّل بداية، والتَّسليم واسطة، والتَّفويض نهاية.

وجاء رجُل إلى الشِّبلي يشكو إليه كثرة العيال، فقال: ارجع إلى بيتك، فمَن ليس رزْقُه على الله تعالى . . فاطرحْه عنك.

وقيل لحبيب العَجَمي: لِمَ تركْت التِّجارة؟ فقال: وجدت الكفيل ثقة.

وقال عبد الله بن المبارك: مَن أخذ فَلْساً مِن حرام . . فليس بمتوكِّل.

قال حذيفة المَرْعشي - وكان قد خدَم إبراهيم بن أدهم وصَحِبَه - فقيل له: ما أعجبَ ما رأيت منه؟ فقال: بقِينا في طريق مكَّة أيَّاماً لَم نجدْ طعاماً، ثم دخلْنا الكوفة، فأَوَينا إلى مسجدٍ خرابٍ، فنظر إليَّ إبراهيم بن أدهم وقال: يا حذيفة . . أرى بك أثر الجوع، فقلت: هو ما رآه الشَّيخ، فقال علَيَّ بِدَواةٍ وقِرْطاس، فجِئْت به، فكتبَ: بسم الله الرَّحمن الرَّحيم أنت المقصود إليه بكلِّ حال والمُشار إليه بكلِّ معنىً

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر أنا جائع أنا ضائع أنا عاري

هي ستة وأنا الضَّمين لنِصفها فكُن الضَّمينَ لنِصفها يا باري

مدحي لغيرك لهْبُ نار خضْتُها فأجِرْ عُبيدَك مِن دخول النَّار[٢]

والنَّار عندي كالسُّؤال فهل تَرى أنْ لا تكلِّفَني دخولَ النَّار

ثم دفعَ إليَّ الرُّقعة، قال: أُخرج ولا تعلِّقْ قلبَك بغير الله تعالى، وادفع الرُّقعة إلى أوَّل مَن يلقاك، قال: فخرجْت، فأوَّل مَن لقيني رجُل كان على بغلة، فدفعتُها إليه، فأخذها وبكى، وقال: ما فَعل صاحب هذه الرُّقعة؟

(١) أي: بعلم الله تعالى.

(٢) أي: مِن مدْح غيرِك.

فقلت: هو في المسجد الفُلاني، فدفع إليَّ صُرّةً فيها ستمائة دينار، ثم لقيت رجُلاً آخر، فقلت له: مَن صاحب هذه البغلة؟ فقال لي: هو نصرانيٌّ فجئْت إلى إبراهيم بن أدهم وأخبرته بالقصَّة، فقال: لا تمَسَّها[١]؛ فإنه يجيء السَّاعة، فلمَّا كان بعد ساعة . . وافى النَّصراني، وأكَبَّ على رأس إبراهيم بن أدهم وأسلم.

باب الشُّكر

قال الله عزَّ وجلّ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

بسنده إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال ﷺ: «**أفلا أكون عبداً شكوراً؟**» ولِمَ لا أفعل وقد أنزل الله علَيَّ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾[٢] [آل عمران: ١٩٠].

قال الأستاذ: حقيقة الشكر عند أهل التحقيق: الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع.

وقيل: شكره تعالى: إعطاؤه الكثير من الثواب على العمل اليسير.

وشكر العبد على الحقيقة إنما هو نُطْق اللِّسان، وإقرار القلب بإنعام الرَّبِّ.

وقال أبو عثمان: الشُّكر: معرفة العَجْز عن الشُّكر.

وقال الجنيد: الشُّكر: ألَّا ترى نفْسك أهلاً للنِّعمة.

---

(١) أي: الصُّرّة.

(٢) أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٦٢٠)، وأورده الإمام السيوطي في ((الدر المنثور)) (٢/ ٤٠٩) واللفظ له، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي الدنيا وغيرهم.

وقيل: الشَّاكر: الذي يشكر على الموجود، والشَّكور: الذي يشكر على المفقود.

ويقال: الشَّاكر: الذي يشكر على العطاء، والشَّكور: الذي يشكر على البلاء.

قال الجنيد: كان السَّريُّ إذا أراد أنْ ينفعَني . . يسألُني، فقال لي يوماً: يا أبا القاسم . . ما الشُّكر؟ فقلت له: ألَّا يُستعانَ بشيء مِن نعم الله تعالى على معاصيه، فقال: مِن أين لك هذا؟! فقلت: مِن مُجالستِك.

قيل: التزم الحسن بن علي الركن وقال: إلهي . . نعَّمْتَني فلَمْ تجدْني شاكراً، وابتليتَني فلَم تجدْني صابراً، فلا أنت سلبْتَ النِّعمة بتَرْكي الشُّكر ولا أدمْتَ الشِّدة بتَرْكي الصَّبر.

إلهي . . ما يكون من الكريم إلا الكرم.

وقيل: الحمد على الأنفاس، والشُّكر على نِعَم الحواس.

وقيل: الحمد ابتداء منه، والشُّكر اقتداء منك.

وقيل: الحمد على ما دَفع، والشُّكر على ما صَنع.

باب اليقين

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البَقَرَة: ٤].

بسنده إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تُرضِيَنَّ أحداً بسخط الله تعالى، ولا تَحمَدنَّ أحداً على فضل الله عزَّ وجلّ، ولا تذُمَّنَّ أحداً على ما لَم يؤتك الله تعالى؛ فإنَّ رزق الله لا يسوقه عليك حرْصُ حريص، ولا يردُّه عنك كراهة كاره، وإنَّ الله تعالى - بعدْله وقِسطه - جعل الرَّوْح[1] والفرح في الرِّضا واليقين، وجعل الهمَّ والحَزَن في الشَّك والسُّخْط**»[2].

قال أبو عبد الله الأنطاكي: إنَّ أقلَّ اليقين إذا وصل إلى القلب . . يملأ القلب نوراً، وينفي عنه كُلَّ رَيب، ويمتلئ القلب به شكراً، ومِن الله تعالى خوفاً.

وقال أبو عثمان الحيري: اليقين: قِلَّة الاهتمام لغدٍ.

وقال سهل بن عبد الله: حرام على قلب أنْ يَشَمَّ رائحة اليقينِ وفيه سكون إلى غير الله تعالى.

وقال ذو النون المصري: ثلاثة مِن أعلام اليقين: قِلَّة مخالطة النَّاس في العِشرة، وترْك المدح لهم في العطيَّة، والتنزُّه عن ذمِّهم عند المنع.

وثلاثة مِن أعلام يقين اليقين: النَّظر إلى الله تعالى في كُلِّ شيء، والرُّجوع

(١) أي: الرَّاحة.

(٢) أخرجه الطبراني في ((الكبير)) (١٠٥١٤)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٢٠٤).

إليه في كُلِّ أمر، والاستعانة به في كُلِّ حال.

وقال ابن عطاء: على قدْر قُربِهم مِن التَّقوى أدركوا ما أدركوا مِن اليقين.

وأصل التَّقوى مبايَنة النَّهي، ومبايَنة النَّهي مبايَنة النَّفْس، فعلى قدْر مفارقتهم النَّفْس وصلوا إلى اليقين.

قال إبراهيم الخوَّاص: لقيت غلاماً في التِّيه[١] كأنه سبيكة فضَّة، فقلت: إلى أين يا غلام؟ فقال: إلى مكَّة، فقلت: بلا زاد ولا راحلة ولا نفقة !؟ فقال لي: يا ضعيفَ اليقين . . الذي يَقْدر على حفظ السَّماوات والأرضين لا يَقْدر أنْ يوصلني إلى مكَّة بلا علاقة[٢]؟

قال: فلمَّا دخلْتُ مكَّة إذا أنا به في الطَّواف، وهو يقول:

يا عينُ سُحِّي أبداً يا نفْسُ موتي كمداً
ولا تحبِّي أحداً إلا الجليلَ الصَّمدا

فلمَّا رآني . . قال لي: يا شيخ . . أنت بعدُ على ذلك الضَّعْف مِن اليقين؟!

---

(١) وهي الصَّحراء التي يُتاه فيها.

(٢) العلاقة: ما يُتبلَّغ به مِن العيش، قال ذلك لقوَّة يقينه ولُطف ربه، وإنْ كانت السُّنَّة حملَ الزَّاد في السَّفر، ولا يدل حمْلُه على ضَعف اليقين مطلقاً، فإنَّ الأنبياء والأئمَّة حملوه في السَّفر ولكنَّهم لم يعتمدوا عليه، وإنَّما اعتمدوا على ربهم.

باب الصَّبر

قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النّحل: ١٢٧].

بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الصَّبر عند الصَّدمة الأولى**»[(١)].

ثم الصَّبر على أقسام: صبر على ما هو كسب للعبد، وصبر على ما ليس بكسب له.

وسئل الجنيد عن الصَّبر، فقال: هو تجرُّع المرارة مِن غير تعبيس.

فالصَّبر على المكتسَب على قسمين: صبر على ما أمر الله تعالى به، وصبر على ما نهى عنه.

وأمَّا الصَّبر على ما ليس بمكتسَب للعبد . . فصبره على مُقاساة ما يتَّصل به مِن حُكْم الله فيما يناله فيه مشقَّة.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (الصَّبر مِن الإيمان بمنزلة الرَّأس من الجسد)[(٢)].

وقال ذو النون: الصَّبر: التَّباعُد عن المخالفات، والسُّكون عند تجرُّع غُصَصِ البليَّة، وإظهار الغِنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة.

وقال ابن عطاء: الصَّبر: الوقوف مع البلاء بحسن الأدب.

وقال أبو عثمان: أحسن الجزاء على عبادة: الجزاء على الصَّبر، ولا جزاء فوقَه، قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النّحل: ٩٦].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٢)، ومسلم (٩٢٦/ ١٤).

(٢) أخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٤٠).

وقال الخوَّاص: هو الثَّبات على أحكام الكتاب والسُّنَّة.

وقال أبو محمد الجريري: الصَّبر: ألَّا يُفرَّق بين حال النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيهما، والتَّصبُّر: هو السكون مع البلاء مع وجدان أثقال المحنة.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق رحمه الله تعالى يقول: فاز الصَّابرون بعِزِّ الدَّارين؛ لأنهم نالوا من الله تعالى معيَّته؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ١٥٣].

وقيل في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥﴾ [المعارج: ٥]: الصَّبر الجميل: أنْ يكون صاحب المصيبة في القوم لا يُدرى مَن هو.

وقال ابن عيينة في معنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ﴾ [السَّجدَة: ٢٤] قال: لمَّا أخذوا برأس الأمر[1] .. جعلناهم رؤساء.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق يقول: إنَّ الصَّبر حدُّه ألَّا تعترض على التَّقدير، فأمَّا إظهار البلاء على غير وجه الشَّكوى .. فلا ينافي الصَّبر، قال الله تعالى في قصَّة أيُّوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [صٓ: ٤٤] مع ما أخبر عنه تعالى أنه قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبيَاء: ٨٣] وسمعته يقول: استخرج الله منه هذه المقالة، يعني قولَه: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبيَاء: ٨٣] لتكون مُتنفَّساً لضعفاء هذه الأمة.

---

(١) الصَّبر.

باب المراقبة

قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ [الأحزَاب: ٥٢].

بسنده إلى جرير بن عبد الله البَجَلي قال: (جاء جبريل إلى النبي ﷺ في صورة رجُل، فقال: يا محمد .. ما الإيمان؟ قال: أنْ تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره وحلوه ومره، قال: صدقت، قال: فتعجَّبْنا مِن تصديقه النبي ﷺ، وهو يسأله ويصدِّقه، قال: فأخبرني، ما الإسلام؟ قال: الإسلام أنْ تقيمَ الصَّلاة، وتؤتي الزكاة، وتصومَ رمضان، وتحجَّ البيت، قال: صدقت، قال: فأخبرني، ما الإحسان؟ قال: الإحسان: أنْ تعبد الله كأنك تراه، فإنْ لَم تكن تراه .. فإنه يراك، قال: صدقت ... الحديث)[1].

قال الشَّيخ: هذا الذي قاله ﷺ: «**فإنْ لَم تكن تراه .. فإنه يراك**» إشارةٌ إلى حال المراقبة؛ لأنَّ المراقبة عِلْم العبد باطِّلاع الرَّبِّ سبحانه عليه، فاستِدامته لهذا العِلم مراقبة لربِّه، وهذا أصل كُلِّ خير له، ولا يكاد يصل إلى هذه المرتبة إلا بعد فراغه مِن المحاسبة، فإذا حاسب نفْسه على ما سلف له، وأصلَح حاله في الوقت، ولازَم طريق الحقِّ، وأحسَن بينَه وبين الله تعالى مراعاةَ القلب، وحَفِظ مع الله تعالى الأنفاس، وراقب الله تعالى في عموم أحواله .. فيعلم أنه سبحانه عليه رقيب ومِن قلبه قريب، يَعلم أحواله، ويرى أفعاله، ويسمع أقواله، ومَن تَغافل عن هذه الجملة .. فهو بمعزِل عن بداية

(١) أخرجه الآجري في ((الشريعة)) (٣٩٣)، وهو عند البخاري (٥٠)، ومسلم (١٠/ ٧) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

الوَصْلة، فكيف عن حقائق القُربة.

وقال بعضهم: من راقب الله تعالى في خواطره عصمه الله في جوارحه.

وقيل: (كان ابن عمر رضي الله عنهما في سفر، فرأى غلاماً يرعى غنماً، فقال له: تبيع مِن هذه الغنم واحدة؟ فقال: إنها ليست لي، فقال: قل لصاحبها إنَّ الذئب أخذ منها واحدة، فقال العبد: فأين الله ! فكان ابن عمر يقول بعد ذلك إلى مُدَّة: قال ذلك العبد: فأين الله ! ويبكي)[1].

وقال ذو النون المصري: علامة المراقبة: إيثار ما آثر الله تعالى، وتعظيم ما عَظَّم الله تعالى، وتصغير ما صَغَّر الله تعالى.

وسئل ابن عطاء: ما أفضلُ الطَّاعات؟ فقال: مراقبة الحقِّ على دوام الأوقات.

قال أبو حفص: إذا جلست للنَّاس . . فكُن واعظاً لقلبك ولنَفْسِك، ولا يغُرَّنَّك اجتماعُهم عليك، فإنهم يراقبون ظاهرك، والله يراقب باطنك.

باب الرِّضا

قال الله عزَّ وجلّ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المَائدة: ١١٩].

فأمَّا شرط العلم والذي هو لا بدَّ منه فالراضي بالله تعالى هو الذي لا يعترض على تقديره.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق يقول: ليس الرضا ألَّا تُحِسَّ بالبلاء، إنَّما الرضا ألَّا تعترض على الحكم والقضاء.

واعلم أنَّ الواجب على العبد: أنْ يرضى بالقضاء الذي أُمِر بالرضا به؛ إذ

(١) أورد القصة الإمام الغزالي في ((الإحياء)) (٤/ ٣٩٨).

ليس كُلُّ ما هو بقضائه يجوز للعبد أو يجب عليه الرِّضا به، كالمعاصي وفنون مِحَن المسلمين.

واعلم أنَّ العبد لا يكاد يرضى عن الحق سبحانه إلا بعد أنْ يرضى عنه الحقُّ سبحانه؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلّ قال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق يقول: قال تلميذ لأستاذه: هل يعرف العبد أنَّ الله تعالى راضٍ عنه؟ فقال: لا، كيف يَعلم ذلك ورضاه غَيْب؟ فقال التلميذ: بل يعلم ذلك، فقال: كيف؟! فقال: إذا وجدْتُ قلبي راضياً عن الله تعالى . . علمْتُ أنه راضٍ عني، فقال الأستاذ: أحسنت يا غلام.

قال أبو سليمان الدَّاراني: إذا سلا العبد عن الشهوات . . فهو راضٍ.

وقال النَّصراباذي: مَن أراد أنْ يبلُغَ محلَّ الرضا . . فليَلزم ما جعل الله رضاه فيه.

وقال محمد بن خفيف: الرضا على قسمين: رضاً به، ورضاً عنه، فالرضا به: أنْ يرضاه مدبِّراً، والرضا عنه: فيما يقضي.

وقال ابن خفيف: الرضا: سكون القلب إلى أحكامه، وموافقة القلب بما رضي الله به واختاره له.

وقال الفضيل بن عياض لبِشر الحافي: الرضا أفضل مِن الزُّهد في الدُّنيا؛ لأنَّ الراضي لا يتمنى فوق منزلته.

وقال أبو عمر الدمشقي: الرضا: ارتفاع الجَزَع في أيِّ حُكْم كان.

عن العبَّاس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان مَن رضي بالله ربّاً**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم (٣٤/ ٥٦)، والإمام أحمد (١٧٧٨)، والترمذي (٢٦٢٣)، وتتمته: «**وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً**».

قال أبو تراب النَّخْشبي: ليس يَنال الرضا مَن للدُّنيا في قلبه مقدار.

وقال أبو عثمانَ الحِيري: منذ أربعين سَنةً ما أقامني الله عزَّ وجلّ في حال فكرهتُه، وما نقلَني إلى غيره فسخطتُه.

باب العبودية

قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحِجر: ٩٩].

بسنده إلى أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**سبعة يُظلُّهم الله في ظِلِّه يوم لا ظِلَّ إلا ظِلُّه: إمام عادل، وشابٌّ نشأ في عبادة الله تعالى، ورجُل قلبه معلَّق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعودَ إليه، ورجُلان تحابَّا في الله اجتمعا على ذلك وتفرَّقا عليه، ورجُل ذكر الله تعالى خالياً ففاضت عيناه، ورجُل دعته امرأة ذات حُسن وجمال فقال: إني أخاف الله ربَّ العالمين، ورجُل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلمَ شماله ما تنفق يمينه**»[(١)].

ويقال: العبودية: التبرؤ من الحول والقوَّة، والإقرار بما يعطيك ويُوليك من الطَّوْل[(٢)] والمِنَّة.

ويقال: العبودية: معانقة ما أُمرْتَ به، ومفارقة ما زُجِرْتَ عنه.

وقال ذو النون المصري: العبودية: أنْ تكون أنت عبدَه في كُلِّ حال، كما أنه ربُّك في كُلِّ حال.

وقال الجريري: عبيد النعم كثير عددهم، وعبيد المنعم عزيز وجودهم.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق يقول: أنت عبد مَن أنت في رِقِّه وأسْره،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٧٣٣٨) عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) الغنى.

فإنْ كنت في أسْرِ نَفْسِك . . فأنت عبد نَفْسِك، وإنْ كنت في أسْر دُنياك . . فأنت عبد دنياك، قال رسول الله ﷺ: «**تَعِس عبد الدِّرهم، تَعِس عبد الدِّينار، تَعِس عبد الخَميصة**[١]»[٢].

قال سهل بن عبد الله: لا يَصلُح للعبد التعبُّد حتى يكون بحيث لا يُرى عليه أثر المَسْكنة في العدم، ولا أثر الغنى في الوجود.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق يقول: ليس شيء أشرفَ مِن العبودية، ولا اسمٌ[٣] أتَمَّ للمؤمن مِن الاسم له بالعبودية، ولذلك قال سبحانه في وصف النبي ﷺ ليلة المعراج - وكان أشرفَ أوقاته في الدُّنيا - ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسرَاء: ١]. وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النّجم: ١٠]، فلو كان اسمٌ أجلَّ مِن العبودية . . لسمَّاه به.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق يقول: كما أنَّ الرُّبوبيَّة نعْت للحقِّ سبحانه لا يزول عنه، فالعبودية صفة للعبد لا تفارقُه ما دام.

باب الإرادة

قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعَام: ٥٢].

بسنده إلى أنس رضي الله عنه، أنَّ النبي ﷺ قال: «**إذا أراد الله بعبد خيراً . . استعمله**»، فقيل له: كيف يستعمله يا رسول الله؟ قال: «**يوفِّقه لعمل صالح قبل الموت**»[٤].

---

(١) كساء أسود مربَّع مِن خزٍّ أو صوف.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٨٦)، وابن ماجه (٤١٣٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) وصف.

(٤) أخرجه الترمذي (٢١٤٢)، والإمام أحمد (١٣٤٠٨).

والإرادة: بَدْء طريق السَّالكين، وهي اسم لأوَّل منزلة القاصدين إلى الله تعالى، وإنَّما سُمِّيت هذه الصفة إرادةً؛ لأنَّ الإرادة مُقدِّمة كُلِّ أمر، فما لَم يُرِد العبد شيئاً لَم يَفعلْه، فلمَّا كان هذا أوَّل الأمر لمَن سلك طريق الله عزَّ وجلّ . . سُمِّي إرادةً؛ تشبيهاً بالقصد في الأمور التي هو مقدمتها، والمريد - على موجَب الاشتقاق -: مَن له إرادة، كما أنَّ العالِم مَن له عِلم؛ لأنه مِن الأسماء المشتقَّة، ولكنَّ المريد في عُرْف هذه الطَّائفة: مَن لا إرادة له، فمَن لَم يتجرَّد عن إرادته . . لا يكون مريداً، كما أنَّ مَن لا إرادة له - على موجَب الاشتقاق - لا يكون مريداً.

وتكلَّم النَّاس في معنى الإرادة، فكُلٌّ عَبَّر على حسَب ما لاح لقلبه، فأكثر المشايخ قالوا: الإرادة: ترْك ما عليه العادة، وعادة النَّاس في الغالب التَّعريج[١] في أوطان الغفلة، والركون إلى اتِّباع الشَّهوة، والإخلاد إلى ما دعت إليه المُنْيَة[٢]، والمريد منسلخ عن هذه الجملة، فصار خروجه أمارةً ودلالة على صحَّة الإرادة، فسُمِّيت تلك الحالةُ: إرادة، وهي خروج عن العادة، فإنَّ ترْك العادة أَمارةُ الإرادة.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق يقول: الإرادة: لوعة في الفؤاد، لدغة في القلب، غرام في الضَّمير، انزعاج في الباطن، نيران تتأجَّج في القلوب.

وقيل: مِن صفات المريدين: التحبُّبُ إليه بالنَّوافل، والخُلوص في نصيحة الأُمَّة، والأُنس بالخلوة، والصَّبر على مقاساة الأحكام، والإيثار لأمره، والحياء مِن نَظَره، وبذْل المجهود في محبوبه، والتَّعرُّض لكُلِّ سبب يوصِل إليه، والقناعة بالخمول[٣]، وعدم القرار بالقلب إلى أنْ يصل إلى الرَّبِّ.

(١) أي: الإقامة.

(٢) المُبتغى والمقصود.

(٣) أي: الرِّضا بالخفاء؛ ليَسلَم مِن شرِّ الظُّهور والشُّهرة.

قال الكتَّاني: مِن حُكْم المريد أن يكون فيه ثلاثة أشياء: نومُه غَلَبة، وأكلُه فاقة، وكلامه ضرورة.

باب الاستقامة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فُصّلَت: ٣٠].

بسنده إلى ثوبان مولى النبي ﷺ قال: «**استقيموا ولن تُحصوا**[١]، **واعلموا أنَّ خير دينِكم الصَّلاة، ولن يحافظَ على الوضوء إلا مؤمن**»[٢].

والاستقامة: درجة بها كمال الأمور وتمامها وبوجودها حصول الخيرات ونظامها، ومَن لَم يكن مستقيماً في حالته . . ضاع سعْيُه وخاب جُهْده؛ قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النّحل: ٩٢].

ومَن لَم يكن مستقيماً في صفته . . لَم يرتقِ مِن مقامه إلى غيره، ولَم يَبْنِ سلوكه على صحَّة.

فمِن أمارات استقامةِ أهل البداية: ألَّا تشُوب معاملاتِهم فترةٌ[٣]، ومِن أمارات استقامة أهل الوسائط: ألَّا يَصحب منازلَهم وقْفة[٤]، ومِن أمارات استقامة أهل النِّهاية: ألَّا تُداخِل مواصلتَهم حَجْبة.

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في معنى قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فُصّلَت: ٣٠]: (لَم يُشركوا)[٥].

---

(١) أي: لن تستطيعوا القيام بها كاملة، فاستقيموا على قَدْر طاقتكم واستطاعتكم.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٧٧)، والإمام أحمد (٢٢٣٧٨).

(٣) أي: فتور.

(٤) أي: استحسان.

(٥) أخرجه الطبري (٢٠/ ٤٢٥).

وقال عمر رضي الله عنه: (لَم يَروغوا روَغان الثَّعالب)[١].

فقول الصديق رضي الله عنه محمول على مراعاة الأصول في التَّوحيد، وقول عمر رضي الله عنه محمول على طلب التَّأويل والقيامِ بشرْط العهود.

وقال أبو علي الجوزجاني: كُن صاحبَ الاستقامة لا طالب الكرامة، فإنَّ نفْسك متحركة في طلب الكرامة، وربُّك عزَّ وجلّ يطالبك بالاستقامة.

ويقال: الاستقامة في الأقوال بترك الغِيبة، وفي الأفعال بنفي البِدعة، وفي الأعمال بنفي الفترة، وفي الأحوال بنفي الحَجْبة.

قال الأستاذ: واعلم أنَّ الاستقامة توجِب دوام الكرامات، قال الله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن: ١٦]، ولَم يقل: سقيناهم، بل قال: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم﴾، يقال: أسقيتُه إذا جعلْتُ له سَقْياً، فهو يشير إلى الدَّوام.

باب الإخلاص

قال الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزُّمَر: ٣].

بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث لا يَغُلُّ**[٢] **عليهنَّ قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة وُلاة الأمور، ولزوم جماعة المسلمين**»[٣].

قال الأستاذ: الإخلاص: إفراد الحق سبحانه في الطَّاعة بالقصد، وهو أنْ يُريدَ بطاعته التَّقرُّبَ إلى الله سبحانه دون أيِّ شيء آخر؛ مِن تصنُّع لمخلوق،

(١) أخرجه الطبري (٢٠/ ٤٢٥).

(٢) بضم الوسط: يخون، وبكسر الوسط: يحقد.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٣٣٥٠)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٧١٠٨).

أو اكتسابِ محْمَدة عند النَّاس، أو محبَّة مدح مِن الخلْق، أو معنىً مِن المعاني سوى التَّقرُّب به إلى الله تعالى.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق يقول: الإخلاص: التَّوَقي عن ملاحظة الخَلْق، والصِّدق: التَّنقِّي مِن مطالعة النَّفْس، فالمخلص لا رياء له، والصَّادق لا إعجاب له.

وقال ذو النون: ثلاث مِن علامات الإخلاص: استواءُ المدح والذَّم مِن العامَّة، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال، ونسيان اقتضاءِ ثواب العمل في الآخرة.

وقال أبو بكر الدَّقَّاق: نُقصان كُلِّ مخلص في إخلاصه رؤية إخلاصه؛ فإذا أراد الله تعالى أنْ يُخلِّص إخلاصه . . أَسقط عن إخلاصه رؤيتَه لإخلاصه؛ فيكون مخلَصاً[١] لا مخلِصاً[٢].

وقال سهل: لا يعرف الرياء إلا مخلص[٣].

وقال حذيفة المَرْعشي: الإخلاص: أنْ تستوي أفعال العبد في الظاهر والباطن.

وقال الفضيل: ترك العمل مِن أجل النَّاس رياء، والعمل مِن أجل النَّاس شِرْك، والإخلاص: أنْ يعافيَك اللهُ منهما.

وقال أبو سليمان: إذا أخلص العبد . . انقطعت عنه كثرة الوساوس والرِّياء.

---

(١) مَن خلَّصه الله مِن كُلِّ شائبة.

(٢) مَن أخلص في عمله.

(٣) فيتجنبه بعد معرفته.

باب الصِّدق

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبَة: ١١٩].

بسنده إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يزال العبدُ يَصدُق ويتحرَّى الصِّدقَ حتى يُكتَب عند الله صدِّيقاً، ولا يزال يكذب ويتحرَّى الكذبَ حتى يُكتَب عند الله كذَّاباً**»(١).

والصدِّيق: مَن صدَق في جميع أقواله وأفعاله وأحواله.

وقال أحمد بن خضرويه: مَن أراد أنْ يكون الله تعالى معه .. فليلزمِ الصِّدق.

وقيل: الصِّدق: موافَقة السر النُّطق.

وقال عبدُ الواحدِ بنُ زيد: الصِّدق: الوفاء لله سبحانه بالعمل.

وقال أبو سعيد القرشي: الصَّادق: الذي يتهيَّأ له أنْ يموت ولا يستحي مِن سِرِّه لو كُشِف، قال الله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البَقَرَة: ٩٤].

وحُكي عن أبي عمرو الزَّجَّاجي أنه قال: ماتت أمِّي، فورثْتُ منها داراً، فبعتها بخمسين ديناراً، وخرجت إلى الحج، فلمَّا بلغْتُ بابلَ .. استقبلني واحد مِن القناقنة(٢) وقال: ما معك؟ فقلت في نَفْسِي: الصِّدق خير، ثم قلت: خمسون ديناراً، فقال: ناولنِيها، فناولته الصُّرَّة، فعدَّها، فإذا هي

(١) أخرجه مسلم (٢٦٠٧)، والترمذي (١٩٧١).

(٢) جمع قنقن، وهو الدَّليل الهادي والبصير بالماء في حفر القناة.

خمسون ديناراً، فقال: خذها؛ فلقد أخذني صدْقُك، ثم نزل عن الدَّابة وقال: اركبها، فقلت: لا أريد، فقال: لا بُدَّ، وألحَّ عليَّ، فركبتها، فقال: وأنا على أَثَرك، فلمَّا كان العام المقبل . . لحق بي، ولازمني حتى مات.

قال إبراهيم الخوَّاص: الصَّادق لا نراه إلا في فرض يؤدِّيه، أو فَضل يَعمل فيه.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق يقول: الصِّدق: أنْ تكون مع النَّاس كما ترى مِن نفْسك، أو أنْ ترى مِن نَفْسِك كما تكون[١].

وسئل الحارث المحاسِبي عن علامة الصِّدق، فقال: الصَّادق: هو الذي لا يبالي لو خرج كُلُّ قَدْر له في قلوب الخَلْق مِن أجل صلاح قلبه، ولا يحبُّ اطلاع النَّاس على مثاقيل الذَّرِّ مِن حُسنِ عمله، ولا يكره أنْ يَطَّلع النَّاس على السيىء مِن عمله؛ فإنَّ كراهته لذلك دليل على أنَّه يحبُّ الزِّيادة عندهم، وليس هذا مِن أخلاق الصِّدِّيقين.

وقيل: عليك بالصِّدق حيث تخاف أنه يضرُّك؛ فإنه ينفعك، ودع الكذب حيث ترى أنه ينفعُك؛ فإنه يضرُّك.

---

(١) أي: كما تكون معهم بأنْ يستوي عندك السر والعلانية.

باب الحياء

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العَلق: ١٤].

بسنده إلى ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**الحياء مِن الإيمان**»(١).

وبسنده إلى ابن مسعود رضي الله عنه، أنَّ نبي الله ﷺ قال ذات يوم لأصحابه: «**استحيوا مِن الله حقَّ الحياء**»، قالوا: إنَّا نستحي - يا نبي الله - والحمد الله، قال: «**ليس ذلك، ولكنْ مَن استحيا مِن الله حقَّ الحياء .. فليحفظ الرَّأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبِلى، ومَن أراد الآخرة .. ترك زينة الحياة الدُّنيا، فمَن فعل ذلك .. فقد استحيا مِن الله حقَّ الحياء**»(٢).

قال ذو النون المصري: الحياء: وجود الهيبة في القلب مع وَحشة ما سبق منك إلى ربك تعالى.

وقال السَّريُّ: إنَّ الحياء والأُنس يطرُقان القلب، فإنْ وَجدا فيه الزُّهد والورع .. حَطَّا، وإلا .. رَحَلا.

وقال بعضهم: خرجنا ليلة، فمررْنا بأَجَمَةٍ(٣)، فإذا رجُل نائم وفرس عند رأسه ترعى، فحركناه وقلنا له: ألا تخاف أنْ تنام في مثل هذا الموضع المُخْوف وهو مُسبِع(٤)!؟ فرفع رأسه وقال: أنا أستحي منه تعالى أنْ أخاف غيره، ووضع رأسه ونام.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤)، ومسلم (٣٦/ ٥٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٥٨)، والإمام أحمد (٣٦٧١).

(٣) وهو الشَّجر الملتفُّ.

(٤) أي: موضع كثير السباع.

وقال الفضيل بن عياض: خمس مِن علامات الشَّقاء: القسوة في القلب، وجُمود العين، وقِلَّة الحياء، والرَّغبة في الدُّنيا، وطول الأمل.

وسئل الجنيد عن الحياء، فقال: رؤية الآلاء ورؤية التَّقصير، فيتولَّد مِن بينهما حالة تسمَّى الحياء.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق رحمه الله تعالى يقول: الحياء: ترْكُ الدَّعوى بين يدي الله عزَّ وجلّ.

باب الحرِّية

قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّما يكفي أحدَكم ما قنِعتْ به نفْسُه، وإنَّما يصير إلى موضع أربعة أذرُع**(١)**، والأمر بآخره**»(٢).

قال الأستاذ: الحرية: ألَّا يكون العبد تحت رِقِّ المخلوقات، ولا يجري عليه سلطان المكوَّنات.

قال حارثة رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: (عزفَتْ نَفْسِي عن الدُّنيا، فاستوى عندي حجرها وذهبها)(٣).

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق رحمه الله تعالى يقول: مَن دخل الدُّنيا

---

(١) أي: القبر.

(٢) أخرجه أبو داود في ((الزهد)) (١٦٠)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (١/ ١٣٩).

(٣) الحديث بلفظ المصنف أورده الإمام الغزالي في ((الإحياء)) (٤/ ٢٢٠)، وأخرجه الطبراني في ((الكبير)) (٣٣٦٧)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١٠١٠٦) بلفظ (عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري).

وهو عنها حُرٌّ . . ارتحل إلى الآخرة وهو عنها حُرٌّ.

واعلم أنَّ حقيقة الحرية في كمال العبودية، فإذا صَدقَتْ لله تعالى عبوديَّتُه خَلصتْ عن رِقِّ الأغيار حُريته.

فأمَّا مَن تَوهَّم أنَّ العبد يَسلَمُ له أنْ يخلَع وقتاً عِذار العبوديَّة ويَحيدَ بلحْظه عن حدِّ الأمر والنهي وهو مُميِّز في دار التَّكليف . . فذلك انسلاخ مِن الدِّين، قال الله سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحِجر: ٩٩]

يعني: الأجَل، وعليه أجمع المفسرون.

وسئل الجنيد عمَّن لم يَبقَ عليه مِن الدُّنيا إلا مقدارُ مَصِّ نواةٍ، فقال: المُكاتَب عبد ما بقي عليه درهم.

واعلم أنَّ مُعظمَ الحرية في خدمة الفقراء.

قال إبراهيم بن أدهم: إنَّ الحُرَّ الكريم يَخرج مِن الدُّنيا قبل أنْ يُخرَج منها.

وقال أيضاً: لا تصحبْ إلا حُرَّاً كريماً، يَسمع ولا يَتكلَّم.

باب الذِّكر

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١﴾ [الأحزَاب: ٤١].

بسنده إلى أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أُنبِّئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مَليكِكُم، وأرفعِها في درجاتِكم، وخيرٍ مِن إعطاء الذَّهب والوَرِق، وخير لكم من أنْ تلقَوا عدوَّكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟**» قالوا: بلى، قال: «**ذِكر الله تعالى**»[1].

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠).

وبسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم السَّاعة حتى لا يقالَ في الأرض: الله . . الله**»(١).

قال الأستاذ: والذِّكر ركن قويٌّ في طريق الحق سبحانه وتعالى، بل هو العُمدة في هذا الطريق، ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذِّكر.

والذِّكر على ضربين: ذِكر اللسان، وذِكر القلب، فذِكر اللسان به يصل العبد إلى استدامة ذِكر القلب.

وفي الخبر المشهور عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا مررتم برياض الجنَّة . . فارتعوا**»، قالوا: وما رياض الجنَّة؟ فقال: «**حِلَق الذِّكر**»(٢).

وأُنشد في مجلس الشبلي:

ذكرْتُك لا أنِّي نسيتُك لمحة وأيسرُ ما في الذِّكر ذِكر لساني
وكِدْتُ بلا وَجْد أموت مِن الـ هوى وهام علَيَّ القلب بالخفقان
فلمَّا أراني الوَجدُ أنك حاضري شهدْتُك موجوداً بكلِّ مكان
فخاطبْتُ موجوداً بغير تكلُّم ولاحظْتُ معلوماً بغير عَيان

ومن خصائص الذِّكر: أنه غيرُ مؤقَّت، بل ما مِن وقت مِن الأوقات إلا والعبد مأمور بذِكر الله، إمَّا فرضاً، وإمَّا ندباً.

والصلاة - وإن كانت أشرفَ العبادات - فقد لا تجوز في بعض الأوقات، والذِّكر بالقلب مُستدام في عموم الحالات؛ قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عِمرَان: ١٩١].

سمعت الإمام أبا بكر بن فورك رحمه الله تعالى يقول: قياماً بحق الذِّكر، وقعوداً عن الدَّعوى فيه.

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٨/ ٢٣٤)، والترمذي (٣٢٠٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥١٠)، والإمام أحمد (١٢٥٢٣).

ومن خصائصِ الذِّكر: أنَّه جعل في مقابَلتِه الذِّكر[١]، قال الله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البَقَرَة: ١٥٢].

وسأل الثوري ذا النون عن الذكر فقال: هو غَيبَة الذَّاكر عن الذِّكر، ثم أنشأ يقول:

لا لأني أنساك أكثرت ذِكرا كَ، ولكن بذاك يجري لساني

وقال الحسن البصري: تفقَّدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة والذِّكر وقراءة القرآن، فإنْ وجدتم، وإلَّا فاعلموا أنَّ الباب مغلق.

وقال سهل: ما أعرِف معصيةً أقبحَ مِن نسيان الرَّبِّ تعالى.

باب الفُتوَّة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

قال الأستاذ: أصل الفُتوَّة أنْ يكون العبد ساعياً أبداً في أمر غيره.

بسنده إلى أبي هريرة عن زيد بن ثابت رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قال: «**لا يَزال الله تعالى في حاجة العبد ما دام العبد في حاجة أخيه المسلم**»[٢].

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق يقول: هذا الخُلُق لا يكون كمالُه إلا لرسول الله ﷺ، فإنَّ كُلَّ أحد في القيامة يقول: نفسي . . نفسي، وهو ﷺ يقول: أُمَّتي . . أُمَّتي.

قال الجنيد: الفُتوَّة بالشَّام، واللسان بالعراق، والصِّدق بخراسان.

---

(١) أي: مِن الله تعالى.

(٢) أخرجه الطبراني في ((الكبير)) (٤٨٠١)، وأورده الديلمي في ((الفردوس بمأثور الخطاب)) (٧٥٦٠).

قال الفضيل: الفُتوَّة: الصَّفْح عن عثَرات الإخوان.

وقيل: الفُتوَّة: ألَّا ترى لنَفْسِك فضلاً على غيرك.

قال أبو بكر الوراق: الفتى من لا خصم له.

وقيل: الفتى: مَن كَسَر الصَّنم؛ قال الله تعالى: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾ [الأنبياء: ٥٨]، وصَنمُ كُلِّ إنسان نفسه، فمَن خالَف هواه . . فهو فتىً على الحقيقة.

قال عبد الله بن أحمد ابن حنبل: سئل أبي: ما الفُتوَّة؟ فقال: ترك ما تهوى لِمَا تخشى.

وقال الجنيد: الفُتوَّة: كَفُّ الأذى، وبَذْل النَّدى.

وقال سهلُ بن عبد الله: الفُتوَّة: اتِّباع السُّنَّة.

وقيل: إظهار النِّعمة، وإسرار المحنة.

وقيل: تزوَّج رجُل بامرأة، فقَبْلَ الدُّخول ظهر بالمرأة الجُذَريّ، فقال الرّجُل: اشتكت عيني، ثم قال: عَمِيتُ، فزُفَّت إليه المرأة، ثم ماتت بعد عشرين سنة، ففتح الرّجُل عينيه، فقيل له في ذلك، فقال: لمْ أعمَ، ولكن تعاميت حذارِ أنْ تَحزن، فقيل له: سبقْتَ الفِتيان.

وقيل: سأل شقيق البلخيُّ جعفرَ بن محمد عن الفُتوَّة، فقال: ما تقول أنت؟ فقال شقيق: إنْ أُعطينا . . شكَرْنا، وإنْ مُنِعْنا . . صبَرْنا، فقال جعفر: الكلاب عندنا بالمدينة كذلك تفعل !! فقال شقيق: يا ابن بنتِ رسول الله . . ما الفُتوَّة عندكم؟ فقال: إنْ أُعطينا . . آثرنا، وإنْ مُنِعْنا . . شكَرْنا.

باب الفِراسة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحِجر: ٧٥].

قيل: (للمُتفرِّسين)[١].

بسنده إلى أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اتَّقوا فراسة المؤمن؛ فإنَّه ينظر بنور الله عزَّ وجلّ**»[٢].

قال الأستاذ: والفِراسة: خاطرٌ يهجُم على القلب فينفي ما يضادُّه، وهي على حسَب قوَّة الإيمان، فكُلُّ مَن كان أقوى إيماناً . . كان آكدَ فِراسة.

وقيل: كان الشافعي ومحمد بن الحسن - رحمهما الله تعالى - في المسجد الحرام، فدخل رجُل، فقال محمد بن الحسن: أتفرَّسُ أنه نجار، وقال الشافعي: أتفرَّسُ أنه حداد، فسألاه، فقال: كنت قبل هذا حداداً، والساعةَ أُنجِّر.

وقال أبو سعيد الخرَّاز: المستنبِط: مَن يلاحظ الغيبَ أبداً ولا يغيب عنه، ولا يخفى عليه شيء، وهو الذي دَلَّ عليه قوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النِّساء: ٨٣]، والمتوسِّم: هو الذي يَعرِف الوسْم[٣]، وهو العارف بما في سويداءِ القلوب بالاستدلال والعلامات، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحِجر: ٧٥]؛ أي: للعارفين بالعلامات التي يُبديها على الفريقين مِن أوليائه وأعدائه.

قال الأستاذ الإمام رحمه الله تعالى: كنت في ابتداء وصلتي بالأستاذ أبي

---

(١) أخرجه الطبري في ((تفسيره)) (١٤/ ٩٤) عن مجاهد رحمه الله تعالى.

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٢٧)، والطبراني في ((الأوسط)) (٧٨٤٣).

(٣) أي: العلامة.

علي الدَّقَّاق - رضي الله عنه - عقد لي المجلس في مسجد المُطَرَّز، فاستأذنتُه وقتاً للخروج إلى نَسا، فأذِن لي فيه، فكنتُ أمشي معه يوماً في طريق مجلسه، فخطر ببالي: ليتَه ينوب عني في مجالسي أيامَ غَيبتي، فالتفتَ إليَّ وقال لي: أنوب عنك أيام غَيبتك في عقد المجالس، فمشيت قليلاً، فخطر ببالي أنه عليل يشُقُّ عليه أنْ ينوب عني في الأسبوع يومين، فليتَه يقتصر على يوم واحد في الأسبوع، فالتفت إليَّ وقال: إنْ لمْ يُمكنِّي في الأسبوع يومان . . أنوب عنك في الأسبوع مرة واحدة، فمشيت معه قليلاً، فخطر ببالي شيء ثالث، فالتفت إليَّ وصرَّح بالإخبار عنه على القطع.

قال أبو عمرو بن نجيد: كان شاه الكِرماني حادَّ الفِراسة لا يخطئ، ويقول: مَن غضَّ بَصره عن المحارم، وأمسك نفْسه عن الشَّهوات، وعمَّر باطنَه بدوام المراقبة، وظاهِرَه باتِّباع السُّنَّة، وتعوَّد أكلَ الحلال . . لمْ تخطئْ فِراسته.

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي: إذا جالستم أهل الصِّدق . . فجالسوهم بالصِّدق؛ فإنهم جواسيس القلوب يدخلون في قلوبكم ويخرجون منها مِن حيث لا تُحِسُّون.

وقال أبو جعفر الحدَّاد: الفِراسة أوَّل خاطرٍ بلا مُعارض، فإنْ عارَض معارضٌ مِن جنسه . . فهو خاطر وحديث نَفْس.

وقال أبو حفص النَّيسابوري: ليس لأحد أنْ يدعيَ الفِراسة، ولكن يتَّقي الفِراسة مِن الغير؛ لأن النبي ﷺ قال: «**اتَّقوا فِراسة المؤمن**»، ولم يقل: تفرَّسوا، فكيف يصحُّ دعوى الفِراسة لمن هو في محلِّ اتِّقاء الفِراسة؟!

ويحكى عن الزَّبيديِّ قال: كنت في مسجد ببغداد مع جماعة مِن الفقراء، فلم يُفتحْ علينا بشيء أياماً، فأتيت الخوَّاص لأسألَه شيئاً، فلمَّا وقع بصرُه علَيَّ . . قال: الحاجة التي جئتَ لأجلها يعلمها الله أم لا؟ فقلت: بلى، فقال:

أُسكت ولا تُبدِها لمخلوق، فرجعْتُ ولم ألبَثْ إلا قليلاً حتى فُتح علينا بما فوق الكفاية.

وقال أبو سعيد الخرَّاز: دخلْت المسجد الحرام، فرأيت فقيراً عليه خِرقتان يسأل النَّاس شيئاً، فقلت في نَفْسِي: مثل هذا كَلٌّ على النَّاس؟! فنظر إليَّ وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٥]، قال: فاستغفرْتُ في سِرِّي، فناداني وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشّورىٰ: ٢٥].

وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعَام: ١٢٢]؛ أي: مَيْتَ الذِّهنِ فأحياه الله تعالى بنور الفِراسة، وجعل له نورَ التَّجلي والمشاهدة، لا يكون كمن يمشي بين أهل الغفلة غافلاً.

باب الخُلُق

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القَلَم: ٤].

بسنده إلى أنس رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله أيُّ المؤمنين أفضل إيماناً؟ قال: «**أحسنُهم خُلُقاً**»(١).

قال الأستاذ: الخُلُق الحَسن أفضلُ مناقب العبد، وبه يَظهر جواهر الرِّجال، والإنسان مستور بخَلْقه مشهود بخُلُقه.

وقال الواسطي: الخُلُق العظيم: ألَّا يُخاصِم و لا يُخاصَم مِن شِدَّة معرفته بالله تعالى.

قال الكتَّاني: التَّصوُّف خُلُق، مَن زادَ عليك بالخُلُق . . فقد زاد عليك في التَّصوُّف.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٢).

وقيل: كان ابن عمر - رضي الله عنهما - إذا رأى واحداً مِن عبيده يُحسن الصلاة . . يعتقُه، فعرفوا ذلك مِن خُلُقه، فكانوا يحسنون الصلاة مُراءاةً له، وكان يُعتقُهم، فقيل له في ذلك، فقال: مَن خدَعَنا في الله . . انخدعْنا له.

قال عبد الله بن محمد الرازي: الخُلُق: استصغار ما منك إليه، واستعظام ما منه إليك.

وقال شاه الكرماني: علامة حُسن الخُلُق: كف الأذى، واحتمال المؤن.

وقال رسول الله ﷺ: «**إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، ولكن ليسعْهُم منكم بَسْط الوجه وحُسن الخُلُق**»(١).

وشتم رجل الأحنفَ بن قيس، وكان يتْبعُه، فلما قَرُب مِن الحي . . وقف وقال: يا فتى . . إنْ بقي شيء . . فقلْه كيلا يسمعَك بعض سفهاء الحي فيجيبوك(٢).

وقيل: نزل معروف الكرخي الدِّجلة ليتوضَّأ، ووضع مصحفَه ومِلحفتَه، فجاءت امرأة وحملتْهما، فتبعها معروف وقال: يا أختي . . أنا معروف ولا بأس عليك، ألكِ ابن يقرأ؟ قالت: لا، قال: فزوج؟ قالت: لا، قال: فهاتي المصحف وخذي الثوب.

وسئل أبو حفص عن الخُلُق، فقال: هو ما اختار اللهُ عزَّ وجلّ لنبيه ﷺ في قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ... ﴿١٩٩﴾﴾ الآية [الأعراف: ١٩٩].

وقالت امرأة لمالك بن دينار: يا مُرائي! فقال: يا هذه . . وجدْتِ اسمي الذي أضلَّه أهل البَصرة.

وحكي أنَّ أبا عثمان الحِيريَّ دعاه إنسان إلى ضيافة، فلما وافى بابَ

---

(١) أخرجه الحاكم في ((المستدرك)) (١/ ١٢٤)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٧٦٩٥) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في نسخة: فيؤذوك.

داره.. قال: يا أستاذ .. ليس الآن وقتُ دخولك، وقد ندمْتُ، فانصَرِفْ، فرجعَ أبو عثمان، فلما وافى منزلَه .. عاد إليه الرَّجُل، وقال: يا أستاذ .. ندمت، وأخذ يعتذر إليه، وقال أُحضُرِ السَّاعة، فقام أبو عثمان ومضى، فلما وافى باب داره .. قال مثلَ ما قال في الأولى، ثم كذلك فَعل في الثالثة والرابعة، وأبو عثمان ينصرفُ ويَحضر، فلما كان بعد مرَّات .. قال: يا أستاذ .. أردْتُ اختبارَك، وأخذ يعتذر ويمدحُه، فقال أبو عثمان: لا تمدحْني على خُلُق تجد مثلَه مع الكلاب، الكلبُ إذا دُعي .. حضر، وإذا زُجر .. انزجر.

وقيل: إنَّ أبا عثمان اجتاز بسِكَّة[1] وقتَ الهاجرة، فأُلقي عليه مِن سطح طِشتُ رماد، فتغيَّر أصحابه، وبسطوا ألسنتهم في المُلقِي، فقال أبو عثمان: لا تقولوا شيئاً، مَن استحقَّ أنْ يُصَبَّ عليه النَّار، فصُولِح على الرَّماد .. لَمْ يجُزْ له أنْ يغضب.

وقيل: مِن سوء خُلُقك وقوعُ بصرك على سوء خُلُق غيرك.

باب الجود والسَّخاء

قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

بسنده إلى عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**السَّخيُّ قريب مِن الله، بعيد مِن النار، قريب مِن الجَنَّة، قريب مِن النَّاس، والبخيل بعيد مِن الله، بعيد مِن الجَنَّة، بعيد مِن النَّاس، قريب مِن النَّار، والجاهل السَّخيُّ أحَبُّ إلى الله عزَّ وجلّ مِن العابد البخيل**»[2].

(١) أي: طريق.

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٦١)، والطبراني في ((الأوسط)) (٢٣٦٣)، واللفظ له.

وحقيقة الجود: ألَّا يصعُبَ عليه البذْل، وعند القوم: السَّخاء هو الرُّتبة الأولى، ثم الجود بعده، ثم الإيثار، فمَن أَعطى البعض وأبقى البعض . . فهو صاحب سَخاء، ومَن بذل الأكثر وأبقى لنفْسه شيئاً . . فهو صاحب جود، والذي قاسى الضَّرر وآثر غيرَه بالبُلْغة . . فهو صاحب إيثار.

وقيل: لقي رجُل مِن أهل مَنبِج رجُلاً مِن أهل المدينة، فقال: ممَّن الرَّجُل؟ فقال: مِن أهل المدينة، فقال له: لقد أتانا رجُل منكم يُقال له الحكم بن عبد المطلب، فأغنانا، فقال له المدني: وكيف وما أتاكم إلا في جبة صوف؟! فقال: ما أغنانا بمال، ولكنَّه علَّمَنا الكرم، فعاد بعضُنا على بعض حتى استَغْنينا.

وقيل: الجود: إجابة الخاطر الأول.

وقيل: مرض قيس بن سعد بن عبادة، فاستبطأ إخوانَه، فسأل عنهم، فقيل له: إنهم يستحيون مما لَك عليهم مِن الدَّين، فقال: أخزى اللهُ مالاً يمنع الإخوان مِن الزِّيارة، ثم أمر مَن يُنادي: مَن كان لقيس عليه دَين . . فهو منه في حِلٍّ، فكُسرَتْ عتبتُه بالعَشيِّ؛ لكثرة مَن عادَه.

وقيل: سأل رجُل الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما شيئاً، فأعطاه خمسين ألفَ درهم وخمسمائة دينار، وقيل: ائت بحمَّال يحمله لك، فأتى بحمَّال، فأعطاه طيلسانَه وقال: يكون كِراءُ الحمَّال مِن قِبَلي.

وسألت امرأة الليث بن سعد سُكُرُّجة عسل، فأمر لها بزِقٍّ مِن عسل، فقيلَ له في ذلك، فقال: إنها سألَت على قَدْر حاجتها، ونحن نعطيها على قَدْر نِعَمِنا.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور: ٦١]: (إنهم كانوا يتحرَّجون في أنْ يأكل أحدُهم وحدَه، فرُخِّصَ لهم في ذلك)[1].

(١) أخرجه الطبري في ((تفسيره)) (١٧/ ٣٧٥).

وقال عبد الله بن المبارك: سَخاءُ النَّفْس عما في أيدي النَّاس أفضلُ مِن سَخاء النَّفْس بالبَذْل.

وقال بعضهم: دخلْتُ على بِشر بن الحارث في يومٍ شديد البرد، وقد تعَرَّى مِن الثِّياب وهو ينتفض، فقلت: يا أبا نصر .. الناس يَزيدون في الثِّياب في مثل هذا اليوم، وأنت قد نَقَصْت؟! فقال: ذكرْتُ الفقراء وما هم فيه، ولم يكن لي ما أُواسيهم به، فأردْتُ أنْ أوافقَهم بنفْسي في مُقاساة البرد.

باب الغَيْرَة

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله يَغار**[(١)]، **وإنَّ المؤمن يَغار، وغَيْرة الله: أنْ يأتيَ العبد المؤمن ما حَرَّم اللهُ عليه**»[(٢)].

قال الأستاذ: والغَيرة: كراهيةُ مشاركة الغير، وإذا وُصف اللهُ سبحانه بالغَيرة .. فمعناه: أنه لا يرضى بمشاركة الغير معه فيما هو حقٌّ له تعالى مِن طاعة عبده له.

حُكي عن السَّريِّ السَّقطيِّ أنه قُرئ بين يديه: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء: ٤٥]. فقال السَّريُّ لأصحابه: أتدرون ما هذا الحجاب؟ هذا حجاب الغَيرة، ولا أحدٌ أغيَرُ مِن الله تعالى، ومعنى قوله: هذا حجاب الغَيرة يعني: أنه لم يَجعل الكافرين أهلاً لمعرفة صِدق الدِّين.

---

(١) غَيرة الله: عدم رضاه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٦١/ ٣٦)، والترمذي (١١٦٨).

وكان الأستاذ أبو علي الدَّقَّاق رحمه الله تعالى يقول: إنَّ أصحاب الكسل عن عبادته تعالى هم الذين ربطَ الحقُّ بأقدامهم مُثقِلَةَ الخِذلان، فاختار لهم البعدَ عنه، وأخَّرهم عن محلِّ القُرْب، ولذلِك تأخَّروا.

قال الشبلي: الغيرة غيرتان: غيرة البشرية على النفوس، وغيرة الإلهية على القلوب.

سمعت الشَّيخ أبا عبد الرحمن رحمه الله تعالى يقول: قال النَّصراباذي: الحقُّ تعالى غيور، ومِن غَيرته أنه لمْ يجعل إليه طريقاً سواه.

باب الوِلاية

قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يُونس: ٦٢].

بسنده إلى عائشة رضي الله عنها، أنَّ النبي ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: مَن آذى ولياً .. فقد استحلَّ محاربَتي، وما تقرَّب إليَّ العبد بمثل أداء ما افترضت عليه، وما يزال العبدُ يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، وما ترددْتُ في شيء أنا فاعله كتردُّدي في قبْض روحِ عبدي المؤمن؛ لأنه يكره الموت وأكره مَساءتَه، ولابُدَّ له منه**»(١).

قال الأستاذُ: الوليُّ له معنيان:

أحدهما: فَعيل بمعنى مفعول، وهو مَن يتولَّى الله سبحانه أمرَه؛ قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، فلا يَكِلُه إلى نفسه لحظة، بل يتولَّى الحقُّ سبحانه رعايتَه.

والثَّاني: فَعيل مبالغةٌ مِن الفاعل، وهو الذي يتولَّى عبادة الله وطاعته،

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٦١٩٣)، واللفظ له، وأخرجه البخاري (٦٥٠٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

فعبادتُه تَجري على التَّوالي مِن غير أنْ يتخلَّلها عِصيان.

وكلا الوصفين واجب[١] حتى يكونَ الوليُّ وليّاً: يجب قيامُه بحقوق الله تعالى على الاستقصاء والاستيفاء، ودوام حفظ الله تعالى إياه في السراء والضراء.

ومِن شرط الولي: أنْ يكون محفوظاً، كما أنَّ مِن شرْط النبي أنْ يكون معصوماً، فكلُّ مَن كان للشَّرع عليه اعتراض . . فهو مغرور مخدوع.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق رحمه الله تعالى يقول: قصَد أبو يزيد البسطامي بعض مَن وُصف بالولاية، فلمَّا وافى مسجدَه . . قعد ينتظر خروجَه، فخرج الرَّجُل وتنخَّمَ في المسجد، فانصرف أبو يزيد ولمْ يُسلِّمْ عليه، وقال: هذا رجُل غيرُ مأمونٍ على أدب مِن آداب الشّريعة، فكيف يكون أميناً على أسرار الحقِّ؟!

واختلفوا في أنَّ الوليَّ: هل يجوز أنْ يَعلم أنه وليٌّ أم لا؟ فمنهم مَن قال: لا يجوز ذلك؛ وقال: إنَّ الوليَّ يلاحِظُ نفْسَه بعين التَّصغير، وإنْ ظهر عليه شيء مِن الكرامات . . خاف أنْ يكون مَكْراً، وهو يستشعر الخوف دائماً أبداً؛ لخوف سقوطِه عمَّا هو فيه، وأنْ تكونَ عاقبته بخلاف حاله، وهؤلاء يجعلون مِن شرْط الولاية وفاءَ المآل، ومنهم مَن قال: يجوز أنْ يَعلم الوليُّ أنه وليٌّ، وليس مِن شرْط تحقيق الولاية في الحال الوفاءُ في المآل.

ثم إنْ كان ذلك[٢] مِن شرْطه أيضاً . . فيجوز أنْ يكون هذا الوليُّ خُصَّ بكرامةٍ هي: تعريف الحقِّ إيَّاه أنه مأمونُ العاقبة؛ إذ القول بجواز كرامات الأولياء واجب، وهو - وإن قارفَه[٣] خوفُ العاقبة - فما هو عليه مِن الهَيبة

(١) واجبٌ تحقُّقه.

(٢) الوفاء في المآل.

(٣) أي: خالطه.

والتَّعظيم والإجلال في الحال أتمُّ وأشدُّ؛ فإنَّ اليسير مِن التَّعظيم والهيبة أهدأ للقلوب مِن كثيرٍ مِن الخوف.

ولمَّا قال ﷺ: «**عشرة في الجنَّة مِن أصحابي**»[1] فالعشرة - لا محالةَ - صدَّقوا الرسول ﷺ وعرفوا سلامةَ عاقبتهم، ثم لم يَقدح ذلك في حالهم.

وقيل: إنَّ إبراهيم بن أدهم قال لرجل: أتحبُّ أنْ تكونَ لله ولياً؟ فقال: نعم، فقال: لا ترغَبْ في شيء مِن الدُّنيا والآخرة، وفرِّغْ نفْسَك لله تعالى، وأقبِل بوجهك عليه؛ ليُقبِل عليك ويُواليك.

قال يحيى بن معاذ: الوليُّ لا يُرائي ولا يُنافِق، وما أقلَّ صديق مَن كان هذا خُلُقه.

وقال يحيى بن معاذ: الوليُّ رَيحان الله تعالى في الأرض يشمه الصِّدِّيقون، فتصل رائحته إلى قلوبهم، فيشتاقون به إلى مولاهم، ويزدادون عبادة على تفاوت أخلاقهم.

وقيل: علامة الوليِّ ثلاثة: شُغْله بالله، وفِراره إلى الله، وهمُّه إلى الله.

قال أبو تراب النخشبي: إذا أَلِفَ القلب الإعراض عن الله صحبته الوقيعة في أولياء الله تعالى.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٤٨)، وأبو داود (٤٦٤٩)، والنسائي في ((الكبرى)) (٨١٩٥) عن سيدنا سعيد بن زيد رضي الله عنه، ولفظ الحديث عند الترمذي: (عشرة في الجنة أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة وعثمان وعلي والزبير وطلحة وعبد الرحمن وأبو عبيدة وسعد بن أبي وقاص قال فعد هؤلاء التسعة وسكت عن العاشر فقال القوم ننشدك الله يا أبا الأعور من العاشر؟ قال نشدتموني بالله، أبو الأعور في الجنة) يعني: نفسه وهو سيدنا سعيد بن زيد رضي الله عنه.

باب الدُّعاء

قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**الدُّعاء مُخُّ العبادة**»(١).

قال سهل بن عبد الله: أقرب الدُّعاء إلى الإجابة دعاء الحال، ودعاء الحال: أنْ يكون صاحبه مضطراً لا بُدَّ له مما يدعو لأجله.

وقد اختلف النَّاس في أنَّ الأفضل الدُّعاء، أم السُّكوت والرِّضا؟

فمنهم مَن قال: الدُّعاء في نفْسه عبادة؛ قال ﷺ: «**الدُّعاء مُخُّ العبادة**»، والإتيان بما هو عبادة أولى مِن ترْكه، ثم هو حقُّ الله تعالى، فإنْ لمْ يُستَجبْ للعبد ولمْ يصل(٢) إلى حظِّ نفْسِه . . فلقد قام بحقِّ ربِّه؛ لأنَّ الدُّعاء إظهار فاقة العبودية، وقد قال أبو حازم الأعرج: لئِن أُحرَمَ الدُّعاء أشدُّ عليَّ مِن أنْ أُحرَم الإجابة.

وطائفة قالوا: السُّكوت والخمول تحت جرَيان الحكْم أتمُّ، والرِّضا بما سبق مِن اختيار الحقِّ أولى، ولهذا قال الواسطيُّ: اختيار ما جرى لك في الأزل خير لك مِن معارضة الوقت، وقد قال ﷺ خبراً عن الله تعالى: «**مَن شغَله ذِكري عن مسألتي . . أعطيتُه أفضلَ ما أُعطي السَّائلين**»(٣).

وقال قوم: يجب أنْ يكون العبد صاحبَ دعاء بلسانه وصاحبَ رضاً

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧١)، والطبراني في ((الأوسط)) (٣١٩٦).

(٢) أي: العبد.

(٣) أخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٥٦٨) عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وأخرجه الترمذي (٢٩٢٦)، والدارمي (٣٣٩٩)، بألفاظ متقاربة.

بقلبه؛ ليأتي بالأمرين جميعاً.

والأَولى أنْ يقال: إنَّ الأوقات مختلفة، ففي بعض الأحوال الدُّعاء أفضل مِن السُّكوت وهو الأدب، وفي بعض الأحوال السُّكوت أفضل من الدعاء وهو الأدبُ، وإنما يُعرَف ذلك في الوقت؛ لأن علمَ الوقت إنَّما يحصُل في الوقت، فإذا وَجد بقلبه إشارةً إلى الدُّعاء . . فالدُّعاء له أولى، وإذا وَجد إشارةً إلى السُّكوت . . فالسُّكوت له أولى.

ويصحُّ أنْ يُقال: ما كان للمسلمين فيه نصيب أو للحقِّ سبحانه فيه حقٌّ . . فالدُّعاء أولى، وما كان لنفسك فيه حظٌّ . . فالسُّكوت أتمُّ.

ومِن آداب الدُّعاء: حضور القلب، وألَّا يكون ساهياً؛ فقد رُوي عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**إنَّ الله تعالى لا يستجيب دعاءَ عبد مِن قلب لاهٍ**»(١).

ومِن شرائطه: أنْ يكون مطعَمُه حلالاً؛ فلقد قال ﷺ لسعد: «**أَطِبْ مَطعَمَك . . تُستَجَبْ دعوتُك**»(٢).

وقد قيل: الدُّعاء مِفتاح الحاجة، وأسنانه لُقَمُ الحلال.

كان صالح المُرِّي يقول كثيراً: مَن أدمنَ قرْعَ باب . . يوشِك أنْ يُفتح له، فقالت له رابعة: إلى متى تقول هذا؟ متى أُغلق هذا الباب حتى يُستفتَح؟ فقال صالح: شيخ جَهِل وامرأة علمَتْ.

وقيل: فائدة الدُّعاء: إظهار الفاقة بين يديه تعالى، وإلا فالرَّبُّ يفعل ما يشاء.

وسئل الواسطيُّ أنْ يدعوَ، فقال: أخشى أني إنْ دعوت . . أنْ يُقال لي: إنْ سألتَنا ما لَك عندنا . . فقد اتَّهمْتَنا، وإنْ سألتَنا ما ليس لك عندنا . . فقد أسأْتَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٧٩)، والطبراني في ((الأوسط)) (٥١٠٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أورده الإمام الغزالي في ((الإحياء)) (٢/ ٨٩)، وهو عند الطبراني في ((الأوسط)) (٦٤٩) بلفظ (يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة . . .) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما.

الثَّناء علينا، وإنْ رضيتَ . . أجرينا لك مِن الأمور ما قضينا لك به في الدُّهور.

قيل: الدُّعاء: المراسَلة، وما دامت المراسلة باقية . . فالأمر جميل بعد، وفي معناه أنشدوا:

دموعُ الفتى عمَّا يُجِنُّ تُترجم وأنفاسُه يُبدين ما القلب يكتم

وقيل: الإذن في الدُّعاء خير للعبد مِن العطاء.

وقيل: شرط الدُّعاء: الوقوف مع القضا بوصف الرضا

وقيل: كيف تَنتظر إجابةَ الدَّعوة وقد سَدَدْتَ طريقَها بالهفوة؟!

باب الفقر

قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٧٣].

بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام نصف يوم**»(١).

وبسنده إلى عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس المسكين بهذا الطَّوَّاف الذي يطوف على النَّاس، فترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان**»، قيل: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: «**الذي لا يجد غِنىً يغنيه، ويستحي أنْ يسأل الناس، وَلَا يُفطَنُ له فيُتَصَدَّقَ عليه**»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٥٣)، والإمام أحمد (١٠٦٥٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤٦٢٠)، وهو عند البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩/ ١٠١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الأستاذ: معنى قوله: (يستحي أنْ يسأل الناس)؛ أي: يستحي مِن الله تعالى أنْ يسأل الناس، لا أنه يستحي مِن الناس.

والفقر شعار الأولياء، وحِلية الأصفياء، واختيار الحقِّ سبحانه لخَواصِّه مِن الأتقياء والأنبياء.

سئل يحيى بن معاذ عن الفقر، فقال: حقيقتُه: ألَّا يستغنيَ العبدُ إلا بالله، ورسْمُه[1]: عدمُ الأسباب كلِّها.

قال الجنيد - وقد سئل عن الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى: أَهوَ أتمُّ أم الاستغناء بالله تعالى - فقال: إذا صحَّ الافتقار إلى الله عزَّ وجلّ . . فقد صحَّ الاستغناء بالله تعالى، وإذا صحَّ الاستغناء بالله تعالى . . كَمُل الغنى به، فلا يقال: أيُّهما أتمُّ الافتقار أم الغنى؛ لأنَّهما حالتان لا تتمُّ إحداهما إلا بالأُخرى.

قيل: نَعْتُ الفقير ثلاثة أشياء: حِفظُ سِرِّه، وأداء فرضه، وصيانة فقره.

وقيل للربيع بن خيثم: قد غلا السِّعر، فقال: نحن أهون على الله مِن أنْ يجيعَنا، إنما يُجِيعُ أولياءَه.

وقال إبراهيم بن أدهم: طلبنا الفقر فاستقبلَنا الغنى، وطلب الناس الغنى فاستقبلَهم الفقر.

قيل ليحيى بن معاذ: ما الفقر؟ قال: خوف الفقر، قيل: ما الغنى؟ قال: الأمن بالله تعالى.

وسئل أبو حفص: بماذا يَقدُم الفقير على ربه عزَّ وجلّ؟ فقال: وما للفقير أنْ يَقدُمَ به على ربِّه تعالى سوى فَقرِه !؟

وقال سهل بن عبد الله: خمسة أشياء مِن جوهر النفس: فقير يُظهِر الغنى،

(١) أي: تعريفه.

وجائع يُظهِر الشِّبع، ومحزون يُظهِر الفرح، ورجُل بينه وبين رجل عداوة يُظهِر المحبَّة، ورجُل يصوم النَّهار ويقوم الليل ولا يُظهِر ضعْفاً.

وقال الشِّبليُّ: أدنى علاماتِ الفقر: أنْ لو كانت الدُّنيا بأسرها لأحد فأنفقها في يوم، ثم خَطَر بباله أنْ لو أمسَك منها قوتَ يوم . . ما صَدَق في فقره.

وقال عبد الله بن المبارك: إظهار الغنى في الفقر أحسن مِن الفقر.

وقال بُنان المصريُّ: كنت بمكَّة قاعداً وشابٌّ بين يدي، فجاءه إنسان وحمل إليه كيساً فيه دراهم ووضعه بين يديه، فقال: لا حاجة لي فيه، فقال: فَرِّقه على المساكين، فلمَّا كان العِشاء . . رأيته في الوادي يطلب شيئاً لنفسه، فقلت: لو تركت لنفسك مما كان معك شيئاً؟ قال: لمْ أعلم أني أعيش إلى هذا الوقت.

وقيل: أقلُّ ما يلزم الفقير في فقره أربعة أشياء: علم يَسوسُه، وورع يحجِزُه، ويقين يحمِله، وذِكر يؤنسُه.

قال النُّوريُّ: نعْتُ الفقير: السُّكون عند العدم، والإيثار عند الوجود.

وقال منصور بن خلف المغربي: قال لي أبو سهل الخشَّاب الكبير: الفقر: فقر وذُلٌّ[١]، فقلت: لا، بل فقر وعزٌّ[٢]، فقال: فقر وثرى[٣]، فقلت: لا، بل فقر وعرش[٤].

وقال ابن الجلَّاء: لولا شرف التَّواضع لله . . لكان حُكْم الفقير إذا مشى أنْ يتبختَر.

قال أبو بكر بن طاهر: مِن حُكْم الفقير ألَّا يكون له رغبة في الدُّنيا، فإن

(١) أي: لله.
(٢) أي: بالله.
(٣) أي: تواضُع ونزول إلى الأرض.
(٤) أي: ارتفاع.

كان ولا بُدَّ . . فلا تُجاوِز رغْبتُه كِفايتَه.

باب التَّصوُّف(١)

الصفاء محمود بكُلِّ لسان، وضِدُّه الكُدورة، وهي مذمومة.

ثم هذه التَّسْمية غلبَتْ على هذه الطَّائفة، فيُقال: رجُل صوفيٌّ، وللجماعة صوفيَّة، ومَن يَتوصَّل إلى ذلك . . يقال له: مُتصوِّف، وللجماعة: المتصوِّفة.

وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربيةُ قياس ولا اشتقاق والأظهر فيه كأنه اللقب.

سئل أبو محمد الجريري عن التَّصوُّف، فقال: الدُّخول في كل خُلُق سَنِي، والخروج مِن كل خُلُق دنِي.

وسئل الجنيد عن التَّصوُّف فقال: هو أنْ يُميتَك الحقُّ عنك ويُحييَكَ به.

وسئل عمرو بن عثمان المكيُّ عن التَّصوُّف، فقال: أنْ يكون العبد في كل وقت بما هو أولى به في الوقت.

قال رُويم بن أحمد البغدادي: التَّصوُّف مبنيٌّ على ثلاث خصال: التَّمسُّك بالفقرِ والافتقارِ إلى الله، والتَّحقُّق بالبذل والإيثار، وترك التَّعرُّض والاختيار.

وقال الكتَّاني: التَّصوُّف خُلُق، فمَن زاد عليك في الخُلُق . . فقد زاد عليك في الصَّفاء.

وقال المزيِّن: التَّصوُّف: الانقياد للحقِّ.

وقال أبو تراب النخشبي: الصوفي لا يكدره شيء ويصفو به كل شيء.

---

(١) التصوف: هو ما ذكره الله تعالى في كتابه الكريم بالتزكية بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ١٤-١٥]، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشّمس: ٩-١٠]، وهو الإحسان الذي ذكره النبي ﷺ في حديث جبريل (. . . أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) فالإحسان مراقبة وشهود، والتزكية تخلية وتحلية.

وقال الأستاذ أبو سهل الصُّعلوكي: التَّصوُّف: الإعراض عن الاعتراض.

باب الأدب

قال تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦]، جاء في التَّفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما: (فقِّهوهُم وأدِّبوهم)[١].

بسنده إلى عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: «**حقُّ الولد على والده: أنْ يُحسن اسمه، ويُحسن مِن مَرْضَعِهِ، ويحسن أدبه**»[٢].

ويحكى عن سعيد بن المسيَّب أنه قال: مَن لم يعرف ما لله عزَّ وجلّ عليه في نفْسِه، ولم يتأدَّب بأمره ونهيه . . كان مِن الأدب في عُزْلة.

وحقيقة الأدب: اجتماع جميع خِصال الخير.

قال الجلاجليُّ البصريُّ: التَّوحيد مُوجِب يوجب الإيمان، فمَن لا إيمان له . . فلا توحيد له، والإيمان مُوجِب يوجب الشَّريعة، فمَن لا شريعةَ له . . فلا إيمان له ولا توحيد، والشَّريعة مُوجِب يُوجِب الأدب، فمَن لا أدبَ له . . لا شريعة له ولا إيمان ولا توحيد.

وروي عن ابن سيرين أنه سئل: أيُّ الآداب أقرب إلى الله تعالى؟ فقال: معرفة برُبوبيَّته، وعمل بطاعته، والحمد لله على السَّرَّاء، والصبر على الضَّرَّاء.

سمعت الأستاذ أبا علي رحمه الله تعالى يقول: ترك الأدب مُوجِب يوجب الطَّرْد، فمَن أساء الأدب على البساط . . رُدَّ إلى الباب، ومَن أساء الأدب على الباب . . رُدَّ إلى سياسة[٣] الدَّواب.

---

(١) أورده الإمام السيوطي في ((الدر المنثور)) (٨/ ٢٢٥).

(٢) أخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٨٣٠٠).

(٣) أي: خدمة.

وقال يحيى بن معاذ: مَن تأدَّب بأدب الله تعالى . . صار مِن أهل محبة الله تعالى.

وروي عن ابن المبارك أنه قال: نحن إلى قليل مِن الأدب أحوج مِنَّا إلى كثير مِن العِلم.

وقيل: ثلاث خِصال ليس معَهن غُربة: مجانَبة أهل الرَّيْب، وحُسن الأدب، وكَفُّ الأذى.

وقال أبو النَّصر الطُّوسيُّ السَّرَّاج: الناس في الأدب على ثلاث طبقات:

أما أهل الدُّنيا . . فأكثر آدابهم في الفصاحة والبلاغة وحفظ العلوم وأسماء الملوك وأشعار العرب.

وأما أهل الدِّين . . فأكثر آدابهم في رياضة النُّفوس وتأديب الجوارح وحفظ الحدود وترْك الشَّهَوات.

وأما أهل الخصوصية[1] . . فأكثر آدابهم في طهارة القلوب ومراعاة الأسرار والوفاء بالعهود وحفظ الوقت، وقِلَّة الالتفات إلى الخواطر، وحُسن الأدب في مواقف الطَّلب وأوقات الحضور ومقامات القُرب.

وقال أبو عثمان: إذا صحَّت المحبَّة . . تأكَّدَ على المُحب مُلازَمة الأدب.

وقال ذو النون المصري: إذا خرج المريد عن استعمال الأدب . . فإنَّه يرجع مِن حيث جاء.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق رحمه الله تعالى يقول في قوله عزَّ وجلّ ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣] قال: لم يقُل: ارحمْني؛ لأنه حَفِظ آداب الخطاب، وكذلك عيسى عليه السلام حيث قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨]، وقال: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ [المائدة: ١١٦] ولم يقُل: لم أقل؛ رعايةً لآداب الحضرة.

---

(١) أي: العارفون بالله.

باب أحكامهم في السَّفر

قال الله عزَّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ... ﴿٢٢﴾﴾ [يُونس: ٢٢].

بسنده إلى ابن عمر رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا استوى على البعير خارجاً إلى سفر . . كَبَّر ثلاثاً، ثم قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزّخرُف: ١٣-١٤]، ثم يقول: «**اللهم . . إنَّا نسألُك في سفرنا هذا البِرَّ والتَّقوى ومِن العمل ما تَرضى، اللهم . . هوِّن علينا سفرنا هذا واطو عنَّا بعده، اللهم . . أنت الصَّاحب في السَّفر والخليفة في الأهل، اللهم . . إني أعوذ بك مِن وَعْثاء السَّفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل**»، وإذا رجع . . قالهن، وزاد فيهن: «**آيِبون . . تائبون . . عابدون لربِّنا حامدون**»[1].

قال الأستاذ: وهذه الطَّائفة مختلفون:

فمِنهم مَن آثرَ الإقامةَ على السَّفر، ولم يسافر إلا لفرض كحَجَّة الإسلام، والغالب عليهم الإقامة، مثل: الجنيد، وسهل بن عبد الله، وأبي يزيد البسطامي، وأبي حفص، وغيرهم.

ومِنهم مَن آثرَ السَّفر، وكانوا على ذلك إلى أنْ أُخرجوا مِن الدُّنيا، مثل: أبي عبد الله المغربي، وإبراهيم بن أدهم، وغيرهم.

وكثيرٌ منهم سافروا في ابتداء أمورهم في حال شبابهم أسفاراً كثيرة، ثم قعدوا عن السَّفر في آخر أحوالهم، مثل: أبي عثمان الحيري، والشبلي، وغيرهم.

ولكلٍّ مِنهم أصول بنَوا عليها طريقتَهم.

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٤٢/ ٤٢٥)، وأبو داود (٢٦٠١)، والنسائي في ((الكبرى)) (١١٤٦٦).

واعلم أنَّ السَّفر على قسمين:

سفر بالبدن: وهو الانتقال مِن بُقعة إلى بُقعة.

وسفر بالقلب: وهو الارتقاء مِن صفة إلى صفة، فترى ألفاً يسافر بنَفْسِه وقليل مَن يسافر بقلبه.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق رحمه الله تعالى يقول: جاءني بعض الفقراء يوماً وأنا بمَرُو، فقال لي: قطعْتُ إليك شُقَّةً بعيدة، والمقصود لقاؤك، فقلت له: كان يكفيك خُطوة واحدة لو سافرتَ عن نفسك.

قال أحنفُ الهمذاني: كنت في البادية وحدي، فأُعْييتُ، فرفعتُ يديَّ وقلت: يا رب . . إني ضعيف زَمِنٌ، وقد جئت إلى ضيافتك، فوقع في قلبي أنْ يقالَ لي: مَن دعاك؟ فقلت: يا رب . . هي مملكة تحتمل الطُّفيلي، فإذا أنا بهاتف مِن ورائي، فالتفتُّ إليه، فإذا أعرابي على راحلة، فقال: يا أعجمي . . إلى أين؟ قلت: إلى مكَّة، قال: أوَدعاك؟ قلت: لا أدري، فقال: أليس قال: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾؟ [آل عِمرَان: ٩٧] فقلت: المملكة واسعة تحتمل الطُّفيلي، فقال: نِعْمَ الطُّفيليُّ أنت، يمكنك أنْ تخدِمَ الجمل؟ قلت: نَعم، فنزل عن راحلته و أعطانيها، وقال: سِرْ عليها.

حُكي عن محمد بن إسماعيل الفَرْغَاني أنه قال: كنَّا نسافر مقدار عشرين سنة أنا وأبو بكر الزَّقَّاق والكتَّاني، لا نختلط بأحد ولا نعاشر أحداً، فإذا قدِمنا بلداً . . فإنْ كان فيه شيخ . . سلَّمْنا عليه وجالسناه إلى الليل، ثم نرجع إلى مسجد، فيصلي الكتَّاني مِن أوَّل الليل إلى آخره ويختم القرآن، ويجلس الزَّقَّاق مستقبلَ القِبلة، وكنت أستلقي متفكِّراً، ثم نصبح ونصلي صلاة الفجر على وضوء العتَمة[1]، فإذا وقع معنا إنسان ينام . . كنا نراه أفضلَنا.

وحُكي عن أبي علي الرِّباطي قال: صحبْتُ عبد الله المروزي، وكان

(١) أي: العشاء.

يدخل البادية قبل أنْ أصحبَه بلا زاد ولا راحلة، فلما صحبتُه قال لي: أيُّما أحبُّ إليك؟ أنْ تكون أنت الأمير أم أنا؟ فقلت: لا، بل أنت، فقال: وعليك الطَّاعة؟ فقلت: نعم، فأخذ مِخلاةً ووضع فيها زاداً وحملها على ظهره، فإذا قلت: أعطني حتى أحملَها . . قال: الأمير أنا، وعليك الطَّاعة، قال: فأخذَنا المطر ليلة، فوقف إلى الصَّباح على رأسي وعليه كساء يمنع عني المطر، فكنت أقول في نفْسي: يا ليتني مِتُّ ولمْ أقُلْ له أنت الأمير، ثم قال لي: إذا صحبْتَ إنساناً . . فاصحَبْه كما رأيتَني صحبتُك.

وقال أبو عبد الله النَّصبيني: سافرْتُ ثلاثين سنة ما خِطْتُ قطُّ خِرقة على مُرَقَّعتي، ولا عَدَلْتُ إلى موضع علمْتُ أنَّ لي فيه رفيقاً، ولا تركْتُ أحداً يحمل معي شيئاً.

وقال أبو يعقوب السُّوسي: يحتاج المسافر إلى أربعة أشياء في سفره: عِلم يسوسه، وورع يحجزه، ووَجْد يحمله، وخُلُق يصونه.

وقيل: سُمِّي السَّفر سفراً؛ لأنَّه يُسْفِر عن أخلاق الرِّجال.

وقيل: كان الخوَّاص في سفر ومعه ثلاثة نفر، فبلغوا مسجداً في بعض المفاوِز وباتوا فيه، ولم يكُنْ عليه باب، وكان برد شديد فناموا، فلمَّا أصبحوا . . رأوه واقفاً على الباب، فقالوا له في ذلك، فقال: خشِيت أنْ تجدوا البرد، وكان قد وقف طول ليلته.

باب الصُّحبة

قال الله عزَّ وجلّ: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**متى ألقى أحبابي؟**» فقال أصحابه: بأبينا أنت وأمِّنا .. أولسْنَا أحبابَك؟ فقال: «**أنتم أصحابي، أحبابي قوم لم يروني وآمنوا بي، وأنا إليهم بالأشواق أكثر**»[(١)].

والصُّحْبة على ثلاثة أقسام:

صُحبة مع مَن فوقَك: وهي في الحقيقة خدمة.

وصُحبة مع مَن دونَك: وهي تقضي على المتبوع بالشَّفقة والرحمة، وعلى التَّابع بالوِفاق والحُرمَة.

وصُحبة الأكْفاء والنُّظراء: وهي مبنيَّة على الإيثار والفُتوَّة.

فمَن صحب شيخاً فوقه في الرُّتبة .. فأدبُه ترْك الاعتراض، وحمْل ما يبدو منه على وجه جميل.

سمعت منصور بن خلف المغربي - وسأله بعض أصحابنا -: كم سنةً صحبتَ أبا عثمان المغربي؟ فنظر إليه شَزَراً[(٢)] وقال: إني لمْ أصحَبْه، بل خدمتُه مُدَّة.

وأمَّا إذا صحِبَك مَن هو دونَك .. فالخيانة منك في حقِّ صُحْبته ألَّا تنبِّهه على ما فيه مِن نقصان في حالته، ولهذا كتب أبو الخير التِّيناتي إلى جعفرَ بن

(١) أورده السيوطي في ((جامع الأحاديث)) (٣٦٠٠٧)، والحديث عند مسلم (٢٤٩/ ٣٩)، وأحمد (١٢٥٧٩) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) نظر إليه بمؤخرة العين، وأكثر ما يكون في حال الإعراض والغضب.

محمد بن نُصير: وِزْرُ جهلِ الفقراء عليكم لأنكم اشتغلتُم بنفوسكم عن تأديبهم، فبقوا جَهَلة.

وأمَّا إذا صحِبْتَ مَن هو في درجتك . . فسبيلُك التَّعامي عن عيوبه، وحمْلُ ما ترى مِنه على وجهٍ مِن التَّأويل جميل ما أمكنَك، فإنْ لم تجد تأويلاً . . عُدْتَ إلى نفْسك بالتُّهمة وإلى التزام اللائِمة.

قال أحمد بن أبي الحواري: قلت لأبي سليمان الدَّاراني: إنَّ فلاناً لا يقع مِن قلبي، فقال أبو سليمان: وليس يقع أيضاً مِن قلبي، ولكن - يا أحمد - لعلَّنا أُتينا مِن قِبَلنا، لسنا مِن جُملة الصَّالحين، فلسنا نحبُّهم.

قيل: صحب رجُل إبراهيم بن أدهم، فلمَّا أراد أنْ يفارقه . . قال له الرَّجُل: إنْ رأيت فيَّ عيباً . . فنبهني عليه، فقال إبراهيم: إني لمْ أرَ بك عيباً؛ لأني لاحظتك بعين الوِداد، فاستحسنت منك ما رأيت، فسَلْ غيري عن عيبك، وفي معناه أنشدوا:

وعينُ الرِّضا عن كُلِّ عيب كلِيلةٌ ولكنَّ عينَ السُّخْط تبدي المساويا

قال أبو أحمد القَلانِسي - وكان مِن أُستاذِيْ الجنيد -: صحبْتُ أقواماً بالبصرة، فأكرموني، فقلت مرةً لبعضِهم: أين إزاري؟ فسقطْتُ مِن أعينهم.

كان إبراهيم بن أدهم يعمل في الحصَاد وحِفظ البساتين وغيره، وينفق على أصحابه، قيل: وكان مع جماعة مِن أصحابه، فكان يعمل بالنهار وينفِقُ عليهم، ويجتمعون بالليل في موضع وهم صُوَّام، فكان يبطئ في الرجوع مِن العمل، فقالوا ليلة: تعالوا نأكل فطورَنا دونه؛ حتى يعود بعد هذا أسرع، فأفطروا وناموا، فلمَّا رجع إبراهيم . . وجدَهم نياماً، فقال: مساكين، لعلهم لم يكن لهم طعام، فَعَمَد إلى شيءٍ مِن الدَّقيق كان هناك، فعجنه، وأوقد على النَّار، وطرح المَلَّةَ[1]، فانتبهوا وهو ينفخ في النَّار واضعاً محاسنه على

(١) الرماد الحار.

التُّراب، فقالوا له في ذلك، فقال: قلت: لعلَّكم لمْ تجدوا فطوراً، فنِمتم، فأحببت أن تستيقظوا والمَلَّةُ قد أدرَكَتْ[١]، فقال بعضهم لبعض: اُنظروا ما الذي عمِلنا، وما الذي به يعاملُنا !

وقيل: كان إبراهيم بن أدهم إذا صحبه أحد . . شارطَه على ثلاثة أشياء: أنْ تكون الخدمة والأذان له، وأنْ تكون يده في جميع ما يفتح الله عليه مِن الدُّنيا كَيَدِهم.

قال بِشر بن الحارث: صُحبةُ الأشرار تُورث سوءَ الظَّنِّ بالأخيار.

وقال ذو النون: لا تصحب مع الله إلا بالموافقة، ولا مع الخلق إلا بالمناصحة، ولا مع النفس إلا بالمخالفة، ولا مع الشَّيطان إلا بالعداوة.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق يقول: الشجر إذا نبت بنفسه ولم يستنبته أحدٌ. . يورق ولكنه لا يثمر، كذاك المريد إذا لم يكن له أستاذ يتخرَّج به. . لا يجيء منه شيء.

باب التَّوحيد

قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البَقَرَة: ١٦٣].

بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينا رجلٌ فيمن كان قبلَكم لمْ يعمل خيراً قطُّ إلا التَّوحيد، فقال لأهله: إذا مِتُّ . . فاحرقوني، ثم اسحقوني، ثم ذُرُّوا نصفيَ في البر ونصفيَ في البحر في يوم ريحٍ، ففعلوا، فقال الله عزَّ وجلّ للريح: أَدِّي ما أخذْتِ، فإذا هو بين يديه، فقال له: ما حمَلَك على ما صنعْتَ؟ فقال: استحياءً منك، فغفَر له**»[٢].

---

(١) أي: نضجَ خبزها.

(٢) أخرجه أحمد (٣٧٨٦)، والحديث عند البخاري (٣٤٨١)، ومسلم (٢٧٥٦/ ٢٥) بألفاظ متقاربة.

قال الأستاذ: التَّوحيد: هو الحُكم بأنَّ الله واحد، ويقال: وحَّدْتَه: إذا وصفتَه بالوَحدانية.

وقال بعض أهل التَّحقيق في معنى أنه واحد: نفْيُ التَّقسيم لذاته، ونفْيُ التَّشبيه عن حقِّه وصِفاته، ونفْيُ الشَّريك معه في أفعاله ومصنوعاته.

واختلفَتْ عبارات الشُّيوخ عن معنى التوحيد:

قال ذو النون المصري - وقد سئل عن التَّوحيد -: أنْ تَعلمَ أنَّ قُدرة الله تعالى في الأشياء بلا مِزاج[1]، وصُنعُه للأشياء بلا عِلاج، وعِلَّة كُلِّ شيء صُنعُه ولا عِلَّة لصُنعِه، ومهما تُصوِّر في نفْسك شيء . . فالله بخلافه.

وسئل الجنيد عن التَّوحيد، فقال: إفراد الموحَّد بتحقيق وحدانيَّتِه بكمال أحدِيَّته أنه الواحد الذي لم يلد ولم يولَد، بنفْي الأضداد والأنداد والأشباه بلا تشبيه ولا تكييف ولا تصوير ولا تمثيل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وسئل البوشنجي عن التَّوحيد، فقال: غيرُ مُشبِهِ الذَّوات ولا مَنفيِّ الصِّفات.

وقال سهل بن عبد الله - وقد سئل عن ذات الله عزَّ وجلّ -: ذات الله تعالى موصوفة بالعلم، غيرُ مُدرَكَة بالإحاطة، ولا مَرئيَّة بالأبصار في دار الدُّنيا، وهي موجودة بحقائِق الإيمان مِن غير حدٍّ ولا إحاطة ولا حُلول، وتراه العيونُ في العُقبى ظاهراً في مُلكه وقدرته، قد حَجَب الخلْق عن معرفة كُنْهِ ذاته، ودلَّهُم عليه بآياته، فالقلوب تعرفه، والعقول لا تُدركه، يَنظر إليه المؤمنون بالأبصار مِن غير إحاطة ولا إدراكِ نهاية.

وقيل: التَّوحيد: إسقاط الياءات، لا تقول: لي وبي ومنِّي وإليَّ.

---

(١) طِباع.

سمعت أبا علي الدَّقَّاق يقول في آخر عُمره - وكان قد اشتدَّتْ به العِلَّة - فقال: مِن أمارات التأييد: حِفظ التَّوحيد في أوقات الحُكْم، ثم قال - كالمفسِّر لقوله مُشيراً إلى ما كان مِن حاله -: هو أنْ يَقرِضَك بمقاريض القُدرة في إمضاء الأَحكام قِطعةً قِطعةً، وأنت شاكر حامد.

باب أحوالهم عند الخروج مِن الدُّنيا

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٢]؛ يعني: طيبةً نفوسُهم ببذْلِهم مُهجَهم، لا يثْقُلُ عليهم رجوعهم إلى مولاهم.

بسنده إلى أنس رضي الله عنه، أنَّ النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «**كيف تجدك؟**» قال: أرجو الله - يا رسول الله - وأخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمَنه ممَّا يخاف**»(١).

واعلم أنَّ أحوالهم في حال النَّزْع مختلفة، فبعضهم الغالب عليه الهيبة، وبعضهم الغالب عليه الرَّجاء، ومنهم مَن كُشِفَ له في تلك الحالة ما أوجَب له السُّكون وجميلَ الثِّقة.

حكى أبو محمد الجريري قال: كنت عند الجنيد في حال نَزْعه، وكان يومَ الجمعة ويوم نيروز وهو يقرأ القرآن، فختمَه، فقلت: في هذه الحالة يا أبا القاسم؟ فقال: ومَن أولى بذلك مِنِّي، وهو ذا تُطوى صحيفتي !؟

عن أبي محمد الهروي أنه قال: مكثْتُ عند الشِّبْلي الليلةَ التي مات فيها، فكان يقول طولَ ليلته هذين البيتين:

---

(١) أخرجه الترمذي (٩٨٣)، وابن ماجه (٤٢٦١).

كـلُّ بـيـت[١] أنـت سـاكـنـه غـيـرُ مُـحـتـاج إلـى الـسُّـرُج

وجـهُـك الـمـأمـول حُـجَّـتُـنـا يـوم يـأتـي الـنَّـاس بـالـحُـجَـج

قيل لبِشر الحافي - وقد احتُضِر -: كأنَّك يا أبا نصر تحبُّ الحياة؟ فقال: القدوم على الله عزَّ وجلّ شديد.

ولمَّا حضرَت بلالاً الوفاةُ . . قالت امرأتُه: واحزناه، فقال: بل واطرباه . . غداً نلقى الأحبة محمداً وحِزبَه.

وقيل: فتح عبد الله بن المبارك عينيه عند الوفاة وضحك وقال: لمثل هذا فليعمل العاملون.

وقيل: كان مكحول الشَّامي الغالبَ عليه الحزن، فدخلوا عليه في مرض موته وهو يضحك، فقيل له في ذلك، فقال: ولِمَ لا أضحك وقد دنا فِراق ما كنت أحذره، وسرعةُ القدوم على ما كنت أرجوه وأُؤمِّله.

قيل للجنيد: إن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت، فقال: لم يكن بعجيب أن تطير روحه اشتياقاً.

قال بعضُ الفقراء: لمَّا مات يحيى الاصطخْري . . جلسْنا حوله، فقال له رجُل مِنَّا: قل: أشهد أن لا إله إلا الله، فجلس مستوياً، ثم أخذ بيد واحد مِنَّا، وقال له: قل: أشهد أنْ لا إله إلا الله، ثم أخذ بيد آخر، حتى عرَض الشَّهادة على جميع الحاضرين، ثم مات.

وقيل للجنيد: قل: لا إله إلا الله، فقال: ما نسيتُه فأذكرَه، وقال:

حـاضـر فـي الـقـلـب يـعـمـره لـسْـت أنـسـاه فـأذكـرَه

فـهـو مـولاي ومـعـتـمَـدي ونـصـيـبـي مِـنـه أوفـرُه

(١) كناية عن قلب المؤمن.

سئل جعفر بن نُصير بكران الدِّينوري - وكان يخدم الشِّبْلي - ما الذي رأيتَ منه؟ فقال: قال لي: علَيَّ درهم مَظلَمَة، وقد تصدَّقْتُ عن صاحبه بألوف، فما على قلبي شُغل أعظمَ مِنه، ثم قال: وضِّئْني للصَّلاة، ففعلْتُ، فنسيتُ تخليلَ لحيته، وقد أُمسك على لسانه، فقبض على يدي وأدخلها في لحيته، ثم مات، فبكى جعفر وقال: ما تقولون في رجُل لَمْ يفُتْه حتى في آخر عمره أدب مِن آداب الشَّريعة.

قيل لبعضهم: أتحبُّ الموت؟ فقال: القدوم على مَن يُرجى خيره خير مِن البقاء مع مَن لا يؤمَن شرُّه.

وقيل: لمَّا تغيرَت الحال على أبي عثمان الحيري . . مزق ابنُه أبو بكر قميصاً[1]، ففتح أبو عثمان عينيه وقال: يا بُنيَّ . . إنَّ خلاف السُّنَّة في الظَّاهر مِن رياءٍ في الباطن.

قال الجريري: بلغني أنه قيل لذي النون المصري عند النَّزْع: أوصِنا، فقال: لا تشغَلوني؛ فإني مُتعجِّب مِن محاسنِ لُطْفه.

وقال أبو عثمان الحيري: سئل أبو حفص في حال وفاته: ما الذي تعظُنا به؟ فقال: لسْتُ أقوى على القول، ثم رأى مِن نفْسه قوة، فقلت له: قل حتى أحكي عنك، فقال: موعظتي: الانكسار بكلِّ القلب على التَّقصير.

(١) أي: حزناً.

باب المعرفة بالله

قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الزُّمَر: ٦٧]، جاء في التَّفسير: (وما عرفوا الله حقَّ معرفته)[١].

قال الأستاذ: المعرفة على لسان العلماء هو العِلم؛ فكُلُّ عِلم معرفة، وكُلُّ معرفة علم، وكُلُّ عالم بالله عارف، وكُلُّ عارف عالم، وعند هؤلاء القوم المعرفة صفة مَن عَرف الحقَّ سبحانه بأسمائه وصفاته، ثم صَدَق اللهَ تعالى في معاملاته، ثم تنقَّى عن أخلاقِه الرَّديئة وآفاته، ثم طال بالباب وقوفه ودام بالقلب اعتكافه، فحظيَ مِن الله تعالى بجميل إقباله، وصَدق الله في جميع أحواله، وانقطع عنه هواجس نفْسِه، ولمْ يُصْغِ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره، فإذا صار مِن الخلْق أجنبياً ومِن آفات نفْسِه بَريَّاً، ومِن المساكَنات والملاحظات نقيَّاً، ودامَت في السِّرِّ مع الله تعالى مناجاتُه، وحقَّقَ في كُلِّ لحظة إليه رجوعه، وصار مُحدَّثاً مِن قِبَل الحقِّ سبحانه بتعريف أسراره فيما يُجريه مِن تصاريف أقداره . . يُسمَّى عند ذلك عارفاً وتُسمَّى حالته معرفةً.

وبالجملة بمقدار أجنبيته عن نفسه تحصل معرفته بربه.

وقد تكلَّم المشايخ في المعرفة، فكُلٌّ نطقَ بما وَقعَ له، وأشار إلى ما وجده في وقته.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق رحمه الله تعالى يقول: مِن أمارات المعرفة بالله: حصول الهيبة مِن الله، فمَن ازدادت معرفته . . ازدادَت هيبته.

قال أحمد بن عاصم الأنطاكي: مَن كان بالله أَعرَفْ . . كان له أخوَف.

---

(١) انظر ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٧).

وقيل: مَن عرف اللهَ . . صفا له العيش، وطابت له الحياة، وهابَه كُلُّ شيء، وذهب عنه خوف المخلوقين، وأنِسَ بالله تعالى.

قال أبو عمر الأنطاكي: قال رجُل للجنيد: مِن أهل المعرفة أقوام يقولون: إنَّ ترْك الحركات[1] مِن باب البِرِّ والتَّقوى، فقال الجنيد: إنَّ هذا قول قوم تكلَّموا بإسقاط الأعمال، وهو عندي عظيم، والذي يسرِق ويزني أحسن حالاً مِن الذي يقول هذا؛ فإنَّ العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله تعالى، وإلى الله رجعوا فيها، ولو بَقيتُ ألف عام . . لمْ أُنقِص مِن أعمال البرِّ ذرَّة.

وقال يحيى بن معاذ: يخرج العارف مِن الدُّنيا ولا يقضي وَطَرَه مِن شيئين: بكاؤه على نفْسِه، وثناؤه على ربِّه عزَّ وجلّ.

وقال ابن عطاء: المعرفة على ثلاثة أركان: الهيبة والحياء والأنس.

وقيل: العارف أنِسَ بذِكر الله فأوحشَه مِن خَلْقه، وافتقر إلى الله فأغناه عن خَلْقه، وذَلَّ لله تعالى فأعزَّه في خَلْقه.

قال الجريري: سئل أبو تراب عن صفة العارف، قال: الذي لا يُكدِّره شيء، ويصفو به كُلُّ شيء.

وقال ذو النون: علامة العارف ثلاثة: لا يُطفِئ نورُ معرفته نورَ ورعه، ولا يعتقد باطناً مِن العلم يَنقُض عليه ظاهراً مِن الحُكم، ولا تحمِله كثرة نِعَم الله عزَّ وجلّ عليه على هَتْك أستار مَحارم الله.

---

(١) أي: الأعمال كالصلاة والصوم.

باب المحبَّة

قال الله عزَّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المَائدة: ٥٤].

بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن أحبَّ لقاءَ الله .. أحبَّ الله لقاءه، ومَن لم يحبَّ لقاءَ الله .. لم يحبَّ اللهُ لقاءَه**»(١).

وبسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أحب الله عزَّ وجلّ العبد قال لجبريل: يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في أهل السماء: إن الله تعالى قد أحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء ثم يضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض الله العبد قال مالك: لا أحسبه إلا قال في البغض مثل ذلك**»(٢).

قال الأستاذ: والمحبَّة حالة شريفة شهِد الحقُّ سبحانه بها للعبد، وأَخبر عن محبته للعبد، فالحقُّ سبحانه يوصَف بأنَّه يحبُّ العبدَ، والعبد يوصَف بأنَّه يحبُّ الحقَّ سبحانه.

ونحن نذكر من تحقيق هذه المسألة طرفاً إن شاء الله تعالى: فمحبة الحق سبحانه للعبد إرداته لإنعام مخصوص عليه، كما أن رحمته له إرادة الإنعام فالرحمة أخص من الإرادة، والمحبَّة أَخَصُّ مِن الرَّحمة، فإرادة الله تعالى لأنْ يوصِل إلى العبد الثوابَ والإنعامَ تُسمَّى رحمة، وإرادته لأنْ يخُصَّه بالقُربة

(١) أخرجه مسلم (٢٦٨٥/ ١٧)، والترمذي (١٠٦٦)، والحديث عند البخاري (٦٥٠٨) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٦٦٤٧)، والإمام مالك في ((الموطأ)) (١٥) واللفظ له.

والأحوال العَليَّة تُسمَّى محبَّة، وإرادته سبحانه صفة واحدة فبحسب تفاوت متعلقاتها تختلف أسماؤها، فإذا تعلقت بالعقوبة تُسمَّى غضباً، وإذا تعلقت بعموم النعم تُسمَّى رحمة، وإذا تعلقت بخصوصها تُسمَّى محبة.

فأما ما عدا هذه الجملة مما هو المعقول من صفات محبة الخلق كالميل إلى الشيء والاستئناس بالشيء، وكحالة يجدها المحب مع محبوبه من المخلوقين.. فالقديم سبحانه يتعالى عن ذلك.

وأما أقاويل الشيوخ فيه .. فقال بعضهم: المحبَّة: المَيل الدَّائم بالقلب الهائم، وقيل: المحبَّة: إيثار المحبوب على جميع المَصحوب.

وقال سهل: الحبُّ: معانقة الطَّاعة ومبايَنة المخالفة.

وقال أبو علي الرُّوذباري: المحبَّة: الموافقة، وقال الشِّبْلي: سُمِّيت المحبَّة محبَّة؛ لأنها تمحو مِن القلب ما سوى المحبوب، وقال ابن عطاء: المحبَّة: إقامة العِتاب على الدَّوام.

وقال الشِّبْلي: المحبَّة: أنْ تَغار على المحبوب أنْ يحبَّه مثلُك.

وقال سُمْنون: ذهب المحبُّون لله تعالى بشرف الدُّنيا والآخرة؛ لأنَّ النبي ﷺ قال: «**المرء مع مَن أحبَّ**»(١)، فهُم مع الله تعالى.

وقال محمد بن الفضل: المحبَّة: سقوط كُلِّ محبَّة مِن القلب إلَّا محبَّة الحبيب.

قال الحارث المحاسبي: المحبَّة: مَيلُك إلى الشَّيء بكُلِّيَّتِك، ثم إيثارك له على نفْسِك وروحِك ومالِك، ثم موافقتُك له سِرَّاً وجهراً، ثم عِلمك بتقصيرك في حبِّه.

قال الجنيد: دَفع السَّريُّ إليَّ رُقعة وقال: هذه لك خير مِن سبعمائة قصَّة

(١) أخرجه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠/ ١٦٥) عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

أو حديث يعلو[١]، فإذا فيها:

ولما ادَّعيتُ الحبَّ قالت كذبتَني فمالي أرى الأعضاء منك كواسيا
فما الحبُّ حتى يَلْصُقَ القلب بالحشا وتذبَلَ حتى لا تُجيبَ المُناديا
وتنْحَلَ حتى لا يُبقِّي لك الهوى سوى مُقلةٍ تبكي بها وتُناجيا

وقال عبد الله بن المبارك: مَن أُعطي شيئاً مِن المحبَّة ولم يُعطَ مثلَه مِن الخشية . . فهو مخدوع.

وقال أبو حفص: أكثر فساد الأحوال مِن ثلاثة: فِسق العارفين، وخيانة المحبِّين، وكَذِبُ المريدين.

وقال أبو عثمان: فِسق العارفين: إطلاق الطَّرْف واللسان والسَّمع إلى أسباب الدُّنيا ومنافعها، وخيانة المحبِّين: اختيار هواهُم على رضا الله عزَّ وجلّ فيما يستقبلُهم، وكذِب المريدين: أنْ يكون ذِكْرُ الخلْق ورؤيتُهم تغلِب عليهم على ذِكر الله عزَّ وجلّ.

(١) أي: حديث مِن أحاديث الصالحين العالية، وليس مِن أحاديث النبي ﷺ.

باب الشَّوق

قال الله عزَّ وجلّ: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ﴾ [العَنكبوت: ٥].

قال الأستاذ: الشَّوق: اهتياج القلوب إلى لقاء المحبوب، وعلى قَدر المحبَّة يكون الشَّوق.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق يُفرِّق بين الشَّوق والاشتياق، ويقول: الشَّوق يسكن باللِّقاء والرُّؤية، والاشتياق لا يزول باللِّقاء، وفي معناه أنشدوا:

ما يرجعُ الطرف عنه عند رؤيته حتى يعودَ إليه الطَّرْف مشتاقاً

قال النَّصراباذي: للخَلْق كُلهم مقام الشَّوق، وليس لهم مقام الاشتياق، ومَن دَخل في حال الاشتياق . . هام فيه حتى لا يُرى له أثر ولا قرار.

وقال أبو عثمان: علامة الشَّوق: حبُّ الموت مع الرَّاحة.

وقال يحيى بن معاذ: علامة الشَّوق: فِطام الجوارح عن الشَّهوات.

وسئل ابن عطاء عن الشَّوق، فقيل له: الشَّوق أعلى أم المحبَّة؟ فقال: المحبَّة؛ لأنَّ الشَّوق منها يتولَّد.

وقال أبو يزيد البسطامي: إنَّ لله عباداً لو حجبَهم في الجنَّة عن رؤيته . . لاستغاثوا مِن الجنَّة كما يستغيث أهل النَّار مِن النَّار.

وقيل: شوق أهل القُرب أتمُّ مِن شوق المحجوبين؛ ولهذا قيل:

وأبرحُ ما يكون الشَّوق يوماً إذا دَنتِ الخيام مِن الخيام

وقال أبو عثمان الحيري في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ﴾ [العَنكبوت: ٥]: هذا تعزية للمشتاقين، معناه: أنِّي أعلمُ أنَّ اشتياقَكم إليَّ غالب، وأنا أجَّلتُ للقائكم أجلاً، وعن قريب يكون وصولُكم إلى مَن تشتاقون إليه.

قال الجنيد - وقد سئل: مِن أيِّ شيء يكون بكاء المحب إذا لقي المحبوب - فقال: إنَّما يكون ذلك سروراً به، ووجْداً مِن شِدَّة الشَّوق إليه.

بابُ حِفظِ قلُوبِ المشَايخِ وترْكِ الخلافِ عليهم

قال الله تعالى في قصة موسى مع الخَضِر عليهما السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

قال الإمام: لمَّا أراد صُحبة الخَضِر .. حفِظ شرْط الأدب، فاستأذن أوَّلاً في الصُّحبة، ثم شرَط عليه الخَضِر ألَّا يعارضَه في شيء ولا يَعترضَ عليه في حُكْم، ثم لمَّا خالفَه موسى عليه السلام .. تجاوَز عنه المرَّةَ الأولى والثانية، فلما صار إلى الثالثة - والثلاث آخر حدِّ القِلَّة وأوَّل حدِّ الكثرة - سامَهُ[1] الفُرقة، فقال: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨].

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق رحمه الله تعالى يقول: بَدءُ كُلِّ فُرقة المخالفة، يعني به: أنَّ مَن خالف شيخه .. لم يبقَ على طريقته وانقطعت العُلقة بينهما، وإنْ جمعتْهُما البُقعة، فمَن صَحِب شيخاً مِن الشُّيوخ ثم اعترض عليه بقلبه .. فقد نقض عهْدَ الصُّحبة، ووجبت عليه التوبة.

قال الجنيد رحمه الله تعالى: دخلتُ على السَّري يوماً، فأمرني بشيء، فقضيتُ حاجتَه سريعاً، فلمَّا رجعتُ .. ناولَني رقعة وقال: هذا لِمكان قضائك[2] لحاجتي سريعاً، فقرأتُ الرُّقعة، فإذا فيها مكتوب: سمعتُ حادياً يحدو في البادية:

---

(١) أي: أراد الفُرقة منه.

(٢) أي: مكافأة لأنك قضيت ما أمرتُك به.

أبكي وهل يُدريكِ ما يبكيني أبكي حِذاراً أنْ تفارقيني
وتقطعي حَبْلي وتهجُريني[١]

ويُحكى عن أبي الحسن الهمداني العلوي قال: كنت ليلة عند جعفر الخلدي، وكنت أَمرتُ في بيتي أن يُعَلَّق طير في التَّنور، وكان قلبي معه، فقال لي جعفر: أقِم عندنا الليلة، فتعلَّلتُ بشيء، ورجعتُ إلى منزلي، فأُخرج الطَّير مِن التَّنور، ووُضِعَ بين يديَّ، فدخل كلب مِن الباب وحمل الطَّير عند تغافُل الحاضرين، فأُتي بالجواذب[٢] الذي تحته، فتعلَّق به ذيلُ[٣] الخادمة فانصبَّ، فلمَّا أصبحتُ . . دخلتُ على جعفر، فحين وقع بصرُه علَيَّ . . قال: مَن لم يحفظ قلوبَ المشايخ . . سُلِّط عليه كلب يؤذيه.

سمعت أحمد بن يحيى الأبْيوردي يقول: مَن رضي عنه شيخه . . لا يُكافَأُ في حال حياته؛ لئلا يزول عن قلبه تعظيم ذلك الشيخ، فإذا مات الشيخ . . أظهر الله عزَّ وجلّ عليه ما هو جزاء رضاه، ومَن تغيَّر عليه قلب شيخه . . لا يُكافأُ[٤] في حال حياة ذلك الشيخ؛ لئلا يرِقَّ له، فإنهم مجبولون على الكرم، فإذا مات ذلك الشيخ . . فحينئذٍ يجد المكافأةَ[٥] بعده.

---

(١) قال الإمام الأنصاريُّ: فالسَّريُّ رحمه الله تعالى عَلِم مِن حال الجنيد أنَّه نال مِن معرفة الله ومحبَّته حالاً رفيعة، فدلَّه على سبب حفظ الرُّقعة، وأنَّه يبكي خوفاً مِن أنْ يبعدَه الله عنه.

(٢) قال الإمام العروسي: الجواذب: لعلها أشياء توضع في إناء الطَّبَخ، تَجذب ما في اللَّحم مِن الدَّسم، وتؤكل مع الطعام بعد نُضجه.

(٣) أي: طرَف الثَّوب.

(٤) أي: لا يعاقب.

(٥) أي: العقوبة.

باب السَّماع

قال الله عزَّ وجلّ: ﴿...فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزُّمر: ١٧-١٨]، اللام في قوله: ﴿ٱلْقَوْلَ﴾ تقتضي التَّعميم والاستغراق، والدَّليل عليه[١]: أنَّه مدحهم باتِّباع الأحسن.

وقال تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الرُّوم: ١٥]، جاء في التَّفسير: (أنَّه السَّماع)[٢].

واعلم أنَّ سماعَ الأشعار بالألحان الطَّيِّبة والأنغام المُستلذَّة إذا لم يَعتقد المستمعُ محظوراً، ولم يَسمع على مذموم في الشَّرع، ولم يَنجرَّ في زِمام هواه، ولم يَنخرط في سِلْك لَهْوِه . . مباح في الجملة.

ولا خلافَ أنَّ الأشعار أُنشِدتْ بين يدي رسول الله ﷺ، وأنَّه سمعَها ولم يُنكِر عليهم في إنشادها[٣]، فإذا جاز استماعُها بغير الألحان الطَّيِّبة . . فلا يتغيَّر الحُكْم بأنْ يُسمَع بالألحان، هذا ظاهر مِن الأمر، ثم ما يُوجِب للمُستمِع توفُّرَ الرَّغبة على الطَّاعات، وتذَكُّرَ ما أعدَّ الله تعالى لعباده المتَّقين مِن الدَّرجات ويحملُه على التَّحرُّز مِن الزَّلَّات، ويؤدِّي إلى قلبه في الحال صفاءَ الواردات . . مستحبٌّ في الدِّين ومُختار في الشَّرع، وقد جرى على لفظ رسول الله ﷺ ما هو قريب مِن الشِّعر، وإنْ لم يَقصِد أنْ يكون شِعراً.

بسنده إلى أنس رضي الله عنه قال: كانت الأنصار يحفرون الخندق، فجعلوا

---

(١) أي: التَّعميم والاستغراق.

(٢) أورده الطبري في ((تفسيره)) (١٨/ ٤٧٢).

(٣) أخرج ابن ماجه في ((سننه)) (٣٧٥٨) عن عمرو بن الشَّريد عن أبيه قال: أنشدتُ رسول الله ﷺ مائة قافية مِن شِعر أمية بن أبي الصلت، يقول بين كُلِّ قافية: (هيه)، وقال: «**كاد أنْ يُسلِم**».

يقولون:

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً

فأجابهم رسول الله ﷺ: «**اللهم .. لا عيش إلا عيشُ الآخرة، فأكرم الأنصار والمهاجرة**»[١]، وليس هذا اللفظ منه ﷺ على وزن الشِّعر، لكنَّه قريب منه.

وقد سَمِع السَّلف الأكابر الأبياتَ بالألحان، فمِمَّن قال بإباحته مِن السَّلف مالك بن أنس وأهل الحجاز كلُّهم يبيحون الغِناء، وأمَّا الحِداء[٢] .. فإجماعٌ منهم على إجازته، وقد وردت الأخبار واستفاضت الآثار في ذلك، وأُنشد بين يدي النبي ﷺ الأشعارُ، فلم ينهَ عنها، وروي أنَّه ﷺ استنشد الأشعار، ومِن المشهور الظاهر أنَّه دخل بيت عائشة رضي الله عنها وفيه جاريتان[٣] تغنِّيان، فلم ينهَهُما.

بسنده إلى عائشة رضي الله عنها: أنها أنكَحتْ ذاتَ قرابتها مِن الأنصار، فجاء النبي ﷺ، فقال: «**أهديتم الفتاة؟**» فقالت: نعم، قال: «**فأرسلتِ مَن يغنِّي؟**» قالت: لا، فقال النبي ﷺ: «**إنَّ الأنصار قوم فيهم غزَل، فلو أرسلتم مَن يقول: أتيناكم .. أتيناكم، فحيُّونا نحيِّيكم**»[٤].

وبسنده إلى البراء بن عازب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**حسِّنوا القرآن بأصواتكم؛ فإنَّ الصَّوت الحسن يَزيد القرآن حُسناً**»[٥] دلَّ هذا الخبر على فضيلة الصَّوت الحسن.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٦١)، ومسلم (١٨٠٥/ ١٢٧).

(٢) هو الغناء للإبل؛ لكي تسرع في مِشيتها.

(٣) أي: طفلتان من أبناء الأنصار.

(٤) أخرجه ابن ماجه (١٩٠٠)، وأحمد (١٥٢٠٩).

(٥) أخرجه الحاكم في ((المستدرك)) (١/ ٥٧٥)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١٩٥٥).

وبسنده إلى أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لكُلِّ شيء حِلية، وحِلية القرآن: الصَّوت الحسن**»(١).

وبسنده إلى أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**صوتان ملعونان: صوت ويلٍ عند مصيبة، وصوت مِزمار عند نغمة**»(٢)، مفهوم الخطاب يقتضي إباحة غير هذا في غير هذه الأحوال، وإلا بَطَل التَّخصيص.

وإنَّ حُسن الصَّوت مما أنعم الله تعالى به على صاحبه مِن النَّاس؛ قال الله عزَّ وجلّ: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فَاطِر: ١]، قيل في التَّفسير: مِن ذلك: (الصَّوت الحَسن)(٣)، وذَمَّ الله سبحانه الصَّوت الفظيع، فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمَان: ١٩].

واستلذاذُ القلوب واشتياقُها إلى الأصوات الطيبة واستراحُها إليها مما لا يمكن جحوده؛ فإنَّ الطِّفل يَسكُن إلى الصَّوت الطَّيِّب، والجملَ يقاسي تعب السَّير ومشقَّة الحُمولة، فيهون عليه بالحِداء، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ [الغَاشِيَة: ١٧].

وقال ﷺ لأبي موسى الأشعري ﷺ: «**لقد أوتيتَ مِزماراً مِن مزامير آل داود**»(٤)، وقال أبو موسى ﷺ لرسول الله ﷺ: «**لو علمتُ**(٥) **.. لحبَّرتُه لك تحبيراً**»(٦).

---

(١) أخرجه البزار في ((مسنده)) (٧٢٨٠)، وعبد الرزاق في ((مصنفه)) (٤١٧٣).

(٢) أورده الديلمي في ((الفردوس)) (٣٧٧٨)، والهيثمي في مجمع ((الزوائد)) (٤٠١٧) وعزاه للبزار في ((مسنده))، ونغمة؛ أي: معصية.

(٣) أورده السيوطي في ((الدر المنثور)) (٧/ ٤) وعزاه لابن المنذر عن سيدنا ابن عباس ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣/ ٢٣٦) عن سيدنا أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٥) أي: سماعك لقراءتي.

(٦) أخرجه ابن حبان (٧١٩٧)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٢٣٦٦).

قال الجنيد: وقد سئل: ما بال الإنسان يكون هادئاً، فإذا سمع السماعَ . . اضطرب؟ فقال: إنَّ الله تعالى لـمَّا خاطب الذَّرَّ[١] في الميثاق الأول بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] . . استفرغَتْ عذوبةُ سماع الكلام الأرواحَ، فلمَّا سمعوا السَّماع . . حركَهُم ذِكر ذلك.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق يقول: السَّماع حرام على العوام؛ لبقاء نفوسهم، مباح للزُّهَّاد؛ لحصول مجاهداتهم، مستحبٌّ لأصحابنا؛ لحياة قلوبِهم.

سئل ذو النون المصري عن السَّماع، فقال: واردُ حقٍّ يُزعِج[٢] القلوب إلى الحقِّ، فمَن أصغى إليه بحقٍّ . . تحقَّق، ومَن أصغى إليه بنَفْسٍ . . تزندق.

قال الجنيد: السَّماع فِتنة لمَن طلبَه ترويح[٣] لمَن صادَفَه.

ويقال: السَّماع على قسمين: سماع بشرْطِ العِلم والصَّحْو[٤]، فمِن شرْط صاحبه معرفةُ الأسماء والصِّفات، وإلَّا . . وقع في الكفر المحض، وسماع بشرْط الحال، فمِن شرْط صاحبه الفناء عن أحوال البشرية والتَّنقِّي مِن آثار الحظوظ بظهور أحكام الحقيقة.

كان ابن زيري - مِن أصحاب الجنيد - شيخاً فاضلاً، فربَّما كان يحضُر موضعَ سماع، فإن استطابَه . . فرش إزاره وجلس وقال: الصُّوفيُّ مع قلبه، وإنْ لم يستَطِبْه . . قال: السَّماع لأرباب القلوب، ومَرَّ وأخذ نعله.

قال الحصريُّ في بعض كلامه: ما أعمل بسماع ينقطع إذا انقطع من يُسمَع

(١) أي: الأرواح.
(٢) أي: يحرِّك.
(٣) أي: راحة.
(٤) أي: على طريقهما.

منه؟ ينبغي أنْ يكون سماعك متَّصلاً غير منقطع.

وقال الأستاذ أبو سهل الصُّعلوكي: المستمِع بين استتار وتجلٍّ، فالاستتار يوجب التَّلهيب، والتَّجلِّي يورث التَّرويح، والاستتار يتولَّد منه حركات المريدين، وهو محلُّ الضَّعْف والعجز، والتَّجلِّي يتولَّد منه سكون الواصلين، وهو محل الاستقامة والتَّمكين، وذلك صفة الحضرة ليس فيها إلا الذُّبول تحت موارد الهيبة؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

وقال أبو عثمان الحيري: السَّماع على ثلاثة أوجُه:

فوجه منها: للمريدين والمبتدئين: يستدعون بذلك الأحوالَ الشَّريفة، ويُخشى عليهم في ذلك الفتنة والمُراءاة.

والثاني: للصَّادقين: يطلبون الزِّيادة في أحوالهم، ويستمعون مِن ذلك ما يوافق أوقاتهم.

والثالث: لأهل الاستقامة مِن العارفين: فهؤلاء لا يختارون على الله تعالى فيما يَرِدُ على قلوبهم مِن الحركة والسُّكون.

وقال بندار بن الحسين: السَّماع على ثلاثة أوجُه: مِنهم مَن يسمَع بالطَّبع، ومِنهم مَن يسمَع بالحال، ومِنهم مَن يسمَع بالحقِّ، فالذي يسمع بالطَّبع: يشترك فيه الخاصُّ والعامُّ، فإنَّ جِبلَّة البشريَّة استِلذاذ الصَّوت الطَّيِّب.

والذي يسمع بالحال: فهو يتأمَّل ما يَرِدُ عليه مِن ذِكر عتاب أو خطاب أو وصل أو هجر أو قرب أو بعد، أو تأسُّف على فائت، أو تعطُّش إلى آتٍ، أو وفاء بعهد، أو تصديق لوعد، أو نقض لعهد، أو ذِكر قلق أو اشتياق، أو خوف فِراق أو فرح وصال، أو حذر انفصال، أو ما جرى مجراه.

وأمَّا مَن يسمع بحق . . فيسمع بالله تعالى ولله، ولا يتَّصف بهذه الأحوال التي هي ممزوجة بالحظوظ البشرية؛ فإنَّها مَبْقاة مع العِلل، فيسمعون مِن حيث صفاء التَّوحيد بحقٍّ لا بحظٍّ.

وقال الخوَّاص: وقد سُئل: ما بال الإنسان يتحرَّك عند سماع غير القرآن، ولا يجد ذلك مِن سماع القرآن؟ فقال: لأنَّ سماع القرآن صدْمة لا يمكن لأحد أنْ يتحرَّك فيه لشدَّة غلَبته، وسماع القول ترويح فيتحرَّك فيه.

قال الجنيد: إذا رأيتَ المريد يحب السَّماع . . فاعلم أنَّ فيه بقية مِن البطالة.

لمَّا دخل ذو النون المصري بغداد . . اجتمع إليه الصُّوفية ومعهم قَوَّال، فاستأذنوه أنْ يقولَ بين يديه شيئاً، فأذِن، فابتدأ يقول:

صغيرُ هواك عذبني فكيف به إذا احتنكا[1]

وأنت جمعتَ مِن قلبي هَوىً قد كان مشتركا

أمَا ترثي لمكتئب إذا ضحك الخليُّ بكا

قال: فقام ذو النون وسقط على وجهه والدَّم يقطُر مِن جبينه ولا يسقط على الأرض، ثم قام رجُل مِن القوم يتواجد، فقال له ذو النون: الذي يراك حين تقوم، فجلس الرَّجُل.

سمعت الأستاذ أبا علي الدَّقَّاق يقول في هذه الحكاية: كان ذو النون صاحبَ إشرافٍ على ذلك الرَّجُل، حيث نبَّهه أنَّ ذلك ليس مقامه، وكان ذلك الرَّجُل صاحبَ إنصاف، حيث قَبِل ذلك منه، فرجع فقعد.

قال علي بن الحسين بن محمد: سمعت أبي يقول: خدمت سهل بن عبد الله سنين كثيرة، فما رأيتُه تغيَّر عند سماع شيء كان يسمعه مِن الذِّكر والقرآن وغيره، فلمَّا كان في آخر عمُره . . قُرئ بين يديه: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ [الحَديد: ١٥] رأيته تغيَّر وارتعد، وكاد يسقط، فلمَّا رجع إلى حال صَحْوه . . سألتُه عن ذلك، فقال: يا حبيبي . . ضَعُفْنا[2].

---

(١) أي: استولى.

(٢) أي: ضَعُفَ عن كَتْم حاله.

سمعت الشَّيخ أبا عبد الرحمن السُّلَمي يقول: دخلتُ على أبي عثمان المغربي وواحد يستقي الماء مِن البئر على بَكَرة، فقال: يا أبا عبد الرحمن . . أتدري ما تقول البَكَرة؟ فقلت: لا، فقال: تقول: الله . . الله.

باب كرامات الأولياء

قال الأستاذ أبو القاسم: ظهور الكرامات على الأولياء جائز، والدَّليل على جوازه أنَّه أمر موهوم[1] حدوثُه في العقل، لا يؤدي حصوله إلى رفع أصل مِن الأصول، فواجب وصفه - سبحانه - بالقُدرة على إيجاده، وإذا وجب كونه مقدوراً لله سبحانه . . فلا شيء يمنع جواز حصوله.

وأمَّا الإمام أبو بكر بن فورك - رحمه الله تعالى - فكان يقول: المعجزات دِلالات الصِّدق، ثم إنِ ادَّعى صاحبُها النُّبوة . . فالمعجزات تدلُّ على صدقه في مقالته، وإنْ أشار صاحبُها إلى الوِلاية . . دلَّت المعجزة على صدقه في حالته، فتُسمَّى كرامة ولا تُسمَّى معجزة، وإنْ كانت مِن جنس المعجزات للفرْق.

وقال أبو بكر الأشعري: إنَّ المعجزات تختصُّ بالأنبياء، والكرامات تكون للأولياء كما تكون للأنبياء، ولا تكون للأولياء معجزة؛ لأنَّ مِن شرْطِ المعجزة اقترانُ دعوى النُّبوة بها، والمعجزة لم تكن معجزة لِعَينها وإنَّما كانت معجزة لحصولها على أوصاف كثيرة، فمتى اختلَّ شَرْط مِن تلك الشَّرائط . . لا تكون معجزة، وأحد تلك الشَّرائط: دعوى النُّبوة، والوليُّ لا يدَّعي النُّبوة، فالذي يَظهَر عليه لا يكون معجزة، وهذا هو القول الذي نعتمده ونقول به، بل نَدِين به.

---

(١) أي: أنَّه من الجائزات.

واختلف أهل الحق في الولي: هل يجوز أنْ يَعلم أنَّه وليٌّ أم لا؟

فكان الإمام أبو بكر بن فورك رحمه الله تعالى يقول: لا يجوز ذلك؛ لأنه يَسلبُه الخوف ويوجب له الأمن.

وكان الأستاذ أبو علي الدَّقَّاق رحمه الله تعالى يقول بجَوازه، وهو الذي نؤْثِره ونقول به.

وليس ذلك[١] بواجب في جميع الأولياء حتى يكون كُلُّ وليٍّ يعلم أنَّه وليٌّ واجباً، ولكنْ يجوز أنْ يَعلمَ بعضهم كما يجوز ألَّا يَعلمَه بعضُهم، فإذا عَلم بعضهم أنَّه وليٌّ . . كانت معرفتُه تلك كرامةً له انفرد بها.

وبالجملة، فالقول بجواز ظهورها على الأولياء واجب، وعليه جمهور أهل المعرفة ولكثرة ما تواتر بأجناسها الأخبار والحكايات صار العلم بكونها وظهورها على الأولياء في الجملة علماً قوياً انتفى عنه الشكوك.

ومِن دلائل هذه الجُملة: نصُّ القرآن في قصة صاحب سليمان عليه السلام، حيث قال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النَّمل: ٤٠]، ولم يكن نبيًّا.

والأثر: عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه صحيح أنه قال: يا ساريةُ . . الجبلَ في حال خطبته يوم الجمعة، وتبليغُ صوت عمرَ إلى سارية في ذلك الوقت حتى تحرَّز مِن مَكامِن العدو مِن الجبل في تلك السَّاعة[٢].

وليس كُلُّ كرامة لولي يجب أنْ تكونَ تلك بعينِها لجميع الأولياء، بل لو لم يكن للولي كرامة ظاهرة عليه في الدُّنيا . . لم يَقدح عدمها في كونه وليًّا، بخلاف الأنبياء، فإنه يجب أنْ تكونَ لهم معجزات؛ لأنَّ النبي مبعوث إلى الخلْقِ، فبالناس حاجة إلى معرفة صدقه، ولا يُعرَف إلا بالمعجزة، وقول مَن

(١) العِلم بأنَّه ولي.

(٢) أخرجه البيهقي في ((الاعتقاد)) (١/ ٣٢١)، وأبو نعيم في ((دلائل النبوة)) (٢/ ١٤١) عن سيدنا عبد الله بن عمر.

قال لا يجوز ذلك لأنَّه يخرجهم مِن الخوف فلا بأْسَ أنْ يخافوا تغييرَ العاقبة، والذي يجدونه في قلوبهم مِن الهيبة والتَّعظيم والإجلال للحقِّ سبحانه يزيد ويربو على كثير مِن الخوف.

فإن قيل: كيف يجوز إظهار هذه الكرامات الزائدة في المعاني على معجزات الرسل؟ وهل يجوز تفضيل الأولياء على الأنبياء عليهم السلام؟ قيل: هذه الكرامات لاحقة بمعجزات نبينا ﷺ؛ لأن كل من ليس بصادق في الإسلام لا تظهر عليه الكرامة، وكُلُّ نبيٍّ ظهَرتْ كرامته على واحد مِن أمَّته . . فهي معدودة مِن جملة معجزاتِه؛ إذ لو لم يكن ذلك الرَّسول صادقاً . . لم تظهَرْ على يد مَن تابَعَه الكرامة، فأما رُتبة الأولياء . . فلا تبلغُ رُتبةَ الأنبياء عليهم السلام؛ للإجماع المنعقِد على ذلك.

فصل

هذه الكرامات قد تكون إجابةَ دعوة، وقد تكون إظهارَ طعام في أوانِ فاقة مِن غير سبب ظاهر، أو حصولَ ماء في زمانِ عطش، أو تسهيلَ قطْعِ مسافة في مدَّة قريبة، أو تخليصاً مِن عدو، أو سماعَ خِطاب مِن هاتف، أو غيرَ ذلك مِن فنون الأفعال الناقضة للعادة.

واعلم أنَّ كثيراً مِن المقدورات يُعلَم اليوم قطعاً أنَّه لا يجوز أنْ يَظهر كرامةً للأولياء، فمِنها حصول إنسانٍ لا مِن أبوين، وقلبُ جمادٍ بهيمةً أو حيواناً، وأمثال هذا كثير.

فصل

فإنْ قيل: هل يكون الوليُّ معصوماً؟ قيل: أمَّا وجوباً كما يقال في الأنبياء . . فلا، وأمَّا أنْ يكون محفوظاً حتى لا يُصِرَّ على الذُّنوب إنْ حصلت هَنَات أو آفات أو زلَّات . . فلا يمتنع ذلك في وصفهم.

فصل

فإن قيل: هل يسقط الخوف عن الأولياء؟ قيل: أمَّا الغالب على الأكابر . . فكان الخوف، وذلك الذي قلنا فيما تقدَّم على جهة النُّدرة غيرُ ممتنع، وهذا السَّريُّ السَّقطي يقول: لو أنَّ واحداً دخل بستاناً فيه أشجار كثيرة وعلى كُلِّ شجرة طير يقول له بلسان فصيح: السَّلام عليك يا وليَّ الله . . فلو لم يخَفْ أنَّه مَكْر . . لكان ممكوراً، وأمثال هذا مِن حكاياتهم كثيرة.

فصل

فإن قيل: هل تجوز رؤية الله سبحانه بالأبصار اليومَ في الدُّنيا على جهة الكرامة؟ فالجواب عنه: أنَّ الأقوى فيه أنَّه لا يجوز؛ لحصول الإجماع عليه، ولقد سمعت الإمام أبا بكر بن فورك - رضي الله عنه - يَحكي عن أبي الحسن الأشعري أنَّه قال: في ذلك قولين في كتاب «الرؤية الكبير».

فصل

فإن قيل: هل يجوز أنْ يكونَ وليًّاً في الحال ثم تتغيَّر عاقبته؟ قيل: مَن جعل مِن شرْطِ الوِلاية حُسن الموافاة . . لا يُجوِّز ذلك، ومَن قال: إنَّه في الحال مؤمَّنٌ على الحقيقة وإنْ جاز أنْ يتغيَّر حاله بَعدُ . . لا يَبعُد أنْ يكونَ وليًّاً في الحال صِدِّيقاً ثم يتغيَّر، وهو الذي نختارُه.

ويجوز أنْ يكونَ مِن جُملة كرامات الولي أنْ يَعلمَ أنَّه مأمونُ العاقبة، وأنَّه لا تتغيَّر عاقبتُه، فتلتحق هذه المسألة بما ذكرنا أنَّ الوليَّ يجوز أنْ يَعلمَ أنَّه وليٌّ.

فصل

فإن قيل: هل يُزايِل الوليَّ خوفُ المكر؟ قيل: إنْ كان مصطلَماً عن شاهده مختطَفاً عن إحساسه بحاله . . فهو مستهلَك عنه فيما استولى عليه، والخوف مِن صفات الحاضرين بهم[1].

فصل

فإن قيل: ما الغالب على الولي في صَحْوه؟ قيل: صدقه في أداء حقوقه سبحانه، ثم رِفقُهُ وشفقته على الخلق في جميع أحواله، ثم انبساط رحمته لكافَّة الخلْقِ، ثم دوام تحمُّله عنهم بجميل الخلُق، وابتدائه لطلب الإحسان

(١) أي: الذين لم يأخذهم الاستغراق في الحال.

مِن الله عزَّ وجلّ إليهم مِن غير التماس مِنهم، وتعليقُ الهِمَّة بنجاة الخلْقِ، وتركُ الانتقام منهم، والتَّوقِّي عن استشعار حِقدٍ عليهم مع قِصَر اليد عن أموالهم، وترْكُ الطَّمع بكُلِّ وجه فيهم، وقبْضُ اللسان عن بسْطِه بالسُّوء فيهم، والتَّصاوُنُ عن شهود مساويهم، ولا يكون خصماً لأحد في الدُّنيا ولا في الآخرة.

واعلم أنَّ مِن أجَلِّ الكرامات التي تكون للأولياء: دوامَ التَّوفيق للطَّاعات، والعصمةَ عن المعاصي والمخالفات، وممَّا يشهد مِن القرآن على إظهار الكرامات على الأولياء قوله سبحانه في صفة مريم عليها السلام ولم تكن نبيَّاً ولا رسولاً: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾، وكان يقول: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾، فتقول مريم: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: ٣٧]، وقوله سبحانه: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مَريَم: ٢٥] وكان في غير أوان الرُّطَب، وكذلك قصَّة أصحاب الكهف والأعاجيب التي ظهَرتْ عليهم، ومِن قصَّة ذي القرنين وتمكينِه سبحانَه له ما لم يُمَكِّن لغيره، ومِن ذلك ما أُظهِر على يدي الخَضِر - عليه السلام - مِن إقامة الجدار وغيره مِن الأعاجيب، وما كان يعرفه مما خفيَ على موسى عليه السلام، كُلُّ ذلك أمور ناقضة للعادة اختُصَّ الخَضِر عليه السلام بها، ولم يكن نبيَّاً، وإنَّما كان وليَّاً.

ومما روي مِن الأخبار في هذا الباب حديث جُرَيج الرَّاهب، ومِن ذلك حديث الغار، وهو مشهور مذكور في الصِّحاح، ولقد ظهر على السَّلف مِن الصَّحابة والتابعين، ثم على مَن بعدهم مِن الكرامات ما بلغ حدَّ الاستفاضة.

فمِن ذلك: أنَّ ابن عمر رضي الله عنهما كان في بعض الأسفار، فلقيَ جماعة وقفوا على الطريق مِن خوف السَّبُع، فطردَ السَّبُعَ مِن طريقهم، ثم قال: إنَّما يُسلَّط على ابن آدم ما يَخافه، ولو أنَّه لمْ يَخَفْ غيرَ الله . . لمَا سُلِّط عليه شيء، وهذا خبر معروف.

وروي أنَّ عبَّاد بن بِشر وأسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله ﷺ، فأضاء لهما رأس عصا أحدِهما كالسِّراج[١].

سمعت منصوراً المغربيَّ يقول: سمعت أحمد بن عطاء الرُّوذْباري يقول: كان لي استقصاء[٢] في أمر الطَّهارة، فضاق صدري ليلة؛ لكثرة ما صببتُ مِن الماء، ولم يسكن قلبي، فقلت: يا ربِّ . . عفوك، فسمعتُ هاتفاً يقول: العفو في العلم، فزال عني ذلك، سمعت منصوراً المغربيَّ يقول: فرأيتُه يوماً قعد على الأرض في الصَّحراء، وكان عليها آثار الغنم بلا سَجَّادة، فقلت: أيُّها الشَّيخ . . هذه آثار الغنم !! فقال: اختلف الفقهاء فيه[٣].

وقيل لأبي يزيد: فلان يمشي في ليلة إلى مكة، فقال: الشَّيطان يمشي في ساعة مِن المشرق إلى المغرب في لعنة الله.

وقيل له: فلان يمشي على الماء ويطير في الهواء، فقال: الطَّير يطير في الهواء، والسَّمك يمرُّ على وجه الماء.

وقال سهل بن عبد الله: أكبر الكرامات: أنْ تُبدِّل خُلُقاً مذموماً مِن أخلاقك.

وعن آدم بن أبي إياس قال: كنَّا بعسقلان، وشاب يغشانا ويجالسنا ويتحدث معنا، فإذا فرَغْنا . . قام إلى الصلاة يصلِّي، قال: فودَّعَنا يوماً وقال: أريد الإسكندريَّة، فخرجتُ معه وناولته دريهِمات، فأبى أنْ يأخذَها، فألححتُ عليه، فألقى كفَّاً مِن الرَّمل في رَكوته واستقى مِن ماء البحر وقال: كُلْه، فنظرت، فإذا هو سَويق بسُكَّر كثير، فقال: مَن كان حالُه معه مثلَ هذا . . يحتاج إلى دراهمك؟! ثم أنشأ يقول:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٠٥)، والنسائي في ((الكبرى)) (٨٢٤٥) عن سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٢) أي: مبالغة.

(٣) أي: لمَّا تعلَّم العلم . . هان عليه كثير ممَّا كان يستشكلُه.

بحقِّ الهوى يا أهل ودِّي تفهموا لسانُ وجودي بالوجود غريب
حرامٌ على قلبٍ تعرَّض للهوى يكونُ لغير الحقِّ فيه نصيب

قال أحمد بن محمد بن عبد الله الفرغاني: تزوَّج عبَّاس بن المهتدي امرأة، فلمَّا كانت ليلة الدُّخول . . وقع عليه ندامة، فلمَّا أراد الدُّنوَّ منها . . زُجِر عنها، فامتنع مِن وطئها وخرج، فبَعد ثلاثة أيَّام ظهر لها زوج، قال الأستاذ الإمام: هذا هو الكرامة على الحقيقة؛ حيث حُفِظ عليه العِلم[١].

باب رؤيا القوم

قال الله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ [يُونس: ٦٤]، قيل: هي الرُّؤيا الحسنة يراها المرء أو تُرى له.

بسنده إلى أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سألتُ النبي ﷺ عن هذه الآية: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ [يُونس: ٦٤]، قال ﷺ: «**ما سألني عنها أحدٌ قبلَك، هي الرُّؤيا الحسنة يراها المرء أو تُرى له**»[٢].

وبسنده إلى أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الرُّؤيا مِن الله، والحُلْم مِن الشَّيطان، فإذا رأى أحدكم رؤيا يكرهُها . . فليتْفِل عن يساره، وليتعوَّذ، فإنَّها لن تضرَّه**»[٣].

وبسنده إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ومَن رآني**

(١) أي: حفظَه الله عزَّ وجلّ ببركة العلم.
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في ((مصنفه)) (٣١٠٩٢).
(٣) أخرجه البخاري (٧٠٠٥)، ومسلم (٢٢٦١/ ٢)، والنسائي في ((الكبرى)) (١٠٦٦٧) واللفظ له.

في المنام . . فقد رآني؛ فإن الشيطان لا يتمثَّل في صورتي»[١].

وفي الخبر: «**أصدَقُكم رؤيا . . أصدَقُكم حديثاً**»[٢].

وقيل: المريد: أكْلُه فاقة، ونومه غلَبة، وكلامه ضرورة.

وقيل: أحسن أحوال العاصي أنْ ينامَ، إنْ لم يكن الوقت له . . لم يكن عليه.

وقيل: قالت بنت لمالك بن دينار: لمَ لا تنام؟ فقال: إنَّ أباكِ يخاف البَيات.

وقيل: لمَّا مات الربيع بن خيثم . . قالت بُنيَّة لأبيها: الأسطوانة التي كانت في دار جارنا أين ذهبتْ؟ فقال: إنَّه كان جارنا الصَّالح يقوم مِن أوَّل الليل إلى آخره، فتوهَّمَت البُنيَّة أنَّه كان سارية؛ لأنها كانت لا تصعد السَّطح إلا بالليل فتجده قائماً.

سمعت أبا بكر بن أشكيب يقول: رأيت الأستاذ أبا سهل الصُّعلوكي في المنام على حالة حسنة، فقلت: يا أستاذ . . بِمَ وجدتَ هذا؟ فقال: بحُسن ظنِّي بربِّي.

سمعت الأستاذ أبا علي يقول: رأى الجَريريُّ الجنيدَ في المنام، فقال: كيف حالُك يا أبا القاسم؟ فقال: طاحَتْ تلك الإشارات، وبادَتْ تلك العبارات، وما نفعَنا إلا تسبيحاتٍ كُنَّا نقولها بالغَدوات.

وقال علي بن الموفَّق: كنت أفكِّر يوماً في سبب عيالي مِن الفقر الذي بهم، فرأيت في المنام رقعةً فيها مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم، يا ابن الموفَّق . . أتخشى الفقر وأنا ربُّك ! فلمَّا كان وقت الغَلَس . . أتاني رجُل

---

(١) أخرجه البخاري (١١٠)، ومسلم (٢٢٦٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، والحديث عند أبي داود (٣٩٠٠) عن سيدنا ابن مسعود.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٦٣)، وأحمد (٧٦٤٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

بكيس فيه خمسة آلاف دينار وقال: خُذْها إليك يا ضعيفَ اليقين.

وقد نَجَز لنا إملاء هذه الرِّسالة في أوائل سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة، نسأل الله الكريم ألَّا يجعلها حُجَّة علينا ووبالاً، بل تكون لنا وسيلةً ونوالاً، إنَّ الفضل مِنه مألوف، وهو بالعفو موصوف، والحمد لله حقَّ حمده، وصلواته وبركاته ورحمته على رسوله سيدنا محمد النبي الأُمِّي وآله الطَّاهرين وصَحْبِه الكرام، وسلِّم تسليماً كثيراً.

فهرس الموضوعات

عملي في الكتاب ٧

كلمة شكر ٨

الإسناد إلى الإمام القشيري ٩

التصوف حقيقته ونشأته ١٢

أولاً: تعريف التصوف ١٣

تعريف الصوفي ١٦

ثانياً: نشأة علم التصوف ١٧

ثالثاً: موضوع علم التصوف ٢٢

رابعاً: فائدة علم التصوف ٢٣

ترجمة الإمام القُشَيرِيِّ قدَّس الله تعالى سرَّه ٢٥

الإمام القشيري وأقوال العلماء فيه ٢٥

جملة من حياته ٢٧

مما امتحن به رحمه الله تعالى ٣١

شيوخه ٣١

تلامذته ٣٢

سنده في الطريق ٣٢

أولاده ٣٢

من رواياته ٣٤
من أقواله ٣٥
من نظمه ٣٦
من كتبه ٣٧
وفاته رحمه الله تعالى ٣٨
الرسالة القشيرية إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام ٣٩
طريقة الإمام في ترتيب الرسالة ٤٢
ظهور تأثير شيخه فيه بين سطورها ٤٣
طبعاتها وشروحها ٤٤
بابُ الوصيَّةِ للمريدين ٤٧
فصل في بيان اعتقاد هذه الطائفة في مسائل الأصول ٥٩
معرفة الله تعالى ٦٠
صفاته سبحانه وتعالى ٦١
الإيمانُ ٦٣
العرش ٦٤
فصل في بيان عقائدهم في مسائل التوحيد ٦٦
بابٌ في تفسير ألفاظٍ تدور بين هذه الطائفة، وبَيانُ ما يُشكِلُ منها ... ٦٨
فمن ذلك: الوقت ٦٨
المَقام ٦٩
الحال ٦٩
القَبْض والبَسْط ٧٠

الهيبة والأُنْس ٧١
التَّواجد والوَجْد والوجُود ٧١
الجَمْع والفَرْق ٧٤
جمعُ الجمعِ ٧٤
الفناءُ والبقاءُ ٧٥
الغَيبةُ والحضورُ ٧٧
الصَّحْو والسُّكْر ٧٨
الذَّوْق والشُّرْب ٧٩
المحْو والإثبات ٨٠
السَّتْر والتَّجلِّي ٨٠
المحاضَرة والمكاشَفة والمشاهَدة ٨٢
اللَّوائحُ والطَّوالعُ واللَّوامعُ ٨٢
البَوادِه والهجوم ٨٣
التَّلوين والتَّمكين ٨٤
القُرْب والبُعْد ٨٤
الشَّريعة والحقيقة ٨٦
النَّفَس ٨٦
الخواطر ٨٧
علمُ اليقين وعينُ اليقين وحقُّ اليقين ٨٨
الوارد ٨٩
الشَّاهد ٨٩
النَّفْس ٨٩

الرُّوح ٩٠
السِّرُّ ٩١

باب في ذكر مشايخ هذه الطريقة وما يدلُّ من سِيَرهم وأقوالِهم على تعظيم الشريعة ٩٢

فمنهم: أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ بنِ مَنصُور ٩٢
ومنهم: أبو الفيضِ ذُو النونِ المصريُّ ٩٤
ومنهم: أبو عليٍّ الفضيلُ بنُ عياضٍ ٩٥
ومنهم: أبو مَحفُوظٍ معروفٌ بنُ فيروزٍ الكَرخيُّ ٩٥
ومنهم: أبو الحسنِ سَرِيُّ بنُ المُغَلِّسِ السَّقَطيُّ ٩٧
ومنهم: أبو نَصْرٍ بِشْرُ بنُ الحارثِ الحافيُّ ٩٨
ومنهم: أبو عَبْدِ اللهِ الحارثُ بنُ أسدٍ المحاسِبيُّ ٩٨
ومنهم: أبو سليمانَ داودُ بنُ نُصيرٍ الطائيُّ ٩٩
ومنهم: أبو عليٍّ شقيقُ بنُ إبراهيمَ البَلْخيُّ ١٠٠
ومنهم: أبو يزيدَ طيفورُ بنُ عيسى البِسطاميُّ ١٠٠
ومنهم: أبو محمدٍ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ التُّسْتَريُّ ١٠١
ومنهم: أبو سليمانَ عبدُ الرحمنِ بنُ عطيةَ الدَّاراني ١٠٣
ومنهم: أبو عبدِ الرحمنِ حاتمُ بنُ علوانَ الأصمُّ ١٠٣
ومنهم: أبو زكريَّا يحيى بنُ معاذٍ الرازيُّ الواعظُ ١٠٤
ومنهم: أبو حامدٍ أحمدُ بنُ خَضْرَوَيه البلْخيُّ ١٠٥
ومنهم: أبو الحسينِ أحمدُ بنُ أبي الحواريِّ ١٠٥
ومنهم: أبو حفصٍ عمرُ بنُ مَسْلمةَ الحدادُ ١٠٦
ومنهم: أبو ترابٍ عسكرُ بنُ حصينٍ النخْشبيُّ ١٠٦

ومنهم: أبو محمدٍ عبدُ اللهِ بنُ خُبَيقٍ ١٠٧
ومنهم: أبو عليٍّ أحمدُ بنُ عاصمٍ الأنطاكيُّ ١٠٨
ومنهم: أبو السِّرِيِّ منصورُ بنُ عمارٍ ١٠٨
ومنهم: أبو صالحٍ حمدونُ بنُ أحمدَ بنِ عُمارةَ القصارُ ١٠٩
ومنهم: أبو القاسمِ الجنيدُ بنُ محمدٍ ١١٠
ومنهم: أبو عثمانَ سعيدُ بنُ إسماعيلَ الحِيريُّ ١١١
ومنهم: أبو الحسينِ أحمدُ بنُ محمدٍ النُّوريُّ ١١٢
ومنهم: أبو عبدِ اللهِ أحمدُ بنُ يحيى الجَلَّاءُ ١١٣
ومنهم: أبو محمدٍ رُوَيمُ بنُ أحمدَ ١١٣
ومنهم: أبو عبدِ اللهِ محمدُ بنُ الفضلِ البلْخيُّ ١١٤
ومنهم: أبو بكرٍ أحمدُ بنُ نصرٍ الزَّقاقُ الكبيرُ ١١٥
ومنهم: أبو عبدِ اللهِ عمرُو بنُ عثمانَ المكِّيُّ ١١٥
ومنهم: أبو الحسنِ سمنونُ بنُ حمزةَ ١١٦
ومنهم: أبو عُبيدٍ البُسْريُّ ١١٧
ومنهم: أبو الفوارسِ شاهُ بنُ شجاعٍ الكرمانيُّ ١١٧
ومنهم: أبو يعقوبَ يوسفُ بنُ الحسينِ الرازيُّ ١١٨
ومنهم: أبو عبدِ اللهِ محمدُ بنُ عليٍّ الترمذيُّ ١١٨
ومنهم: أبو بكرٍ محمدُ بنُ عمرَ الورَّاقُ الترمذيُّ ١١٩
ومنهم: أبو سعيدٍ أحمدُ بنُ عيسى الخرَّازُ ١١٩
ومنهم: أبو عبدِ اللهِ محمدُ بنُ إسماعيلَ المغربيُّ ١٢٠
ومنهم: أبو العباسِ أحمدُ بنُ محمدِ بنِ مسروقٍ ١٢٠
ومنهم: أبو الحسنِ عليُّ بنُ سهلٍ الأصبَهانيُّ ١٢١

ومنهم: أبو محمدٍ أحمدُ بنُ محمدِ بنِ الحسينِ الجريريُّ ١٢١
ومنهم: أبو العباسِ أحمدُ بنُ محمدِ بنِ سهلِ بنِ عطاءٍ الآدَميُّ ١٢١
ومنهم: أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ أحمدَ الخوَّاصُ ١٢٢
ومنهم: أبو محمدٍ عبدُ اللهِ بنُ محمدٍ الخرَّازُ ١٢٢
ومنهم: أبو الحسنِ بُنانُ بنُ محمدٍ الحمَّالُ ١٢٣
ومنهم: أبو حمزةَ البغداديُّ البزَّازُ ١٢٣
ومنهم: أبو بكرٍ محمدُ بنُ موسى الواسطيُّ ١٢٤
ومنهم: أبو الحسنِ عليُّ بنُ محمدِ بنِ سهلٍ الدِّينَوَريُّ ابنُ الصَّائغِ ... ١٢٥
ومنهم: أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ داودَ الرقيُّ ١٢٥
ومنهم: مِمْشادٌ الدِّيْنَوَريُّ ١٢٥
ومنهم: خَيرٌ النَّسَّاجُ ١٢٦
ومنهم: أبو حمزةَ الخراسانيُّ ١٢٧
ومنهم: أبو بكرٍ دُلَفُ بنُ جَحْدَرٍ الشِّبْليُّ ١٢٧
ومنهم: أبو محمدٍ عبدُ اللهِ بنُ محمدٍ المرتَعِشُ ١٢٨
ومنهم: أبو عليٍّ أحمدُ بنُ محمدٍ الرُّوذباريُّ ١٢٨
ومنهم: أبو محمدٍ عبدُ اللهِ بنُ مُنازلٍ ١٢٨
ومنهم: أبو عليٍّ محمدُ بنُ عبدِ الوهابِ الثَّقفيُّ ١٢٩
ومنهم: أبو الخيرِ الأقطعُ ١٢٩
ومنهم: أبو بكرٍ محمدُ بنُ عليٍّ الكَتَّانيُّ ١٢٩
ومنهم: أبو يعقوبَ إسحاقُ بنُ محمدٍ النَّهْرَجوريُّ ١٣٠
ومنهم: أبو الحسنِ عليُّ بنُ محمدٍ المُزَيِّنُ ١٣٠
ومنهم: أبو عليٍّ الحسنُ بنُ أحمدَ بنِ الكاتبِ ١٣١

ومنهم: مُظفَّرُ القِرْمِسينيُّ ١٣١
ومنهم: أبو بكرٍ عبدُ اللهِ طاهرٌ الأبْهَريُّ ١٣١
ومنهم: أبو الحسينِ بنُ بُنانٍ ١٣٢
ومنهم: أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ شيبانَ القِرْمِسينيُّ ١٣٢
ومنهم: أبو بكرٍ الحسينُ بنُ عليِّ بنِ يَزْدَانِيَارَ ١٣٢
ومنهم: أبو سعيدٍ أحمدُ بنُ محمدِ بنِ زيادِ بنِ الأعرابيِّ ١٣٣
ومنهم: أبو عمرٍو محمدُ بنُ إبراهيمَ الزَّجَّاجيُّ النيسابوريُّ ١٣٣
ومنهم: أبو محمدٍ جعفرُ بنُ محمدِ بنِ نُصَيرٍ ١٣٣
ومنهم: أبو العباسِ القاسمُ بنُ القاسمِ السَّيَّاريُّ ١٣٤
ومنهم: أبو بكرٍ محمدُ بنُ داودَ الدِّينَوَريُّ ١٣٤
ومنهم: أبو محمدٍ عبدُ اللهِ بنُ محمدٍ الرَّازيُّ ١٣٤
ومنهم: أبو عمرٍو إسماعيلُ بنُ نُجَيدٍ ١٣٥
ومنهم: أبو الحسنِ عليُّ بنُ أحمدَ بنِ سهلٍ البُوشنجيُّ ١٣٥
ومنهم: أبو عبدِ اللهِ محمدُ بنُ خفيفٍ الشِّيرازيُّ ١٣٥
ومنهم: أبو الحسينِ بُنْدارُ بنُ الحسينِ الشِّيرازيُّ ١٣٦
ومنهم: أبو بكرٍ الطِّمستانيُّ ١٣٧
ومنهم: أبو العباسِ أحمدُ بنُ محمدٍ الدِّينَوَريُّ ١٣٧
ومنهم: أبو عثمانَ سعيدُ بنُ سَلَّامٍ المغربيُّ ١٣٧
ومنهم: أبو القاسمِ إبراهيمُ بنُ محمدٍ النَّصراباذيُّ ١٣٨
ومنهم: أبو الحسنِ عليٌّ بنُ إبراهيمَ الحُصَريُّ ١٣٩
ومنهم: أبو عبدِ اللهِ أحمدُ بنُ عطاءٍ الرُّوذْباريُّ ١٣٩
قال أبو القاسم الأستاذ الإمام جمال الإسلام رضي الله عنه: ١٤٠

شرح المقامات باب التَّوبة ١٤١
باب المجاهدة ١٤٤
باب الخلوة والعُزلة ١٤٦
باب التَّقوى ١٤٧
باب الورع ١٤٩
باب الزُّهد ١٥٠
باب الصمت ١٥٢
باب الخوف ١٥٤
باب الرَّجاء ١٥٦
باب الحُزن ١٥٩
بابُ الجوع وترْكِ الشَّهوة ١٦٠
باب الخشوع والتَّواضع ١٦١
باب مخالفة النَّفْس وذِكر عيوبها ١٦٤
باب الحسد ١٦٥
باب الغِيبة ١٦٦
باب القناعة ١٦٨
باب التَّوكُّل ١٦٩
باب الشُّكر ١٧٢
باب اليقين ١٧٤

باب الصَّبر ١٧٦

باب المراقبة ١٧٨

باب الرِّضا ١٧٩

باب العبودية ١٨١

باب الإرادة ١٨٢

باب الاستقامة ١٨٤

باب الإخلاص ١٨٥

باب الصِّدق ١٨٧

باب الحياء ١٨٩

باب الحرِّية ١٩٠

باب الذِّكر ١٩١

باب الفُتوَّة ١٩٣

باب الفِراسة ١٩٥

باب الخُلُق ١٩٧

باب الجود والسَّخاء ١٩٩

باب الغَيْرَة ٢٠١

باب الوِلاية ٢٠٢

باب الدُّعاء ٢٠٥

باب الفقر ٢٠٧

باب التَّصوُّف ٢١٠
باب الأدب ٢١١
باب أحكامهم في السَّفر ٢١٣
باب الصُّحْبة ٢١٦
باب التَّوحيد ٢١٨
باب أحوالهم عند الخروج مِن الدُّنيا ٢٢٠
باب المعرفة باللّٰه ٢٢٣
باب المحبَّة ٢٢٥
باب الشَّوق ٢٢٨
بابُ حِفظِ قلُوبِ المشَايخِ وترْكِ الخلافِ عليهم ٢٢٩
باب السَّماع ٢٣١
باب كرامات الأولياء ٢٣٧
باب رؤيا القوم ٢٤٤
فهرس الموضوعات ٢٤٧